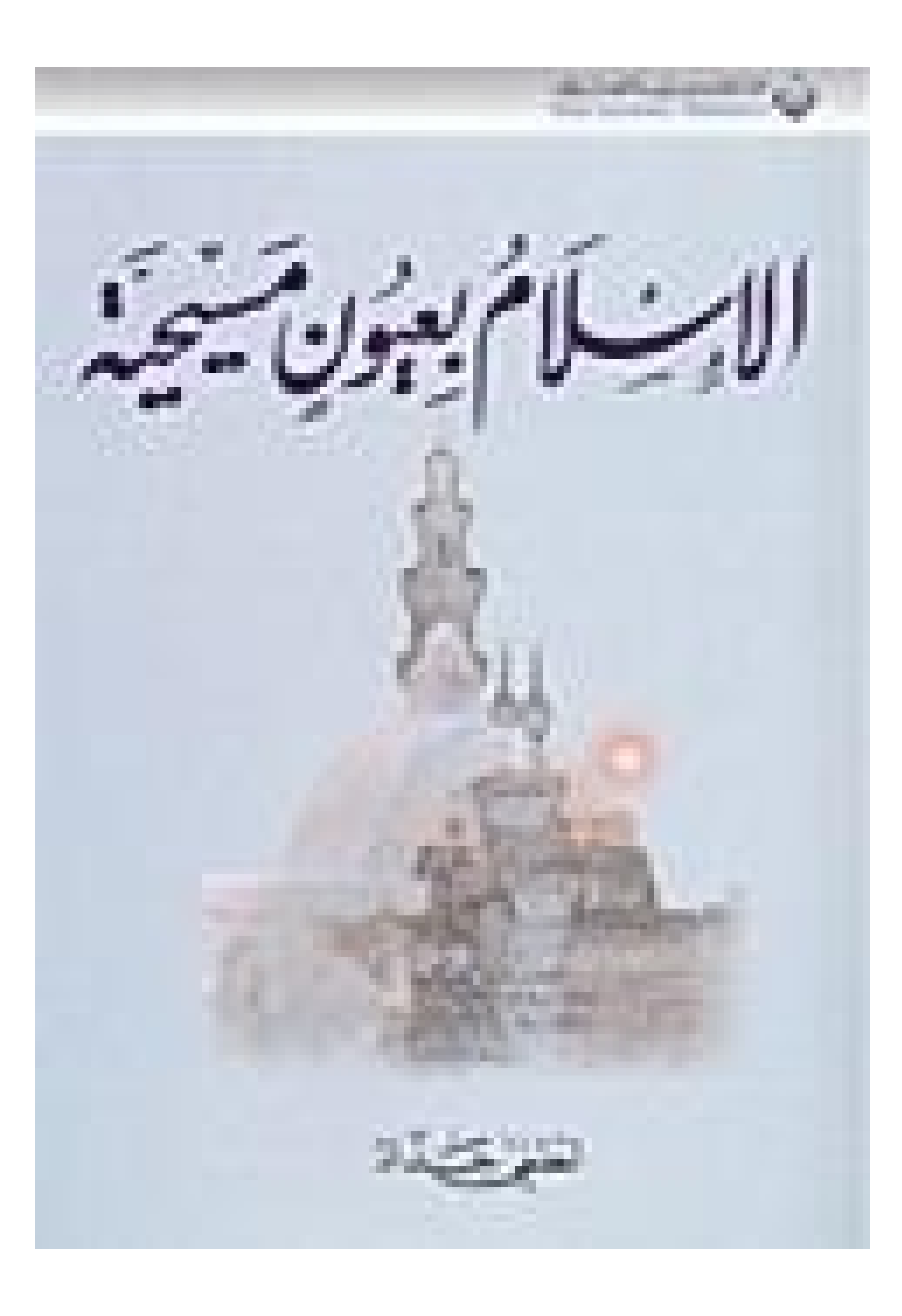

الإسلام بعيون غربية


الإسلام بعيون مسيحية

الإسلام
بعيون مسيحية

تأليف
لطفي حداد





الطبعة الأولى
1425 هـ - 2004 م

ISBN: 978-614-02-0680-9



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+9611) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

تقديم

ثمة أسئلة أربعة نادراً ما تتوفر إجابات عليها.

السؤال الأول هو: هل يعرف المسلمون المسيحية على حقيقتها؟.. أي كما يؤمن بها ويمارسها المسيحيون؟.. وهل يواكبون حركة تطورها الفكري واللاهوتي في مختلف مدارسها الكنسية الكاثوليكية، الأرثوذكسية والإنجيلية على أنواعها؟

السؤال الثاني هو: هل يعرف المسيحيون الإسلام على حقيقته، أم أنهم يحكمون عليه من خلال حكمهم على أوضاع المسلمين الاقتصادية والاجتماعية؟ وهل يعرفون الفرق بين الفقه والشريعة، وبين الثوابت الدينية والمتغيرات الاجتهادية؟

السؤال الثالث هو: كيف يمكن تصحيح الصور المشوّهة عن الإسلام في العقل المسيحي، وعن المسيحية في العقل المسلم؟ ومن المسؤول عن تكوين هذه التشوهات وترسيخها في الثقافة العامة وكأنها حقائق لا يرقى إليها الشك؟

السؤال الرابع هو: ما هو الدور الذي يلعبه الفراغ المعرفي، أو سوء المعرفة أو الصور النمطية السلبية المنغرسة في الثقافات الشعبية العامة؟

ما إن قرأت عنوان مخطوطة الأستاذ لطفي حداد "الإسلام بعيون مسيحية" حتى تمثلت أمامي هذه الأسئلة الأربعة. وما إن انتهيت من قراءة المخطوطة حتى ارتفع في ذهني سؤال جديد. وهو ماذا عن "المسيحية في عيون إسلامية"؟

بعض الاعتقادات تدوم ولكن ذلك لا يعني أنها صحيحة.

وبعض القواعد تتجذّر ولكن ذلك لا يعني أنها عادلة.

وبعض التقاليد تتأصّل ولكن ذلك لا يعني أنها ضرورية.

ثمة اعتقادات وقواعد وتقاليد تستمدّ ديمومتها من قدرتها على الاستمرار وليس من صحتها أو من عدالتها أو من ضروريتها.

إن الأفكار أشبه ما تكون بالفيروسات، فهي تعيش وتنتشر عندما تجد استعداداً لتقبّلها. وهي تموت وتندثر عندما تواجه مناعة ترفضها وتقطع تواصلها.

وما ينطبق على الأفراد ينطبق على المجتمعات. فالأفكار - بصرف النظر عن مضمونها - تتسرّب إلى العقول وتتغلغل في النفوس. وعندما تطرح أفكار هجينة في مجتمع ضعيف المناعة أو فاقد لها وغير محصّن ذاتياً ضد ما تحمله من قيم ومبادئ دخيلة حسنة كانت أو سيئة، صحيحة أو خاطئة، تترك بصمات عميقة في النفس والعقل وتالياً في الشخصية الفردية أو في الشخصية المجتمعية. من هنا، فإن نظرة المسلم إلى

المسيحية، كما نظرة المسيحي إلى الإسلام، هي حصيلة مجموعة كبيرة من التقاليد والاعتقادات والقواعد التي يحتاج تفكيكها والغوص في غمارها إلى عمل فريق من رجال الاختصاص في علوم الاجتماع والدين والتربية والتاريخ. وربما في مقدمة ذلك في علم النفس.

إن المعرفة الإسلامية بالمسيحية والمعرفة المسيحية بالإسلام تتأثران إلى درجة كبيرة بكم هائل من التراكمات الثقافية. وهي تراكمات ترسي فيها أحياناً كثيرة سطحية المعرفة ثوابت عقدية واجتماعية يصبح التعرّض لها بمثابة التعرّض للمقدس من الشعائر.

ومنذ أن تخلى المؤرخون العرب عن استخدام مصطلح "حروب الفرنجة"، وتبنوا المصطلح الغربي لها وهو الحروب الصليبية، بدأت تتكون ثقافة إسلامية متحفظة وسلبية تجاه المسيحية، من دون أن تميز بين المسيحية والغرب. بعد ذلك شكّل الاستعمار الغربي للعالم العربي والإسلامي - من إندونيسيا حتى المغرب - فصلاً جديداً في الثقافة الإسلامية السلبية تجاه المسيحية. فالجنرال اللنبي عندما اجتاح القدس ردّد عبارته المشهورة: "الآن انتهت الحروب الصليبية". ولقد اعتبرت أوروبا كلها دخوله المدينة المقدسة انتصاراً لها رغم أن دولها كانت في ذلك الوقت في حالة حرب. وتعبيراً عن ذلك دقت أجراس الكنائس في عواصم ومدن الدول الأوروبية المتحاربة فرحاً وابتهاجاً. ثم عندما اجتاح الجنرال غورو بعد ذلك دمشق ورفس بجزمته قبر صلاح الدين مردداً عبارته المشهورة "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، أعطى للاستعمار الغربي طابعاً تجديدياً لمنطق ولروح "الحروب الصليبية" بمعناها الاستعماري المتجلبب برداء الدين. ورغم أن المسيحية العربية المشرقية رفضت أن تلعب دور حصان طروادة في حروب الفرنجة الأولى والثانية، فقد حاولت الدول الاستعمارية منذ أواسط القرن الماضي استخدام ورقة المسيحيين العرب على اختلاف كنائسهم كأقليات للتغلغل إلى المنطقة العربية ولتبرير تدخّلها في شؤونهم الداخلية، فكانت "المسألة الشرقية. وقد وجدت ثقافة الاستخدام الغربي للجماعات المسيحية (الأقليات؟) من يعتني بها ويردفها بأدبيات تفتقر إلى الأمانة التاريخية وإلى الصدقية العلمية، حتى تكوّنت شعارات خطرة وخطيرة معاً مثل شعار "أمة الكفر واحدة". وهو شعار يستهدف تعميمه قطع الطريق أمام أي محاولة لفكّ الارتباط في الثقافة الإسلامية بين المسيحية كدين من عند الله يعتبر الإنسان مخلوقاً على صورة الله ومثاله ويقوم على التضحية والفداء، وبين الغرب كقوة استعمارية لا تحسب أمام مصالحها أي حساب للقيم الدينية وللحقوق الإنسانية، ولا تميز في ذلك بين مسلم أو مسيحي أو يهودي.

ترافق ذلك مع تزايد الشعور الإسلامي بالمحاصرة والاستعداء خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة وبروز حاجة الغرب إلى اصطناع عدو بديل عن الشيوعية يشكل حافزاً للتضامن الغربي. وقد جرت عدة محاولات لفلسفة هذا الأمر لعل أشهرها دراسة

صموئيل هانتنغتون عن صراع الحضارات Conflict of civilizations . وكتاب الرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون عن اقتناص اللحظة Seize the Moment وغيرها...

وبعد أحداث 11 أيلول - سبتمبر 2001 التي استهدفا نيويورك وواشنطن، وُضع الإسلام كدين في قفص الاتهام وأُدين في الإعلام وفي الأدبيات الغربية بالإرهاب ومعاداة الحضارة. كما وصم زوراً وبهتاناً أيضاً بعدم احترام حقوق الإنسان وخاصة حقوق المرأة. وباللاديمقراطية وبرفض الليبرالية. واتُهم فوق ذلك بأنه السبب الكامن وراء التخلف الذي يعصف بالعالم الإسلامي دولاً ومجتمعات.

أدى ذلك كله إلى اتساع الهوة الثقافية بين العالم الإسلامي والغرب، ومن ثم بين الإسلام والمسيحية، والديانتان براء من ذلك.

لا شك في أن السؤال الذي يتحتم طرحه هنا بكل موضوعية هو: لماذا، رغم ذلك، تلقى هذه الثقافة أرضاً خصبة في ذهن المسلم وفي ذهن المسيحي؟ وما العمل لتصحيحها؟

إن محاولة الإجابة على هذا السؤال بشقّيه تتطلّب الإقرار بأمور ثلاثة على درجة كبيرة من الأهمية:

الأمر الأول: هو أن معرفة المسلم بالمسيحية هي بصورة عامة "معرفة سطحية ومهزوزة"، فالمفهوم الشائع عند عامة المسلمين هو أن المسيحية تقول بثلاثة آلهة. ومع أن المسيحية تقول بثلاثة أقانيم لإله واحد فإني لا أعرف بحثاً فقهياً إسلامياً أو لاهوتياً مسيحياً يشرح هذا الركن الإيماني الأساسي بشكل يساعد على تصحيح هذه المعرفة أو على تصويبها بما يبرز وحدة الإيمان بالإله الواحد. ومن هنا أهمية كتاب "الإسلام بعيون مسيحية".

إن نظرة المسلم إلى المسيحية تتّسم بالارتباك الشديد نتيجة ما يبدو اضطراباً بين النصّ القرآني الذي يمنح أهل الكتاب مكانة خاصة في الإيمان الإسلامي الشائع من جهة، والصورة المعرفية لمفهوم التوحيد عند المسيحية. إن الحذر المتبادل من الدخول في حوار لاهوتي - فقهي له ما يبرّره عند المسلمين وعند المسيحيين معاً، ولكن لا بدّ من جهد ما لتقريب المسافة بحيث تتمكّن عين المعرفة عند المسلم من تركيز عدستها على حقيقة المفهوم المسيحي لمبدأ التوحيد، ولمدّ جسور معرفية مبنية على قواعد علمية سليمة وثابتة على النحو الذي يحاول هذا الكتاب القيّم أن يفعله.

الأمر الثاني: هو أن معرفة المسيحي بالإسلام هي بصورة عامة "معرفة مشوّهة" ومهزوزة أيضاً. وهي متأثرة إلى حدّ ما بما تقول به الثقافة الغربية التي قامت أدبياتها أساساً ومنذ القرون الوسطى على عداء الإسلام وكراهيته.

والصورة الشائعة لدى المسيحيين هي أن الإسلام يعتبرهم كفاراً،

وهذا غير صحيح على الإطلاق. فالإسلام يعتبرهم مؤمنين بالله، وأهل كتاب من الله، كالمسلمين واليهود، بل إنه يعتبرهم "أقرب مودة للذين آمنوا ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون".

الأمر الثالث: غياب أو تغييب الجسر المعرفي بين عامة المسلمين والمسيحيين حول الثوابت الإيمانية في المسيحية والإسلام. فمع استثناءات محدودة لا تشكل على كل حال قاعدة سلوكية عامة، فإن العلاقات الإسلامية - المسيحية في غالبيتها هي علاقات مجاملة وتأدب ولياقات ومراعاة للآخر. وتكاد المعرفة بالآخر تنحصر في أقلية صغيرة من الجانبين. وهذه الأقلية ليست قادرة وحدها لتكوّن هذا الجسر. أي لتقول للمسلم، لا ليست المسيحية العربية طابوراً خامساً للغرب، ولكنها أصيلة في عروبتها وسابقة في وجودها وفي قوميتها حتى للإسلام نفسه، وهي ليست معطِلة لتطبيق الشريعة الإسلامية ولكن لها شريعتها ومنهاجها. وأنها ليست جزءاً من ثقافة الغرب الإلغائية للآخر ولكنها جزء من ثقافة عربية كان ولم يزل لها دورها في صناعتها وفي إحيائها. وأن معادلة التفاهم الإسلامي - المسيحي ليست معطِلةً ولا معرقِلة لشعارات التفاهم الإسلامي - الإسلامي، ولا هي بديلاً عنها. ولكنها متكاملة معها وأنها تشكل ركناً أساسياً من أركانها.

وفي اعتقادي أن "الإسلام في عيون مسيحية" يشكل لبنة في تيار هذا الجسر الذي ساهم مفكرون مسلمون ومسيحيون كثيرون في وضع لبنات أخرى لإقامة قاعدته الإسلامية والمسيحية.

محمد السمّاك
أمين عام اللجنة الوطنية الإسلامية المسيحية للحوار
الأمين العام للقمة الروحية الإسلامية

مقدمة

في الوقت الذي يتم فيه الصراع بين رموز العولمة والإرهاب، هناك تيار إنساني صادق يؤمن بالإنسان المنفتح على التنوع الثقافي والفكري والاجتماعي والديني، بروحانية ثابتة متسامحة، ضد الضياع الإنساني وفقدان الهوية، والعنصرية.. متجاوزاً الطقوس والطائفية والمحورية إلى ما بعد مفهوم القبيلة والكنيسة والأمة.

أعتقد أن هذا الكتاب مهم في موضوعه الآن أكثر من أي وقت مضى، لأن كل ما تظهره وسائل الإعلام وأغلبية الكتب والمجلات والصحف يدل، بشكل مباشر أو غير مباشر، على الصدام المحتدم، والدمويّ أحياناً، بين العالمين المسيحي والإسلامي. وليس من السهل اكتشاف جمال التعددية والتنوع في زمن الخوف من الآخر.. الخوف الذي دخل بيوتنا وعلاقاتنا. فالجار الذي بدأ يربّي لحيته منذ أشهر يمكن أن يكون قد انضم إلى جماعة إرهابية قد تفجر بيتي وعملي وأولادي، وكذلك قد يكون ذلك العالمُ المستشرقُ المهتمٌّ بدينٍ آخر عميلاً لدول غربية ستحتل بلدي باسم الحرية.

الوضع مخيف لأن الموت قد يأتيك وأنت تسير في أمان الله من قنبلة أو سيارة مفخخة، وقد يأتيك وأنت في ناطحة سحاب أو طائرة، وإذا لم تخرج من بيتك مخافة الموت فقد يأتيك على شكل هدية في علبة البريد. إذن أين الأمان.

إن تحول مفهوم الدين في خدمة الإنسان إلى الإنسان في خدمة الدين قد غيّر القيم الفاضلة للمؤمن. وبسبب التقنيات والتحولات التكنولوجية الهائلة، حدثت أزمة هوية.. إذ ليس هناك وقت لمراجعة الذات، وليس هناك حالياً أية أيديولوجية تملأ الفكر الإنساني غير مفهوم الاستهلاك والسوق، والغنى المادي الفارغ من الهدف الأبعد. وفي لحظات الضياع ليس أمام البشر سوى العودة إلى أديان تطلب منهم خدمتها من أجل غايتها الأفقية. وينعدم البعد الإلهي - الإنساني في العلاقة داخل الأديان نتيجة صراعها من أجل السيطرة على أكبر عدد ممكن من البشر وأغنى بقاع الأرض وأقوى أسلحة العالم !!

هنا يبرز دور المسلم الأوروبي والمسيحي الشرقي كحاملي ثقافتين وجسري عبور لحضارتين مختلفتين !!

لكن السؤال هل هناك وجود حقيقي وحضور ثابت لهؤلاء الغرباء في الأمكنة الغريبة !!

كيف يمكن لأوروبا المسيحية أن تقود العالم وهي ذات بعد واحد؟ !

وكيف يمكن للعالم الإسلامي أن يؤسس إمبراطورية كونية ويقدم الإسلام كحل إذا كان كله فكرة واحدة وشعباً ذا لون ودين وثقافة واحدة؟ !

هناك الأمل البشري مقابل الرجاء الإلهي، وهناك التمنّي المؤدّب أمام السعي الخلاق، وهناك التفكير العميق المتأمل وعلى الطرف الآخر التحقيقُ المؤلمُ المكلف، وهناك المطالبة بالحقوق إزاء طرح الأهداف، وهناك الذات والخروج من الذات إلى الأخر..

هذه هي صراعات الإنسان الحقيقية وكل شيء آخر هو عَرَضي !!

á á á

إن كل فلسفة تنطلق من أحد الثوابت التي تتبناها كأساس لها، مهما ادّعت الثورة المطلقة على الثوابت، وتبدأ كلُّ فلسفة بالانفتاح والإخلاص والشمولية، وتنتهي بالانغلاق والخصوصية والتمييز، والماركسية في القرن العشرين مثال واضح تماماً..

إن الانزلاق إلى الأصولية مشكلة هائلة تمرُّ بها كل الفلسفات والأيديولوجيات والأديان. وهذا التحول من الثورة المطلقة على المفاهيم القديمة إلى الانغلاق الأصولي والتعلق بالحرف المحدود، أقول هذا التحول قد أصاب جميع الأديان ويبدو أنه الآن في إحدى قممه.

ففي العالم العربي نشأ إحباط شعبي تجاه كل الأيديولوجيات السياسية والاجتماعية الكبرى التي انتشرت نهاية القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين، ومع استمرار البؤس والفقر والتخلف في عدد من الدول العربية والإسلامية، وتعثّر التنمية، وسيطرة أميركا، وإلى حد ما أوروبا المسيحية، على السلطة السياسية في العالم والفشل المخيب في الانتصار على الوجود الصهيوني في قلب البلاد الإسلامية.. كل ذلك دفع بالشباب العاطل عن العمل والعقول التي جربت الحلول السابقة وفشلت، إلى تبني الحل الإسلامي الجذري والعودة إلى بدايات الإسلام تشجعه فئات ذات أهداف أبعد من الدين، متأمّلة بتسلم السلطة والسيطرة على الآخرين.

إن العودة إلى الجذور والنظر من جديد إلى روح الدين والإصغاء إلى كلمة الأجداد، وتبني قيمهم وفضائلهم والتمثل بأخلاقهم وبساطتهم، إن كل ذلك نبيل وحميد ومطلوب.. لكن تلك العودة سواء في المسيحية أو الإسلام، مرتبطة بمفكرين سياسيين يريدون استغلال الدين كأيديولوجية من أجل نموهم وسيطرتهم..

يمتدّ الصراع الفكري والعسكري بين الشرق والغرب لقرون طويلة.. وفي القرون الأولى لظهور الإسلام تجاهل الغرب عن قصد النجاح الاجتماعي والسياسي للإمبراطورية الإسلامية النامية وكانت هناك "خطوط دامية" في الصراع بين الطرفين حتى أتى عصر الحملات الصليبية والصراع الدموي بين المسيحية التوسعيّة المسلحة والدولة الإسلامية الأضعف في ذلك الوقت، وبعد قرنين من فشل تلك الحملات، بدأت الإمبراطورية التركية العثمانية المسلحة بالامتداد والتوسع حتى وصلت حدود فيينا، لكن هزيمة الأتراك أمام أسوار فيينا عام 1683م، قلَبَ المفهوم من جديد، ودخل العالم الإسلامي في سبات عميق حتى عصر النهضة في أوائل

القرن العشرين، وعصر الإحياء والبعث واليقظة الإسلامية في أواخر القرن الماضي، وتطور الموقف أيضاً في العالم الغربي حتى صار سلبيًّا وعدائياً.

á á á

ماذا يمكن أن يتعلم الغرب العلماني (البعيد عن المسيحية الحقيقية) من الإسلام والشرق المحافظ!!

إن الأوروبي المسلم (المطلوب منه القيام بهذه الرسالة) ضائع بين العزلة الاجتماعية والذوبان الثقافي، وكذلك بين الإيمان بدينه وتبني الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وإن المسلمين الذين نجحوا في الجمع بين الانثقاف دون الذوبان، وحافظوا على دينهم دون إلغاء الآخر.. يعلّمون الغرب القوة مع الرحمة، ويجددون مفهوم العائلة والأولاد، وينشطون الضمير الداخلي ومخافة الله والاستسلام له ببساطة وثقة، ويقدّرون التمتع بالمادة دون تأليهها.

إن اكتشاف هوية المجتمع والإنسان يحتاج إلى الوسط المتنوع أكثر من الوسط المتجانس المتماثل..

وهكذا فالرجولة الشرقية في تحررها من الخوف، وفي بث القوة والثبات.. تتقابل بشكل جميل وخلاق مع الأنوثة الغربية في إبداعها وتحررها من القيود وتمتعها بالحياة.

لا يعني التسامحُ الديني التهاونَ والتوفيقيةَ.. وهذه هي صعوبة الكتاب لأنني حاولت جهدي أنالا أنزلق في التوفيقية بينما أعرض جمال الآخر المختلف، كما أن العقائد الخاصة بكل دين والتراث المهم لكل طرف يجب أن لا يستهان بها كي نصل إلى أرض مشتركة، لأننا بذلك نفقد فكرة الحوار ونخسر التعددية البنّاءة.. ويُضحّى بالخصوصية الفردية من أجل تجانس المجموع في بوتقة واحدة تصهر الذاتية العميقة للشخص والمعتقد.

إن المسجد يمكن أن يكون نقطة اتصال بين المسلم والمجتمع، ومركزاً للتعلم والتثقيف والانفتاح والامتلاء ثم منطلقاً لحضارة جديدة تعلّم الغرب الكثير مما يفتقده... وإن المسجد يمكن أن يكون ساحة لقاء بين المتعطشين للحقيقة ومحبة الآخر، ويمكن أن يكون أندلساً أخرى - بتعبير جاك بيرك - لانفتاح الحضارات والثقافات على بعضها.

في الوقت نفسه يمكن أن يكون المسجد بؤرة للتجمع الانهزامي وتكفير الآخر والتشبث بموت الحرف. والاختيار يجب أن يتم الآن وبشكل واضح وأكيد..

إن الانثقاف "أي الدخول في ثقافة الآخر المختلف" لا تعني بالنسبة للمسلمين التنكر لدينهم بل التكيف مع معطيات الحضارة المغايرة دون الذوبان ودون المواجهة العنيفة.. وإن بناء التعددية والحضارة المتنوعة مطلب إنساني قبل أن يكون دينياً أو اجتماعياً.

وهكذا..

"بلد ذو دين واحد يعرف القمع

بلد ذو دينين يعرف الحرب الأهلية
بلد ذو مئة دين يعرف السلام"
التعددية نعمة..

á á á

بسبب الانفلات الأخلاقي الحالي سيكون هناك إقبال على الإسلام في العقود المقبلة بوصفه ديناً محافظاً، وكذلك سيولّد انهيارُ الحلول السابقة المرتبطة بشكل أو بآخر بالمسيحية ردة فعل واندفاعاً نحو الطرف المقابل ونشاطاً وبعثاً إسلاميين عالميين..

هل هذا يقلق المسيحيين؟!

ليس بالضرورة، لأن التاريخ الذي يرسمه الدينان له نهاية وهما متسابقان بطريقة أو بأخرى للوصول إلى تلك النهاية.

الكاردينال لافيجري والآباء البيض:

يقول لافيجري بصدد حديثه عن لقائه القائد الأمير عبد القادر الجزائري: "سأحتفظ بذكرى وجه الأمير الهادئ. إن كلماته التي تنطق بالوقار والحزم وروح العدالة والصمود، من خلال كل خطبه، تجسّد الصورة التي ارتسمت في ذهني عنه مقدماً.. لقد عبّرت له عن الإعجاب الذي تكنّه فرنسا لسلوكه النبيل، وتقديرها له كرجل حريص على ممارسة العدالة".

ومن المعروف أن رجل الدين المسيحي (لافيجري) كان يفكر بتبشير القارة الأفريقية كلها بما فيها الدول الإسلامية وقد أسس لذلك جماعة تبشيرية لتحويل المسلمين إلى المسيحية، وفي الوقت نفسه كان الأمير عبد القادر الجزائري رجلاً مسلماً يحب وطنه ودينه ويرفض توسع الآخر وسيطرته.. وللأسف لم ينظرا في اتجاه واحد ولحسن الحظ لم يذبِ الواحد في الآخر بل تواجها.. وفي لحظة المواجهة قرأ الواحد في الآخر روحه الإنسانية بعينين جديدتين.

á á á

هذا الكتاب ليس كتاباً في النقد أو المقارنة أو الكشف عن الإيجابيات والسلبيات في المسيحية والإسلام فهذه نظرة ساذجة لأمور عميقة، بل إنه تبني النظرة الإيجابية بشكل واعٍ وحضاريّ، وتسليط الضوء على جمالات الآخر المختلف، وتوسيع الآفاقَ الممتدة للتعاون معاً نحو حضارة الحب والشركة.

إنه ببساطة كتاب لتغيير العيون المسيحية القديمة إلى جديدة مليئة بالحب والإعجاب بالآخر المختلف، وباحثة عن عيون جديدة من الطرف الآخر من أجل أرض أكثر إنسانية.

وهو كتاب للمثقف العربي العاديّ الذي ينمو في جميع نواحي ثقافته إلى مستويات عالية وتقف ثقافته الدينية (عن دينه ودين الآخر) عند حدود

القصص الشعبية وحكايات الأجداد وأساطير العامة.

في الباب الأول من الكتاب عرضت المفاهيم الأساسية وأعتقد أن هذا مهم لأبناء الديانتين الإسلامية والمسيحية، لأننا ببساطة لا نعرف عن بعضنا حتى المفاهيم الأساسية، ثم عرضت في الباب الثاني ملخصاً عن ثلاثة أسفار من الكتاب المقدس ترى فيها الأصولية المسيحية تفسيراً وسبباً ودعماً للبعد السياسي لها.

بعدها انتقلت في الباب الثالث إلى رؤية المسيحية للآخر منذ البداية بلمحة سريعة تعطي فكرة واضحة على وجوب انفتاح المسيحيين على الآخرين وتقديرهم لهم. وفي الفصلين الرابع والخامس ذكرت المواقف المسيحية الإيجابية من المسلمين قديماً وحديثاً خاصة في الكنيسة التقليدية وفي الممثلين الرسميين للمسيحية.

وأفردت البابين السادس والسابع لنظرة المفكرين والمستشرقين الإيجابية في القرون الماضية. وتطرقت في الباب الثامن إلى موضوع الأصولية وهو مهم جداً في وقتنا الحاضر لكنه شائك وموضع اختلاف.

درست بسرعة وبساطة في الباب التاسع موضوع التصوف الإسلامي لاهتمام الباحثين والمفكرين المسيحيين به بشكل كثيف وعميق وكذلك لقربه من روح المسيحية، وفي الباب العاشر ذكرت بعض الأحاديث والمقولات عن فكرة الشفاعة في الإسلام والتي تشابه إلى حد كبير مفهوم شركة القديسين التي تؤمن بخلاص الجميع نتيجة رحمة اللّه ومحبة الآخرين..

وعرضت في الباب الأخير خمسة فصول عن هموم مشتركة كالإلحاد والنمو الديمقراطي مع صعوبة الحضور الإنساني، وصدام الحضارات أو حوارها، وموقف الغرب من الإسلام بعد هجمات الحادي عشر من أيلول.

أرجو أن يكون هذا الكتاب فاتحة لعهد جديد من العلاقات الإسلامية - المسيحية الطيبة وخاتمة للصدام الإنساني على أرض تسعى لأن تكون أكثر إنسانية.

والله وليّ التوفيق

لطفي حداد

الباب الأول: مفاهيم أساسية في المسيحية والإسلام

نعرفُهم لنحبَّهم ونحبُّهم لنعرفَهم

آيات قرآنية

لهذا الباب ثلاثة أقسام.. الأول:

أفرده للبحث في القرآن الكريم عن الآيات التي تتكلم عن المسيحية وحرية الإيمان والانفتاح على الآخرين واحترامهم ومحبتهم.

بسبب تربيتي في مجتمع أغلبه مسلم فقد سمعت الكثير من الآيات تتردد إما في المدرسة أو على لسان الأصدقاء أو في التلفزيون والكتب، وإنني أقرأ القرآن بكامله للمرة الأولى وقد تذوقت جمال بعض الآيات التي أعرفها والبعض الآخر الذي قرأته في هذه الأيام.

أذكر هنا بتسلسل السور - كما وردت في القرآن - أهم الآيات التي يجد فيها المسيحي ساحة لقاء مع المسلم، وتذكر المسلم بوجوب انفتاحه على المسيحيين وتقديره لهم.

اعتمدت على الأجزاء الأربعة لتفسير القرآن لابن كثير الصادرة عن دار الفيحاء - دمشق ودار السلام - الرياض طبعة أولى 1994.

وفي القسم الثاني من هذا الباب سأورد بعض الأسماء الحسنى وما يقابلها في الكتاب المقدس بعهديه القديم (اليهودي) والجديد (المسيحي). وبالنسبة لي أشعر بالاندهاش لهذا التوافق الشديد بين الأديان الإبراهيمية التوحيدية بما يخص الله سبحانه.

أما القسم الثالث فيسلط بعض الضوء على الكتاب المقدس والقرآن الكريم وأركان الدين الإسلامي ومذاهبه.

القسم الأول

) **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ([البقرة: 62] .

) **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ([البقرة: 87] .

) **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ([البقرة: 136] .

) **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ([البقرة: 177].

*** هنا نجد أن البرّ ليس حصراً على المسلمين وإنما كل الذين يقومون بتقديم الخدمات والمساعدات والمحبة للآخرين.**

) **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ([البقرة: 213].

*** إن الله هو الذي يفيض إيمانه على قلوب البشر وليس لنا أن نحكم على علاقة الناس بخالقهم.**

) **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ([البقرة: 256].

) **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** ([آل عمران: 3-4].

) **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ واسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ([آل عمران: 42-43].

*** هذه الآية من أجمل الآيات التي تصف اصطفاء مريم وطهارتها كسيدة**

مثال للبشر. وفي هاتين الآيتين وما يليهما عن مريم تلخيص كامل ورائع للعقائد المسيحية بخصوص والدة المسيح.

) إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّه يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ([آل عمران: 45].

) إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ([آل عمران: 59].

) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ([آل عمران: 64].

) إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّه عَزِيزًا حَكِيمًا ([النساء: 163-165].

*** تدل هذه الآيات على شمول الوحي وتدفقه عبر التاريخ البشري في المسيرة الروحية اليهودية المسيحية الإسلامية.**

) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللّه فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّه فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّه وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللّه لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ([المائدة: 46-48].

*** في هذه الآيات نجد بوضوح فكرة حرية العقيدة والإيمان، والمعنى الإلهي العميق وراء تعدد الأديان واختلافها، وأن اللّه مرجع الجميع!!**

) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ([المائدة: 82-83] .

) إِذْ قَالَ اللّه يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ([المائدة: 110-111].

* في هاتين الآيتين نجد الكثير من الإيمان المسيحي بعمل روح القدس في المسيح وعلاقاته بالبشر المتألمين والمرضى، وكذلك أمانة الروح للحقيقة في كتابة الإنجيل بأقلام الحواريين.

) إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ([التوبة: 111-112].

* في هاتين الآتين نرى صفات المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وهي صفات جميلة منفتحة على الجميع وملك البشرية كاملها: إنها التوبة الصادقة والعبادة الحقة والحمد المتدفق من قلب المؤمن، والتسبيح لله الخالق والركوع الخاشع والسجود المصلّي والأمر بالمعروف والنهي عن المفكر وحفظ حدود الله!! هذه لعمري جوهر كل دين وشعار كل تجمع إنساني.

) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ([يونس: 99].

) وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ([هود: 118].

بلغة شعرية رائعة شفافة تحكي الآيات عن ولادة مريم من روح الله ولدها عيسى الذي جعله الله مباركاً وكان حافظاً للصلاة والزكاة والبر بوالدته!

) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا *

وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ([مريم: 16-33].

) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ([الأنبياء: 91].

) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ([العنكبوت: 5].

*** آية رائعة في الرجاء والانتظار.**

) وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ([العنكبوت: 46].

*** هذه آية كريمة رائعة في التسامح الديني والانفتاح على الآخرين.**

) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ([الروم: 22].

) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ([الأحزاب: 35].

*** آية كريمة عن شمولية المغفرة والخلاص والثواب لجميع البشر رجالاً ونساءً من ذوي النوايا الحسنة والأفعال الطيبة!!**

) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ([الحجرات: 13].

وأخيراً أستطيع أن أقول أننا نشترك تماماً في هذه الآيات في سورة الحشر، ونستطيع أن نصليها معاً كأبناء إبراهيم.

) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ([الحشر: 22-24].

ملاحظات عامة:

* تتكرر عبارة "الله يهدي من يشاء" أو ما معناها عشرات المرات.. وهذه نقطة مهمة وتعني أن العلاقة الروحية بين الله والإنسان ترتكز على الحرية والمجانية والخصوصية، أي أن الله عليم بما في قلوب الناس وهو الذي يفيض نوره وحبه والإيمان به على قلب الإنسان. فالله نور السماوات والأرض هو المعطي والمبادر والإنسان هو المتلقي والشاكر والمستقبل، وهذه العلاقة خاصة عميقة ليس لنا أن نتدخل فيها بعنف!!

*** تتكرر صفات "الرأفة والرحمة والصبر والعلم والحكمة والمعرفة**

والغفران.." عشرات المرات وهي من أسماء الله الحسنى.. وهي تدل على الشمولية والإيجابية والاستقبال والاستمرار والدعم والفرح لعباد الله الذين تنهمر عليهم مراحمه بدون حساب وبتدفق وللجميع!!

*** المشركون والكافرون: كلمات تتردد كثيراً ومن الواضح أنها تعني الأشخاص الوثنين الذين كانوا يحيطون بالدعوة الإسلامية في شبه الجزيرة آنذاك وليس أتباع الأديان الإبراهيمية فإبراهيم النبي الذي يكرمه القرآن هو الجد الأكبر للإيمان بالله الواحد بالنسبة لليهودية والمسيحية والإسلام. وهو المثال الإنساني الذي يلهم أتباع الأديان الثلاثة كيفية العبادة لإله واحد.**

ففي المسيرة الإيمانية اليهودية - المسيحية - الإسلامية يقف إبراهيم كرجل إيمان يبحث عن الحقيقة ويجدها في الله الواحد الأحد. أما الوثنيون وعباد الأصنام والآلهة المتعددة فهم بعيدون كل البعد عن التوحيد الإبراهيمي.

*** هناك تقارب مدهش بين الإسلام والمسيحية وإننا نجد ببساطة أغلب العقائد المسيحية الأساسية في القرآن.**

بالنسبة لعقيدة الثالوث المسيحية: هي أعقد من أن تدرس هنا لكنني أسجل ملاحظتين: الأولى أنه لا يوجد أي مسيحي أو تعليم مسيحي يضع مريم ضمن الثالوث الأقدس لذلك فالدينان متفقان في هذه النقطة.

الثانية: ليس هناك أي مسيحي أو عقيدة مسيحية تؤمن بالمسيح بدون الله والدينان متفقان هنا أيضاً.

*** تتكرر "الدعوات العامة" مرات كثيرة مثل: (يا أيها الذين آمنوا) وهي دعوة شاملة للإنسانية المؤمنة بالله ولذلك ليس حصراً على من ولد من والدين مسلمين أو اعتنق الدين الإسلامي لاحقاً وإنما تشمل كل البشر "كتراث إنساني".**

*** الاختلاف يعطي خصوصية جميلة للأديان وليس من الضروري التشابه بل إن في الاختلاف نعمة وفكرة إلهيتين.**

آيات أخرى

سأعرض سريعاً بعض الآيات الكريمة التي تدعو للحوار والعدل والعفو والمغفرة..

فمقابل العنف يطرح القرآن الحكمة والحوار:

) **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...** ([النحل: 125].

ومقابل الظلم يطرح القرآن العدل:

) **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...** ([النحل: 90].

) **... وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...** ([النساء: 58].

) **... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...** ([المائدة: 8].

كما يطرح القرآن الوسطية مقابل التطرف:

) **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...** ([البقرة: 143].

وهناك الكثير من الآيات عن الصفح والمغفرة أذكر منها:

) **... وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...** ([النور: 22].

) **... فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ([المائدة: 13].

) **... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ([الحجر: 85].

) **... وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ([التغابن: 14].

ويدعو القرآن إلى الأخوة والوحدة والائتلاف بدل التفرق والخلاف:

) **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ([الأنبياء: 92].

) **... إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...** ([آل عمران: 103].

) **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ...** ([الأنفال: 63].

القسم الثاني

سأبدأ أولاً ببعض الآيات القرآنية التي تذكر أسماء الله الحسنى وهي أسماء تدل على صفاته الذاتية أو صفات أفعاله.

ففي سورة طه 20: آية 8، "الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى".

وفي سورة الأعراف، 7، 180 "ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون".

وفي سورة الإسراء 17: 110 "قلِ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً".

بعض الأسماء تدل على صفة الكمال كالحي، القيوم، الأحد، الصمد، ومنها ما يدل على صفة الرحمة كالرحمن، الرحيم، الرؤوف، الغفور، ومنها ما لا يطلق على الله إلا مع مقابله لأنه إذا نسب لله دون مقابله سيفهم عكساً: مثل الضار النافع، الخافض الرافع، المعطي المانع، المعزّ المذلّ.

إن هناك توافقاً جميلاً ومعزًّيا بين القرآن والكتاب المقدس وسأحاول أن أضع هنا أسماء الله الحسنى وما يقابلها في الكتاب المقدس وسأكتفي بذكر موضع الآية المقابلة بالاسم والعدد ومن يحبّ الاضطلاع أكثر يمكنه العودة إلى النصوص الكاملة.

*** الرحمن: وردت 169 مرة في القرآن.**

*** الرحيم: وردت 114 مرة في القرآن، ونجدها في سفر الخروج الإصحاح 34: آية 6.**

* الملك: وردت 6 مرات في القرآن، ونجدها في مزامير داود، المزمور 98: آية 6 (تدعى المزامير بالزبور عند المسلمين وفي القرآن).

*** القدوس: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في المزمور 22 آية 3.**

*** العزيز: وردت 98 مرة في القرآن، ونجدها في كتاب أشعيا النبي 33: آية 21.**

*** الغفار: وردت في 5 آيات في القرآن، ونجدها في سفر ميخا 7: آية 18.**

*** العليم: وردت 158 مرة في القرآن. ونجدها في سفر صموئيل الأول إصحاح 2: آية 3.**

*** السلام: وردت في القرآن، ونجدها في سفر أيوب 25: آية 2.**

*** الجبار: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 24 آية 8.**

*** المؤمن: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 117: آية 2.**

*** المصور: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 33: آية 15.**

*** الوهّاب: وردت 3 مرات في القرآن، ونجدها في إنجيل يوحنا 6: آية 33.**

*** الفتاح: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في رؤيا يوحنا الإصحاح 3: آية 7.**

* الحاكم: وردت في القرآن، ونجدها في سفر حزقيال 7: آية 3.
* السميع: وردت 46 مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 15: آية 2.
* البصير: وردت 44 مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 10: آية 14.
* الخافض: وردت في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا إصحاح 26: آية 5.
* الرافع: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 113: آية 7.
* المعزّ: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 29: آية 11.
* المذل: وردت في القرآن، ونجدها في سفر دانيال إصحاح 4: آية 37.
* الخالق: وردت 8 مرات في القرآن، ونجدها في رسالة بولس إلى أهل روميه 1: آية 25.
* البارئ: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في الرسالة إلى العبرانيين 11: آية 10.
* القهار: وردت 6 مرات في القرآن، ونجدها في أيوب 30: آية 11.
* الرزاق: وردت مرة في القرآن، ونجدها في سفر أيوب الإصحاح 36: آية 31.
* القابض: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 16: آية 5.
* الباسط: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 104: آية 2.
* العدل: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 11: آية 7.
* العظيم: وردت 8 في القرآن، ونجدها في المزمور 99: آية 3.
* الكبير: وردت 6 مرات في القرآن، ونجدها في المزمور 47: آية 2.
* الحافظ: وردت مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 121: آية 5.
* اللطيف: وردت 7 مرات في القرآن، ونجدها في رسالة بولس إلى أهل روميه: 2، آية 4.
* الخبير: وردت 45 مرة في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا النبي: 44، آية 8.
* الحليم: وردت 12 مرة في القرآن، ونجدها في رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنتس: 10، آية 1.
* الغفور: وردت 91 مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 86: آية 5.
* العلي: وردت 8 مرات في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 57: آية 15.
* المقيت: وردت مرة في القرآن، ونجدها في سفر أيوب 36: آية 31.
* الحق: وردت 8 مرات في القرآن، ونجدها في سفر رؤيا يوحنا 6: آية 10.
* القوي: وردت 11 مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 89: آية 8.
* الولي: وردت 21 مرة في القرآن، ونجدها في سفر أيوب 19: آية 25.
* الوكيل: وردت 13 مرة في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 26: آية 3.
* الحميد: وردت 17 مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 18: آية 3.
* المحصي: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 147: آية 4.
* المبدئ: وردت في القرآن، ونجدها في سفر التكوين 1: آية 1

* المعيد: وردت 12 مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 71: آية 20.
* المحيي: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في سفر تثنية الاشتراع 32: آية 39.
* المميت: وردت في القرآن، ونجدها في سفر صموئيل الأول 2: آية 6.
* الحكيم: وردت 95 مرة في القرآن، ونجدها في رسالة يهوذا 1: آية 25.
* الكريم: وردت 3 مرات في القرآن، ونجدها في رسالة بطرس الأولى 2: آية 4.
* الجليل: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في سفر تثنية الاشتراع 28: آية 58.
* الحسيب: وردت 4 مرات في القرآن، ونجدها في رسالة بولس إلى أهل رومية: 14، آية 12.
* الرقيب: وردت خمس مرات في القرآن، ونجدها في سفر أيوب 7: آية 20.
* الواسع: وردت 9 مرات في القرآن، ونجدها في سفر الملوك الأول إصحاح 8: آية 27.
* الشهيد: وردت 21 مرة في القرآن، ونجدها في سفر أيوب 16: آية 19.
* المجيب: وردت مرة في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 65: آية 24.
* الحي: وردت خمس مرات في القرآن، ونجدها في المزمور 42، آية 2.
* القيوم: وردت 3 مرات في القرآن، ونجدها في سفر دانيال 6: آية 26.
* الصمد: وردت مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 73: آية 25.
* القدير: وردت 44 مرة في القرآن، ونجدها في سفر التكوين 17: آية 1.
* الواحد: وردت 21 مرة في القرآن، ونجدها في سفر تثنية الاشتراع 6: آية 4.
* الواجد: وردت في القرآن، ونجدها في سفر هوشع 12: آية 4.
* الماجد: وردت في القرآن، وفي المزمور 113: آية 4.
* المقتدر: وردت 4 مرات في القرآن، ونجدها في سفر دانيال 4: آية 7.
* الأول: وردت مرة في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 44: آية 6.
* الآخر: وردت مرة في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 44: آية 6.
* الظاهر: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس 3: آية 16.
* الباطن: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 45: آية 15.
* الوالي: وردت 31 مرة في القرآن، ونجدها في سفر أيوب 19: آية 25.
* البر: وردت مرة في القرآن، ونجدها في سفر دانيال 9: آية 14.
* التواب: وردت 10 مرات في القرآن، ونجدها في سفر إرميا 31: آية 8.
* المتعالي: وردت مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 148: آية 13.
* الرؤوف: وردت 10 مرات في القرآن، ونجدها في سفر المزامير 86: آية 15.

* الجامع: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في سفر إرميا 29: آية 14.
* الغني: وردت 18 مرة في القرآن، ونجدها في رسالة بولس الرسول إلى أهل روميه: 10، آية 12.
* المغني: وردت في القرآن، وفي سفر صموئيل الأول 2: آية 7.
* المانع: وردت في القرآن، وفي سفر صموئيل الأول 25: آية 34.
* المعطي: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 68: آية 35.
* الضارُّ: وردت في القرآن، ونجدها في سفر الأمثال 8: آية 36.
* النافع: وردت في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 48: آية 17.
* مالك الملك: وردت في القرآن، ونجدها في سفر التكوين 14: آية 19.
* ذو الجلال والإكرام: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في سفر حبقوق 3: آية 3.
* العفو: وردت 5 مرات في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 31: آية 5.
* الصبور: وردت في القرآن، ونجدها في رسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي 3: آية 5.
* الرشيد: وردت مرة في القرآن، ونجدها في المزمور 32: آية 8.
* الباقي: وردت في القرآن، ونجدها في المزمور 102: آية 26.
* البديع: وردت مرتين في القرآن، ونجدها في سفر إشعيا 41: آية 10.
* الوارث: وردت في القرآن، ونجدها في الرسالة إلى العبرانيين 1: آية 1.
* النور: وردت 5 مرات في القرآن، ونجدها في المزمور 104، آية 2.
* الهادي: وردت 10 مرات في القرآن، ونجدها في المزمور 73: آية 24.

القسم الثالث: أسفار الكتاب المقدس

العهد الجديد:

يتألف من:

- الأناجيل الأربعة كما رواها متى، مرقس، لوقا، ويوحنا.

- أعمال الرسل، كتبها لوقا.

- رسائل بولس وهي ثلاث عشرة رسالة كتبها إلى الجماعات المسيحية الأولى.

- الرسالة إلى العبرانيين.

- الرسائل العامة: ليعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا.

- رؤيا يوحنا.

لغة الإنجيل: وضع العهد الجديد كله باليونانية (27 سفراً) بين العقدين السادس والعاشر الميلاديين. وهو اختبار الجماعة المسيحية الأولى لعلاقتها بالمسيح. لم يكتب المسيح نفسه أي فصل ولم يُدوَّن أي شي أثناء حياته. ترجمت تلك الأسفار إلى حوالي ألف وثمانمئة وستين لغة، ويرجّح أن أول ترجمة عربية كانت أيام المأمون العباسي (813 - 833م) وقد قام بها أحمد بن عبد الله ابن سلام، لكن أهم الترجمات العربية هي ترجمة ابن العسال.

الأناجيل المنحولة: يربو عددها على العشرين، والمشهور فيها عشرة وهي إنجيل يعقوب، إنجيل متى المنحول، إنجيل توما، إنجيل بطرس، إنجيل نيقوديمس، إنجيل الحقيقة، إنجيل فيلبس، إنجيل برنابا (وضع حوالي القرن الخامس عشر على يد يهودي إيطالي وترجم إلى العربية).. وهي الكتب التي تحتوي على الكثير من المبالغات والخوارق والأساطير ولم تعترف بها الكنيسة منذ البدء.

العهد القديم:

- أسفار موسى الخمسة أو التوراة: وتضم سفر التكوين، سفر الخروج، سفر الأحبار، سفر العدد، سفر تثنية الاشتراع.

- أسفار التاريخ: سفر يشوع، سفر القضاة، سفر راعوت، سفرا صموئيل الأول والثاني، سفرا الملوك الأول والثاني، سفرا الأخبار الأول والثاني، سفر عزرا، سفر نحميا، سفر طوبيا، سفر يهوديت، سفر استير، سفر المكابيين الأول والثاني.

- أسفار الحكمة: سفر أيوب، سفر المزامير، سفر الأمثال، سفر الجامعة، سفر نشيد الأناشيد، سفر الحكمة، سفر يشوع بن سيراخ.

- أسفار الأنبياء: سفر إشعيا، سفر إرميا، المراثي، سفر باروك، سفر حزقيال، سفر دانيال، سفر هوشع، سفر يوئيل، سفر عاموس، سفر عوبديا، سفر يونان، سفر ميخا، سفر نحوم، سفر حبقوق، سفر صفنيا،

سفر حجاي، سفر زكريا، سفر ملاخي.

يمتد العهد القديم على أكثر من عشرة قرون، بعضه وضع بالعبرية (مع بعض المقاطع بالآرامية) وبعضها الآخر باليونانية، وهو مجموعة مختلفة من الفنون الأدبية كالرواية التاريخية والوعظ والصلاة والقصيدة الشعرية والرسالة والقصة ومجموعة القوانين.

يشكل العهد القديم جزءاً من الكتاب المقدس وقد أعلن المجمع الفاتيكاني الثاني: "تعتبر أمنا الكنيسة المقدسة، أن كتب العهد القديم والعهد الجديد كلها بجميع أجزائها مقدسة وقانونية لأن تلك الأسفار كتبت بإلهام الروح القدس". والاختلاف بين الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية هو في كيفية قراءة العهد القديم.. ففي حين تقرأه الكنيسة الكاثوليكية بعيون مسيحية منفتحة غير مقيدة بالحرف، يذهب معظم البروتستانت إلى الطرف المعاكس ويرون في الشعب اليهودي شعب الله المختار ويقرأون الأحداث والمقولات والنبوءات بحرفية شديدة ومتزمتة.

1 - **تروي أسفار الشريعة الخمسة تاريخ الشعب العبراني من إبراهيم إلى موسى وهي تبدأ بلوحة "أسطورية" عن بداية الكون مستوحاة من أساطير ما بين النهرين لكنها مكتوبة بروح توحيدية تعترف بالله الخالق الواحد، وهي أول اعتراف بشري مكتوب بوحدانية الله. ونتعرف في هذه الأسفار على آباء الشعب اليهودي وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب. كما تحكي مسيرة العبودية في مصر قبل الخروج إلى برية سيناء والوصول إلى فيافي موآب.. وهكذا هيأ موسى الشعب العبراني للدخول في "أرض الميعاد".**

تتضمن هذه الأسفار الوصايا والأحكام والفرائض التي تنظم حياة الشعب الدينية والاجتماعية والسياسية لذلك سميت أسفار الشريعة.. وسميت أيضاً التوراة (وهو اسم عبري)، وبنتاتوكس أو الأدراج الخمسة (لأن كل سفر وضع في درج)، وأيضاً أسفار موسى (لأنها نسبت إلى موسى كليم الله). يطلق أحياناً اسم التوراة على كل العهد القديم بالمعنى العام.

2 - **أما الأسفار التاريخية فتروي تاريخ الشعب اليهودي منذ دخوله إلى أرض الميعاد بقيادة يشوع بن نون إلى القرن الثاني قبل الميلاد.. وتحتوي على الكثير من القصص التي تروي علاقة الشعب بالله، إيمانه وأمانته أو خيانته، وتدخل الأنبياء لتثبيت الإيمان وتجديده.**

3 - بعد ذلك نجد الأسفار الشعرية والحكمية.. ففي سفر أيوب نجد نظرة المؤمن إلى الله عبر المحن والشدائد التي يعانيها.. ثم نجد في سفر الأمثال الكثير من الأقوال المأثورة. ويتمحور سفر الجامعة حول العبارة الشهيرة: "باطل الأباطيل كل شيء باطل تحت الشمس". وأن لا فائدة من الغنى أو العلم وأن على المؤمن أن يتقي الله ويحفظ وصاياه.. وسفر ابن سيراخ مليء بالأمثال كامتداد وتوسع لسفر

الأمثال. أما سفر الحكمة فيصور عقاب الخاطئ ورجاء البار، ومن أجمل الأسفار سفرا المزامير ونشيد الأناشيد. فالمزامير هي مجموعة صلوات شكر وتوسل ومديح تلاه الشعبان اليهودي والمسيحي عبر القرون، ونشيد الأناشيد هو مجموعة قصائد قيلت في الحب البشري وطبقت على العلاقات بين الله وشعبه، ويقرأها المسيحيون كعلاقة المسيح (العريس) بكنيسته (العروس).

4 - والقسم الرابع يضم الأسفار النبوية وتضم الأنبياء الكبار وعددهم أربعة: أشعيا، إرميا، حزقيال، دانيال، والأنبياء الصغار أو الاثني عشر وهم معاً شكلوا كتاباً واحداً لأن آثارهم قليلة.

يشير سفر إشعيا إلى أحداث تاريخية معاصرة للنبي إشعيا الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد وهو يحدثنا عن إله العهد الذي هو الإله القدوس والذي يطلب القداسة من شعبه. وهذه تفترض العدل والمحبة والإيمان.

وتنبأ إرميا في مملكة يهوذا في الجنوب حوالي القرن السادس قبل الميلاد، ونبّه الشعب إلى الشر القادم، وشدد على سمو الله وخيانة الشعب له، وعلى علاقات الإنسان بإلهه.

وتنبأ حزقيال في أرض بابل متحدثاً عن مجانية الخلاص ورجوع المنفيين إلى الأرض المقدسة ليكونوا شعب الله المختار.

ويعتبر كتاب دانيال من الأدب الجلياني (الرؤيوي) ويروي تاريخ الشعب بعد دمار أورشليم على طريقة رؤيا يوحنا. وقد دون في القرن الثاني قبل الميلاد ليسند إيمان ورجاء اليهود المضطهدين على أيام أنطيوخس ابيفانيوس ملك أنطاكية الوثني.

á á á

إن العهد القديم هو قصة شعب لم يكن أفضل من سائر الشعوب لا بل كان شعباً منغلقاً على ذاته، معتبراً أن الله له وحده دون بقية خلق الله (سمى نفسه شعب الله المختار؟!). كما أن الأسفار تحتوي على الكثير من القساوة والخداع وحتى الجرائم التي ارتكبها أشخاص يُسمون رجال الله؟!..

وفي الوقت نفسه يمكن أن ننظر نظرة إيجابية لهذا التراث الغني بالعلاقة بين الله وشعب ما بكل خطاياه وضعفه وعدم أمانته، وبتجديد الله لهذه العلاقة بفيض نعمته عبر الأجيال من خلال الأنبياء.

كذلك فالنصوص الرائعة لتساؤلات أيوب البريء المتألم، وضياع الحكيم في عبثية الوضع البشري، وتألق الشاعر في نشيد الأناشيد في أبيات خالدة عن الحب بين العريس وعروسه.. وصرخات الاستغاثة والرجاء والمديح في المزامير المئة والخمسين.. كل ذلك يشكل غنى إنسانياً روحياً رائعاً إذا قُرئ بعيون جديدة.

إذن هكذا تقرأ الكنيسة العهد القديم كزمن وعد وانتظار تجلى في

إعلان بشرى المسيح.. وإن العهد القديم هو تاريخ شعب عاش مع اللّه صراعه واستسلامه وهو نبع لاستلهام الخير في تلك العلاقة دون محاولة تطبيق قصصه وأفكاره على عالم اليوم بعنف دموي لتحقيق جمل وإعادة تاريخ.

القرآن الكريم

في العقود الأخيرة بدأت الكنيسة تعترف بالوحي الإلهي خارج "الوحي النهائي في المسيح"، واعتبرت أن جميع الأديان تحمل بذار الوحي الإلهي الذي تعتبره الكنيسة كاملاً في المسيح.

ليس هناك كلام واضح في القرآن ونبوءة محمد خارج من فم الكنيسة الرسمية، ولأنني أعتقد أن فهم أي دين يجب أن يكون حسب نظر مؤمنيه بدلاً من نظرة خارجية غير متفهمة وغير واعية لذلك فضلت أن أضع هنا نبذات عن القرآن الكريم وأركان الإسلام والمذاهب الإسلامية كما وردت في موسوعة الأديان بأقلام مسلمة.

القرآن: (**كما يقول أحمد راتب عرموش: من كتاب موسوعة الأديان)** هو كلام الله الذي أنزله على رسوله محمد بن عبد الله بلسان عربي مبين. وكلمة "القرآن" اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله. ويرد في القرآن ذاته أسماء له أو صفات تدل عليه مثل "كلام الله" و"الفرقان"، أوصلها بعض العلماء كالسيوطي في الإتقان إلى واحد وأربعين. وترجمة القرآن لا تسمى قرآناً، إنما هي "ترجمة معاني". وقد نزل القرآن على الرسول متفرقاً في ثلاث وعشرين سنة على أرجح الأقوال بطريقة الوحي. ويقسم القرآن إلى مكي ومدني، فما نزل منه قبل الهجرة يسمى "مكي"، وما نزل بعد الهجرة يسمى "مدني".

وأول ما نزل من القرآن:) **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ([العلق: 1]، وآخر ما نزل منه:) **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيَ الْكَلاَلَةِ...** ([النساء: 176]، وذلك في أرجح الأقوال.

وكان الرسول يأمر بكتابة الوحي، واتخذ لذلك بعض الصحابة كتَّاباً، ويوم توفي كانت الرقاع المكتوب عليها القرآن في عهدة زوجاته، كما كان عدد كبير من الصحابة يحفظون القرآن في صدورهم، فلما قتل عدد كبير منهم في عهد أبي بكر في حروب الردة، كلَّف زيد بن ثابت، وهو أحد كتاب الوحي، بجمع القرآن، فجمعه، وبقيت الصحف كلها عند أبي بكر حتى توفاه الله، فأخذها عمر واحتفظ بها طوال حياته، ثم انتقلت بعده إلى ابنته حفصة.

وفي عهد عثمان استعارها من حفصة، وكلف زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وأرسل إلى كل قطر من أقطار العالم الإسلامي في زمنه: الشام، ومكة، والعراق، ومصر، واليمن، بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سوى ذلك أن يحرق. ويعدّ معظم العلماء ذلك العمل مآثرة من مآثر عثمان، بينما خطَّأه في ذلك معظم الذين ثاروا عليه.

وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في المصحف، حيث كان الرسول يحدد مكان ما ينزل عليه فيقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا. ويقسم القرآن

إلى 114 سورة، لكل سورة اسم، وكل جملة من القرآن تسمى آية. وهو مقسم إلى ثلاثين جزءاً. والقرآن المطبوع بكامله أو المنسوخ بين دفتي كتاب يسمى مصحفاً.

وآيات القرآن الكريم تنقسم إلى قسمين بوجه الإجمال:

القسم الأول: ويتضمن الدعوة إلى التوحيد، وإعمال العقل للتوصل إليه، بالتفكر في خلق السماوات والأرض، والتبصر في الكون وتأمله لتبين إبداع الله في خلقه، ولفت الإنسان إلى نفسه ونهايته، والاعتبار مما حلَّ بالأمم السابقة، والترغيب بالإيمان، وتبيان أن الجنة هي ثواب المحسنين، وجهنم هي مأوى الكافرين.

القسم الثاني: ويتضمن آيات الأحكام التي تنظم علاقات الإنسان بخالقه (العبادات)، وعلاقات البشر بعضهم ببعض، والمعاملات، وتنظيم المجتمع، والأسرة، وأحكام الجنايات (الحدود)، والعلاقات مع المجتمعات الأخرى في السلم والحرب.

معلومات عامة تاريخية:

كانت أول طبعة للقرآن في نصه العربي عام 1530 في مدينة البندقية، لكن جميع النسخ التي طبعت أحرقت. بعدها كانت هناك عدة طبعات لأجزاء من القرآن، ثم قام ابراهام هنكلمان عام 1694 بطبع النص الكامل للقرآن بحروف عربية، وما يزال يوجد منها بعض النسخ. وبعدها بأربع سنوات قام لودوفكو مراتشي بطبع القرآن طبعة كاملة أجود من السابقة.

وأفضل جميع الطبعات حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت الطبعة التي قام بها جوستاف فلوجل عام 1834، والتي أصبحت عمدة الطبعات الأوروبية والمرجع للباحثين في أوروبا. كما قام فلوجل بعمل أول فهرس للقرآن بعنوان عربي هو "نجوم الفرقان" وكان الترتيب ألفبائياً وبحسب جذور الألفاظ.

أما ترجمة القرآن إلى اللغات الأوروبية فقام بأول محاولة لها "بطرس المحترم" رئيس دير كلوني عام 1143م وكانت جزئية وغير أمينة.

وترجم القرآن إلى الإيطالية عام 1547 للمرة الأولى، وإلى الألمانية عام 1616، وإلى الهولندية عام 1641 والفرنسية عام 1647، والإنكليزية عام 1734.

أركان الإسلام:

الركن الأول: هو شهادة "أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله" أي توحيد الله والإيمان وبرسوله وما جاء به.

الركن الثاني: هو الصلاة. وقد صلى الرسول الصبح ركعتين، والظهر أربع ركعات، والعصر أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات. وجمع أحياناً بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. والصلاة عبادة لا ترتبط بمكان لكنها مشروطة بالطهارة والوضوء، أو التيمم، لمن لا يتيسر له الوضوء، وتفضل صلاة الجماعة.

ويفترض في العبادة أنها وسيلة لغاية أعمق من الطقوس والحركات الظاهرة، أي هي وسيلة للتقوى وتطهير النفس.

الركن الثالث: الزكاة وهي عبادة مقترنة بالصلاة في أكثر المواضع والآيات وهدفها التعاون والتلاحم بين أفراد المجتمع ومقدارها 2.5% من مجموع المال.

الركن الرابع: صوم شهر رمضان من كل عام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى مغيب الشمس طيلة الشهر. والصوم كالصلاة عبادة غايتها تهذيب النفوس وتطهيرها.

الركن الخامس: الحج، وشروط وجوبه: البلوغ والعقل والحرية والاستطاعة.

دار الإسلام:

هي الدار التي يأمن فيها المسلمون وتكون أحكام الإسلام فيها ظاهرة، إما لأن أكثر أهلها مسلمون أو لأن الدولة فيها تطبق أحكام الإسلام.

ولدار الإسلام أحكام:

فلا يجوز أن يمنع أحد من المسلمين دخول دار الإسلام وله أن يستوطن أية بقعة فيها. كما لا يجوز لأحد من غير المسلمين أن يدخلها إلا بإذن من وليّ أمر المسلمين، وإذا دخل فلا يجوز له أن يستوطن حتى يعقد له وليُّ أمر المسلمين الذمة. ويجب أن تكون القيادات السياسية والعسكرية والثقل الاقتصادي في دار الإسلام بيد المسلمين. وإذا اعتدي على قطر من أقطار دار الإسلام يجب على أهله الدفاع عنه وعلى جميع المسلمين في العالم أن يكونوا من ورائهم يمدونهم بالرجال والسلاح والمال حتى يتم ردّ المعتدي.

دار الحرب:

مصطلح أطلقه الفقهاء على بلاد المشركين الذي لا صلح بينهم وبين المسلمين، وأيضاً كل بقعة تكون فيها أحكام الكفر ظاهرة. وإن المسلم الذي لا يتمتع بحرية دينية ولا يأمن على نفسه في بلد ما (دار الحرب) عليه أن يهجرها إلى دار الإسلام. ولا يجب ذلك على العاجز كالضعيف والمريض والنساء. ويقول الحنفيون: لا تجب الهجرة من دار الحرب لقول النبي: لا هجرةَ بعد الفتح لكن جهادٌ ونيةٌ.

المذاهب الأربعة:

هي مدارس فقهية تتفق على أصول الدين ومصادره وتختلف في فروع العبادات والمعاملات بالاعتماد على قواعد الاجتهاد وأهمها أربعة:

- **المذهب الحنفي:** نسبة للإمام أبي حنيفة النعمان ويقوم على سبعة أصول هي: الكتاب، والسنة، وفتاوى الصحابة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعرف.

وعرف الفقه الحنفي بمدرسة (الرأي) لاعتماده الكبير على القواعد

العقلية في فهم النصوص، مقابل مدرسة (الحديث) التي تقدم النص على القواعد العقلية.

- **المذهب المالكي:** نسبة للإمام مالك ابن أنس. يقوم هذا المذهب على اثني عشر أصلاً هي: القرآن، والسنة والإجماع، وعمل أهل المدينة، والقياس، وقول الصحابي، والمصلحة المرسلة، والعرف، والعادات، وسد الذرائع، والاستصحاب، والاستحسان.

ويمثل المذهب المالكي مدرسة (المقاصد) التي تنظر إلى مقاصد النصوص الشرعية لا إلى حرفيتها فقط.

- **المذهب الشافعي:** نسبة للإمام محمد بن إدريس الشافعي. وأصول مذهبه كما وردت في كتاب "الأم": العلم طبقات شتى، الأولى: الكتاب والسنة ثم الثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة والثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي قولاً ولا نعلم له مخالفاً منهم، والرابعة: اختلاف أصحاب النبي في ذلك، والخامسة القياس على بعض الطبقات. وإن مدرسة الشافعي هي مدرسة الأثر لأنها لا تقدم أي شيء على الكتاب والسنة.

- **المذهب الحنبلي:** نسبة للإمام أحمد ابن حنبل الذي بنى فتاويه على خمسة أصول هي:

*** النصوص وهو يقدم آيات الكتاب وأحاديث النبي ولم يلتفت إلى ما يخالفها.**

*** ما أفتى به الصحابة ولا يعلم مخالف فيه.**

*** إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة.**

*** الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه وهو الذي رجحه على القياس.**

*** القياس إذا لم يوجد نص على الترتيب المذكور سابقاً والقياس عنده للضرورة.**

وهكذا فالمذهب الحنبلي لا يقدم على الكتاب والسنة شيئاً.

الباب الثاني: دراسات خاصة

رؤيا يوحنا - سفر دانيال - سفر حزقيال

نظراً لأهمية هذه الأسفار فإنني أعرضها هنا كما تفهمها الكنيسة الكلاسيكية أي غير المتطرفة. وإن القراءة المسيحية للعهدين القديم والجديد غير حرفية بل تستلهم الروح وتترك مجالاً واسعاً للاجتهاد، وليس هناك أية نبوءة واردة في العهدين القديم والجديد ما تزال بانتظار تحقيقها أو تطلب من "المؤمنين" تحقيقها عن طريق العمل السياسي والعسكري.

هناك أيضاً فكرة الحرب العظمى بين الخير والشر أو ما يسمى "هرمجدون"، الكلمة التي وردت مرة واحدة في الكتاب المقدس، والتي ألف عليها عشرات الكتب والمقالات وتستخدمها الصهيونية المسيحية لأجل تحقيق أهدافها العسكرية والسياسية وهذه الفكرة موضحة في قسم الأصولية المسيحية.

رؤيا يوحنا

سأبحث بالتفصيل في السفر الأخير من العهد الجديد وهو رؤيا يوحنا لأهميته في الماضي والحاضر..

هذا السفر غامض وإن المحافظين الجدد والكثير من الطوائف تستعمل الجمل والكلمات وتفسرها بطرق مختلفة. بعضها يقود إلى التبشير المسلّح أو العنف الديني أو "التنصير الإكراهي" أو وصف آخرين بالضالين والكفار؟ !!

قد يقال إن سفر الرؤيا هو سفر الخوف بسبب ما يحمل من صور عن نكبات وكوارث تحدث في الكون وتعلن نهاية العالم وفي الحقيقة إنه كتاب الأمل والرجاء.. وهو كتاب يتكلم عن الصعوبات التي عاشتها الكنيسة أو الجماعة المسيحية في القرن الأول للمسيحية.

وقد يقال إنه سفر نهاية العالم، فقد فسرت الأعداد والرموز بطريقة حرفية حيث المخلَّصون هم 144000 شخصاً أما الباقون فيعودون إلى العدم.. كما حاول البعض أن يجعلوا تسلسلاً بين سباعية وسباعية. فهناك سبع سباعيات هي الرسائل السبع، الختوم السبعة، الأبواق السبعة، الآيات السبع، الكؤوس السبع، الأصوات السبعة، الرؤيوات السبع. فهناك إذن سبعة آلاف سنة.. وبما أننا نكون مع المسيح مدة ألف سنة فالعالم ينتهي في نهاية الألف السادس. ولكن متى ينتهي الألف السادس؟ ! وبما أنه مرت أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.. إذن نهاية العالم عام 2000 !! وهذا لم يحدث...

إن تاريخ البشرية يصل إلى مليون سنة وتاريخ الكون يصل إلى مليارات السنين وإذا كان المسيح هو في وسط التاريخ فإن القسم الثاني من التاريخ في بدايته !!

إن كل الأرقام هي رمزية: فالألف سنة لا تدل على رقم عددي، وإنما على الكثرة والامتداد ويدل هذا الكتاب على محنة الكنيسة أيام حكم نيرون، وقتل المسيحيين.. وهو يتوجه إلى معاصري يوحنا لكي يشجعهم ويذكرهم بأمانة الله لكنيسته. وإذا كانت كلمة الله هي هي في الأمس واليوم وغداً إلا أن هذا ليساعد في الفهم، وليس ليصنع الحاضر والمستقبل بأحداث الأمس ويسيطر على حياتنا.

لقد قتل الكثير من الرسل في أيام نيرون خصوصاً بطرس وبولس وهما شخصيتان أساسيتان في الجماعة الأولى فهل زالت الكنيسة؟ ! الله أمين وهذا هو اليقين الذي تريد الرؤيا أن تزرعه في القلوب.

حوالي سنة 70، بدأت الجماعة المسيحية الأولى تفهم أن عودة المسيح لن تكون قريبة وازدادت الاضطهادات من قبل الوثنيين والقتل والنفي، وشعرت الكنيسة أنها مهددة بالانتهاء، فحمل هذا القلق يوحنا ورفعه إلى السماء بنظرة متوسلة وصرخة رجاء فكان كتاب الرؤيا.

إن رؤيا يوحنا كتاب متعلق بالعهد القديم وتاريخ الدين اليهودي ومسيرته الروحية في القرون السابقة للمسيحية.. وهناك تقارب واضح وشديد إلى درجة نستطيع أن نقول إن الرؤيا هو قراءة مسيحية للعهد القديم.. وقد انطلق من الواقع الصعب للجماعة الأولى وحاول أن يجد العزاء والتشجيع في الكتب المقدسة اليهودية كالتوراة. وفي الوقت نفسه نجد تقارباً وتوازياً مع الرسائل البولسية حول مجيء الرب القريب، ومع الأناجيل الإزائية في المشهد الاسكاتولوجي، حيث لا تخرج العلاقة الإنسانية - الإلهية من هذا العالم إلى نهاية العالم.. بل تُدخل القيامة في الزمن.

هناك فروقات متعددة بين الأدب الرؤيوي في العهد القديم ورؤيا يوحنا.. فالرؤى اليهودية متشائمة وتدفع الناس إلى انتظار سلبي لا يعملون فيه شيئاً.. أو الرؤيا اليوحناوية فهي متفائلة وتدعو المسيحيين إلى أن يعيشوا منذ الآن في الفرح مع الله في أورشليم القلوب، وأن يتذوقوا مسبقاً فرح السماء في الليتورجيا الزمنية، فالخلاص آت.. آت..

إن الصورة المقدمة عن المسيح في الرؤيا تفيض حباً ورحمة.. والعالم كله خلق للمديح والعبادة وليتورجيا الفرح. وإذا كان هناك تخصيص في هذه الجملة مثلاً "أنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة" (حز 19:6) كما في العهد القديم. وترديد عبارة مشابهة في رسالة بطرس: "أما أنتم فنسل مختار وكهنوت ملوكي وأمة مقدسة وشعب اقتناه الله لإعلان فضائله، وهو الذي دعاكم في الظلمة إلى نوره العجيب". إلا أن الرؤيا منفتحة على الجميع والدينونة ليست على أساس الانتماء لشعب أو طائفة أو فئة بل على الرحمة والمحبة والوداعة والسلام والفقر الروحي..

إن التصورات الروحية المكتوبة بلغة بشرية تظهر الضعف الأدبي أمام بهاء السر الإلهي.. لكننا نستطيع أن نستشف من الصور الأدبية محبة المسيح للبشرية وغفران الله الفياض دائماً، كما تدفق الوحي كنهر على البشر جميعاً بما فيهم من خطيئة ونقص..

الرؤيا كتاب في التعزية والاندهاش!!

á á á

هناك رموز أساسية في هذا الكتاب:

فالعرش السماوي يدل على عظمة الله الأب الأزلي المسبّح بأناشيد المديح: قدوس.. قدوس.. قدوس.

إنه القدوس الذي يقيم في نور لا يدرك، وفكره الإلهي لا يتبدل، ومشاريعه لا يدركها الإنسان "ما قدر أحد في السماء ولا في الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح الكتاب ويقرأه" (3:5).

فالكتاب يرمز إلى فكر الله ومشاريعه.

وهناك رمز الحمل فهو المسيح الذي يتّم مقاصد الله الأزلية في ليتورجيا الحمل الفصحي..

كما أن هناك رموزاَ كثيرة كالأبواق والختوم والحيوانات كالوحش الطالع من الهاوية، وهي تدل بشكل عام على الاضطهاد الحاصل في ذلك الزمن على الجماعة المسيحية الأولى.. كذلك سقوط التنين العظيم يدل على الانتصار النهائي وإن ذكر المرأة ربما يدل على مريم العذراء.

وحش البحر هو السلطة السياسية، وحش الأرض هو السلطة الأيديولوجية، وإن التنين يمارس سلطانه مع الوحش الأول ويقوم بالدعاية مع الوحش الثاني..

لم يحتفظ وحش البحر بأثر الجراح بعد أن شفي من ضربة السيف وهذا يرمز إلى القوة الكاملة، التي لم ينقصها شيء، للسلطان السياسي في العالم.. كما أن وحش الأرض، النبيّ البليغ، ومنظم الدعاية يسعى بخطبه الرنانة إلى دعوة العالم للخلاص وهو شخص قوي، صاحب ذكاء وحيلة ويجتذب الناس إلى الشر اللابس لباس الخير.

تتم الدينونة بأمر من الله الآب وتستعمل كلمة "ابن الإنسان" (حيث ترد 69 مرة في الأناجيل الإزائية) التي تتضمن سر التجسّد وسرّ الارتفاع والتمجيد.. حيث يجتذب المسيح عيسى أتباعه في مجال السر الذي لا يعبّر عنه.

ويعلن الملائكة مجيء يوم الدينونة ثلاث مرات، وهو يوم لا يفلت منه أحد. وإن الله العادل الرحيم والديان يجازي كل إنسان حسب أعماله، فمنذ الآن نحن نبدأ ببناء بيت لم تصنعه الأيدي بانتظار أن نترك خيمتنا على الأرض..

وهكذا يتم الانطلاق من الصراع بين التنين وابن المرأة حتى يوم الدينونة العامة، فتاريخ الكون يسير رغم بشاعته نحو خلاص الله.. وإن الوقت الحاضر بكل ضيقه هو "ساعة ثبات القديسين" للعبور إلى المجد الآتي.

وتظهر الخليقة الجديدة بعد أن تتم الدينونة فتنزل المدينة المقدسة من السماء، وتتطابق الخليقة والهيكل (أي تصبح الخليقة كلها هيكل الله) ويتقرب جميع الناس من الله الحاضر وسط أحبائه.

á á á

إن الرؤى السبع لكؤوس الغضب تبين أن المحن الكبرى التي أرسلها الله تقدم للخطأة إمكانية التوبة الأخيرة.. فالله لا يريد موت الخاطئ بل عودته كابن ضال إلى الحضن الأبوي. وإن الله يحترم الحرية التي وهبها للإنسان.. ويكمن سر الشر في البشرية في هذا العناد الخاطئ والمتمادي ضد الخير وضد الله.. وهكذا يرى الخاطئ في المحن التي تصيبه آلاماً يدفعها إليه إله لا رحمة عنده، أما لو عرف أن هذه الآلام هي دعوة إلى التوبة والارتداد فإنه سيمجد الله ويخشاه.

إن نهاية الإمبراطورية هي الدمار، ورغم إحساسنا بسقوط روما

القريب إلا أنه يبقى شعوراَ وحسب.. ولكن خطاَ ضئيلاَ يوصل إلى الحقيقة الأخيرة.. ستسقط روما كقصر من التراب وسيغلب العائشون على الإيمان والرجاء حين تتم أقوال الله.

سقوط بابل مشهد رهيب.. بابل الزانية هي رمز إلى كل قوة أعداء الله.. وهي في نظر الجماعة المسيحية الأولى سلطة روما السياسية.. لكنها أوسع من روما لأنها ما زالت حية بعد دمار روما.. وفي التاريخ البشري تبقى بابل حاضرة في كثير من المدن والأشخاص والقوى السياسية والأيديولوجيات..

إن حياتنا في بابل لها معنى.. ويجب أن لا نهرب منها خوفاً وجبانة حتى يأتي يوم نخرج منها إلى حيث يجب أن نذهب.

á á á

سينتصر المسيح في النهاية وسيقع الوحش في الأسر، ويتغلب النور على الظلمة، ويملك المسيح ألف سنة قبل الدينونة العامة (هذا رقم رمزي يدل على الكثرة، وبما أن العالم المادي هو مخلوق، لذلك فهو لا ينتهي إلى العدم.. وإنما ستكون هناك "أرض جديدة، وسماء جديدة" وهكذا يتحول العالم بعد أن تزول هيئة هذا العالم)..

إن الألفاظ والتشابيه البشرية لا تستطيع أن تصور "السماء الجديدة" و"أورشليم السماوية" حيث "ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر ما أعدّه الله للذين يحبّونه".

وإن ألفاظ "السماء الجديدة" و"الأرض الجديدة" هي محاولات للتعبير عن طريق تكديس الكلمات والرموز في واقع إلهي يتعدى الإدراك البشري، وكذلك صورة "عرس الحمل" أو الدينونة حيث مجيء المسيح الديان، تبقى ضعيفة.. لأن لغاتنا زمنية وأبجدياتنا محدودة بالواقع المادي.

وينتهي كتاب الرؤيا بموضوع العبادة في السماء حيث ليتورجيا الشكر والتقدمة، وبين مجيء المسيح في نهاية الزمن والعبادة في الجماعة نجد رباطاً وثيقاً حيث يتجلى السر رويداً رويداً حتى ساعة تجليه الكامل المنتظر..

كتاب الرؤيا هو تعزية الجماعة الأولى الصغيرة والضعيفة والمهددة بالزوال بسبب الاضطهادات.

á á á

بعد هذه التأملات السريعة في فصول الكتاب ننتهي إلى الشعور بالتعزية والرجاء أن النور سينتصر وأن الغلبة هي للخير.. وأن يوم الدين آتٍ، ورحمة المسيح الديان ستشمل الجميع. وهنا الدهشة الكبرى حين نعرف أن الأرقام والرموز تستعمل من قبل الجماعات المسيحية الصهيونية لأهداف سياسية.. وهناك خطة تتبناها مجموعة المحافظين الجدد تستعمل العنف المسلح و"الوحي الإلهي" للسيطرة على شعوب

العالم.

في مقالة قيمة لمنير العكش نشرت في مجلة الكرمل بعنوان: الأدب القيامي من الهامش إلى واجهة المشهد [1] ، حلل الكاتب الواقع مستشهداً ببعض الجمل التي قالها الرئيس الأميركي في خطبه. فهو "يقود جيش الله لينزل العقاب بعدو شيطاني شرير" وكما هو معروف فإن سفر الرؤيا الذي شرحت بعض أفكاره سابقاً هو السفر الذي اعتمدته الصهيونية الأنكلوسكسونية على مدى القرون السابقة في رسم مشروعات دمار بابل وإعادة يهود العالم إلى أرض آبائهم.

إن هذا الإيمان بغزو العالم الجديد (أرض كنعان) وتطهيره من أهله الكنعانيين هو - كما يقول هؤلاء - رسالة مقدسة وامتثال لإرادة الله !! .

لقد ظن رجال حركة الإصلاح أنهم بتدميرهم "بابل الرومانية" أو الكنيسة والحبر الأعظم والحركة الكاثوليكية، ظنوا أنهم سيطلقون "العصر الألفي" أي العصر الذي سيحكم فيه المسيح ألف سنة (وكما أشرت سابقاً فإن كل هذه الأرقام نسبية ورمزية خصوصاً عندما نعرف أن وجود الإنسان على الأرض بدأ منذ حوالي مليون سنة !! والوعي الديني منذ 3500 سنة تقريباً؟ !!).

إن كثيراً من الأصوليين المسيحيين يفكرون بواجب العودة إلى القدس من أجل عودة المسيح.. وكان لوثر يعتقد أن القيامة على الأبواب، كما أن التفسير القيامي للعالم جذب الكثير من العلماء والفلاسفة كإسحق نيوتن وجون ملتون وهنري مور..

واستمر "القياميّون" بانتظار عودة المسيح حتى الحرب العالمية الثانية وقيام دولة إسرائيل، حين ملّوا من السماء وشعروا بتحقيق أحلامهم على الأرض. وبدؤوا يفكرون بإسرائيل كعلامة من علامات نهاية الأزمنة حيث تتم الحرب بين الخير المطلق والشر المطلق أي الله والشيطان (وهي تعرف بحرب Armageddon).

وللأسف فإن ملايين النسخ من الكتب التي تتحدث عن هذا الصراع بين الخير والشر، والتفسير الغريب والساذج والاعتباطي لكتاب الرؤيا (المكتوب منذ عشرين قرناً حول الاضطهاد الذي عاشته الجماعة المسيحية الأولى)، إن هذه الكتب تشكل الثقافة الشعبية الدينية في أميركا لحوالي 100 مليون أو أكثر من البروتستانت (الإنجيلين والمعمدانين (البابتيست).

ويتابع الأستاذ منير العكش في دراسته الكلام عن افتتان بعض الرؤساء الأميركيين بفكرة القيامة وأنهم بطريقة أو بأخرى سيشهدون نهاية العالم.. وأحب أن أضيف هنا بعض الأفكار: هناك مفهوم مهم جداً لا نستطيع أن نفهمه نحن العرب، خصوصاً الذين يعيشون في الداخل أي الوطن العربي ولم يخرجوا إلى أوروبا وأميركا ولم يحتكوا كفاية بالناس هناك:

عبر العقود القليلة الماضية بدأ اليهود وبعض الفئات المسيحية يتخلّون عن فكرة القيامة والسماء والأبدية وعودة المسيح وما إلى ذلك، وصاروا

يؤمنون أكثر بالفردوس الأرضي وبكل الضمانات الاجتماعية والصحية والاقتصادية التي تؤمن المزيد من الاستقرار والاستمرار لهذا الفردوس..

فعودة المسيح لم تعد عودة نبي أو ديان أو دينونة أو نهاية أزمنة، بل العولمة الثقافية والاقتصادية.. حيث بعض كبار الرجال الذين يتكلمون "باسم المسيح" والذين "يحملون أفكاره" يقودون العالم إلى أرض جديدة.. وحلت منظمات حقوق الإنسان وحقوق الحيوان والبيئة محل الوعود الدينية بالعدل والمساواة في السماء.

فالمسيح اليهودي الذي لم يأت بعد.. يأتي اليوم بصورة الانتصار على "الأشرار" و"عودة القدس وهيكل سليمان"..

وبالنسبة للشعب اليهودي فإنهم لا يتصلون بالله إلا عبر الهيكل الذي منعوا منه لقرون طويلة !! فهم بانتظاره عبر الدولة المسلحة والعلاقات السياسية العالمية خصوصاً مع أميركا وليسوا بحاجة لمسيح يحررهم ويعيدهم إلى أرض الميعاد.. هذا التحول في التفكير أساسيّ لفهم دولة إسرائيل. لذلك فإن فكرة السلام تبدو مضحكة وهزلية لأنهم لا يمكن أن يقبلوا بها إلا متضمنة كل تلك المناطق المقدسة لهم !!

وبشكل مشابه ترتبط بعض الطوائف الإنجيلية والمعمدانية (تتبع يوحنا المعمدان = يحيى كنبي) بالأفكار الصهيونية وهذا ما يدعى الصهيونية المسيحية (أنظر الفصل الخاص بذلك) لأنها ترى فيها الحل الوحيد.. فقد تعب هؤلاء أيضاً من عودة المسيح ومن فكرة التحرر من الظلم الاجتماعي والسياسي (الذي جعلته الماركسية أسوأ حالاً وأحبطت ملايين البشر).. إن الحركة المسيحانية لم تعد انتظاراً سلبياً لمسيح سياسي جبار يخلص الشعب اليهودي المضطهد من أعدائه، ويقيم لهم دولتهم إلى الأبد، بل هي حركة سياسية اجتماعية دينية عالمية تبدأ بإنشاء الدولة الإسرائيلية وإعادة شمل المنفيين في تلك الدولة. وهذه بداية المنجزات في العصر المسيحاني، وبعدها يبدأ "تحقيق عودة المسيح المنتظر" وهم يعرفون أنه ربما لن يأتي كشخص بل ككيان عالمي وامتداد أرضي ونجاح اقتصادي وعولمة ثقافية، رغم أن البعض يظنون بعودة شخص واحد اسمه المسيح إلى هيكل سليمان (الذي يجب أن يبنى على أنقاض قبة الصخرة في القدس !! كي يعود).. وإلا فهم يخونون الله وعلاقاتهم به ستبقى منقطعة.

á á á

وبشكل مشابه أيضاً فإن العنف الديني الإسلامي المسلح يبحث بشكل غير واعٍ، عن خلاص لم يأت، حيث تحلم تلك الجماعات بالسيطرة على الفردوس الأرضي وامتلاك دول كثيرة تحت شعار "الإسلام هو الحل".. وهذه الظاهرة هي وليدة سقوط الماركسية، وتفرد الرأسمالية كقوة عظمى بالسيطرة على الأرض، وظهور فكرة العولمة وما تلاها من فقدان خصوصية الشعوب وتراثها وحضاراتها وانمحائها وذوبانها في

البوتقة الأميركية أو الرأسمالية بشكل عام.

أمام هذا الطغيان الصليبي (وهو بالتأكيد تعبير خاطئ) ليس هناك حل بسيط وسريع.. وإن موقف الكنيسة الواضح من ذلك في الغرب والشرق العربي قد خلق الكثير من المتاعب لها.

لكن التأمل فيما يجري في تاريخ الحضارات يجعلنا نفهم أن بذور انحلال الحضارات موجودة في قمة غطرستها وجنون عظمتها.. وإن الإيمان بأن الله يقود التاريخ وليس الحكومة الأميركية ودولة إسرائيل يعطي بعض العزاء والصبر لهذا الجنون الحالي.. كما يلقي الضوء على أن الحقيقة تكمن ليس في الصراع بين المسيحية والإسلام وليس بين المسيحيين والمسلمين، وليس بين الشرق والغرب، وليس بين الحضارات..

وإنما الحقيقة هي هذه: في زمن ثورة المعلوماتية التي تشبه تخلّق الجهاز العصبي الرابط بين كل الأعضاء في جسد الجنين البشري التي تحمله الأرض.. في هذا الزمن الثوري لا بد من مزيد من الفهم والحذر والمحبة والإخلاص والتفهم كي لا يضيع هذا الجنين في عملية إجهاض تدمر كل جمال وكل خليقة !! ويبقى الله أميناً لمشروعه.

á á á

سفر دانيال

يقع السفر في أربعة عشر فصلاً، ويقسم إلى قسمين: الأول تاريخي ويشمل الفصول الستة الأولى، وفيه عرض للأحداث الرئيسة لحياة دانيال تحت حكم نبوخذ نصر وبلطشصر وداريوس.

والثاني وهو قسم نبويّ ابتداءً من الفصل السابع، وفيه يعلن الكاتب عن رؤى نبوية أربع عن مصير الإمبراطوريات الوثنية الأربع بالنسبة إلى بعضها البعض، وبالنسبة إلى علاقتها مع شعب الله.

ويتحدث السفر عن ملكوت الله الحاضر بطريقة مستمرة في قلوب المؤمنين والآتي في نهاية الأزمنة ليكون نهائياً.

وابتداءً من الفصل السابع تظهر فكرة "ابن الإنسان" التي تجمع الانتمائين الإلهي والبشري والتي تصور هنا المسيح الديان الذي يمارس قضاءه في اليوم الأخير.. والنبوءات الموجودة في هذه الفصول تشبه نبوءات يوحنا في سفر الرؤيا وهي من الأدب الجلياني (الرؤيوي) الذي اتبعه الكتاب في ساعات المحنة والاضطهاد، وهذه النبوءات تعلن دمار الممالك الشريرة المتمثلة بالحيوانات الأربعة (وتاريخياً تعني بابل ومادا‌ي وفارس ويونان). إن الحيوانات هنا ترمز إلى الشر، والقرون ترمز إلى القوة، والنار إلى حكم الله والدينونة العظمى.

كما يمثل السفر الفترة التي كان اليهود فيها تحت وطأة اضطهاد انطيوخس الرابع ابيفاينوس.

إذن هو رسالة عزاء ورجاء للناس المضطهدين أن الله سينتصر، وسيقودهم ويخرجهم من موتهم وفشلهم واضطهاداتهم إلى الفرح والازدهار والحياة الكريمة. وهي مشابهة في مفهومها وتصويرها لرؤيا يوحنا.

سفر حزقيال

حمل حزقيال النبي رسالة رجاء من الله إلى شعبه الخاطئ وكذلك حمل في صلاته آلام شعبه المقهور المنفي والمسبي..

ويمكن أن نقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

الأول وهو نبوءات ضد شعب إسرائيل الخاطئ على شكل تأنيب شديد اللهجة، وتشبيه خطيئة الشعب بالبغاء، حتى الوصول إلى تخلي الله عن أرضه وهيكله وقرب النهاية والخراب..

فهناك مرارة النبي أمام الحقيقة التي أظهرها الله له، وهي أنه تبنّى شعبه وحرّره وجعله شعباً مقدساً لكنه لم يكن وفياً له..

وفي القسم الثاني من الكتاب يؤنب الكاتب الشعوب المجاورة التي أفسدت شعبه ويوجه إليها اللوم والغضب. أما القسم الثالث فيبشر بعودة شعب الله إلى أرضه حيث يعبد الله الأوحد وتعود وحدة الشعب في مملكة واحدة.

وهنا نجد صوراً رمزية رائعة في رؤيا العظام اليابسة التي اكتست لحماً وعصباً وعادت إليها الحياة.. واعتباراً من الفصل 38 يبدأ الحديث عن الهيكل الجديد وسط المملكة الجديدة ومدينتها المقدسة أورشليم. وهذه الفصول إذا قرئت حرفياً فإنها تؤيد ما يحدث الآن في فلسطين.

الباب الثالث: المسيحية والآخر

المسيح والآخر

تاريخياً هو يسوع الذي من الناصرة، والدته مريم، عاش مع مجموعة من الأصدقاء حياة جماعة من المبشرّين بالولادة الجديدة من الروح والحق والمحبة... لا أريد أن أورد الآيات القرآنية عن عيسى المسيح هنا لأنني جمعتها في الباب الخاص عن نظرة المسلمين للمسيح والمسيحيين.

أدعوكم الآن في البداية للتأمل في ثلاثة مقاطع من الإنجيل الذي يثبته القرآن، ويعترف بأغلبية محتوياته المسيحيون والمسلمون على السواء.

التطويبات:

في الإصحاح الخامس من إنجيل متى يقول عيسى المسيح:
طوبى لفقراء الروح، فإن لهم ملكوت السماوات.
طوبى للودعاء، فإنهم يرثون الأرض.
طوبى للمحزونين، فإنهم يُعزّون.
طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، فإنهم يُشبعون.
طوبى للرحماء، فإنهم يُرحمون.
طوبى لأطهار القلوب، فإنهم يشاهدون الله.
طوبى للساعين إلى السلام، فإنهم أبناء الله يدعون.
طوبى للمضطهدين على البر، فإن لهم ملكوت السماوات.

الملاحظة الأولى: يلفت انتباهنا أن التطويبات ليست موجهة إلى جماعة مسيحية معينة أو شعب خاص.. بل إلى الفقراء، والودعاء، والمحزونين، والجياع والعطاش إلى البر، والرحماء، وأطهار القلوب، والساعين إلى السلام، والمضطهدين على البر.. وهذه المجموعات من البشر تتجاوز الجماعات المسيحية لتشمل البشرية بكاملها بما فيها الذين لم يسمعوا بالمسيح، وأتباع الأديان المختلفة، والشعوب التي لا تؤمن بالإله الواحد للأديان التوحيدية..

وإن هؤلاء "يلوّحون للخلاص القادم من بعيد"، حيث يعيشون في أعماق قلوبهم نعم الروح المتدفقة على "الأخيار والأشرار".

التطويبات ليست حكراً للذين خلقوا صدفة أو اختاروا أن يكونوا مسيحيين.. الحياة السعيدة هي للجميع.. هي مجانية !!

أيضاً نشعر أن التطويبات تعنى بالإنسانية ككل، وتدعو للسلام والرحمة وطهارة لقلب والوداعة والفقر الروحي والجهاد الروحي.. وهي مفاهيم إنسانية متغلغلة في جميع الأديان والمعتقدات بدرجة ما.. وإن شرعة حقوق الإنسان ليست مختلفة كثيراً عن هذه المفاهيم والقيم..

والملاحظة الأخيرة هي تواجد هذه القيم كلها في الإسلام والقرآن في آيات كثيرة..

- **المقطع الثاني** من الفصل العاشر لإنجيل لوقا:

"وإذا أحد علماء الشريعة قد قام فقال ليحرجه: يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له: "ماذا كتب في الشريعة؟" فأجاب: "أحبب الرب إلهك بكل قلبك، وكل نفسك، وكل قوتك، وكل ذهنك، وأحبب قريبك حبك لنفسك".

فقال له: "بالصواب أجبت. إعمل هذا تحيَ"، فأراد أن يزكّي نفسه فقال ليسوع: "ومن قريبي؟".

فأجاب يسوع: "كان رجل نازلاً من أورشليم إلى أريحا، فوقع بأيدي اللصوص. فعرّوه وانهالوا عليه بالضرب. ثم مضوا وقد تركوه بين حيّ وميت. فاتفق أنّ كاهناً كان نازلاً من ذلك الطريق، فرآه فمال عنه ومضى، وكذلك وصل لاوّي إلى المكان، فرآه فمال عنه ومضى.

ووصل إليه سامري مسافر ورآه فأشفق عليه، فدنا منه وضمد جراحه، وصب عليها زيتاً وخمراً، ثم حمله على دابته وذهب به إلى فندق واعتنى بأمره. وفي الغد أخرج دينارين، ودفعهما إلى صاحب الفندق وقال:

"اعتنِ بأمره، ومهما أنفقت زيادة على ذلك، أؤديه أنا لك عند عودتي". فمن كانَ في رأيك، من هؤلاء الثلاثة قريب الذي وقع بأيدي اللصوص؟، فقال: الذي عامله بالرحمة.. فقال له يسوع: "إذهب فاعمل أنت أيضاً مثل ذلك".

أدعوكم أولاً لتفكروا بهذه القصة البسيطة التي نصادفها في حياتنا اليومية.. إنسان جريح متروك من أقربائه ومعارفه ويرحمه رجل غريب لا يعرفه !!

هنا أيضاً القصة إنسانية غير مرتبطة بشعب معين وليست دعوة لمساعدة أبناء الدين الواحد. وإنما القريب حسب تعريف عيسى المسيح هو من يقوم بعمل الرحمة تجاه الآخر وليس قريب الدم أو الدين أو العرق أو البلد وإنما كل إنسان بحاجة لرحمتنا ومحبتنا.

أيضاً فإن رجل الدين وابن الطائفة لم يلتفتا إلى ألم الإنسان القريب بل رجل غريب، وتاريخياً كان عدو ذلك الجريح..

والنقطة الأخيرة هي.. ليست هناك حاجة للتساؤل: من قريبي؟ ! بل "كيف أكون قريب كل إنسان!!".

- **المقطع الثالث** من الفصل الثالث لإنجيل يوحنا:

"وكان في الفريسيين رجل اسمه نيقوديمس، وكان من رؤساء اليهود. فجاء إلى يسوع ليلاً وقال له: "رابي، نحن نعلم أنك جئت من لدن الله معلماً، فما من أحد يستطيع أن يأتي بتلك الآيات التي تأتي بها أنت إلا إذا كان الله معه" فأجابه يسوع: "الحق الحق أقول لك: ما من أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا إذا ولد من علُ". قال له نيقوديمس: كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ كبير؟ أيستطيع أن يعود إلى بطن أمه ويولد؟

أجاب يسوع: "الحق الحق أقول لك: ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت

الله إلا إذا ولد من الماء والروح. فمولود الجسد يكون جسداً، ومولود الروح يكون روحاً. لا تعجب من قولي لك: يجب عليكم أن تولدوا من عل، فالريح تهبّ حيث تشاء فتسمع صوتها، ولكنك لا تدري من أين تأتي وإلى أين تذهب. تلك حالة كل مولود للروح".

أورد هذا النص لأجل جملة تبدو بسيطة لكنها - برأيي - الإعلان النهائي عن وجود الحرية والمجانية في دعوة الله للجميع: "الريح تهي حيث تشاء"، وكلمة الريح في الأصل كانت تدل على الروح والريح في آن واحد.. الروح لا ينحصر في شعب أو دين أو مجموعة بشرية أو عرق أو لغة أو تقليد.. إنه للجميع ويوحد أبناء البشرية.. والولادة التي تجعل الإنسان جديداً هي من علُ.. من الروح والحق والمحبة !! هذه هي خلاصة المسيحية وهي منفتحة على الجميع وملك الجميع.

á á á

من النقاط الهامة في المسيحية هي الفرح والبساطة.. ففي الوقت الذي يقول فيه يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) للجموع المحتشدة حوله مهدداً بالعقاب والنار: الويل لكم من الغضب الآتي.. يأتي المسيح بتواضع وبساطة ويطرح فكره اللاهوتي في التطويبات التي لا تتكلم عن النار والعقاب والرمي خارجاً، بل عن فرح البؤساء والفقراء والمجاهدين في سبيل الحق والعدل. وتحصل خيبة كبيرة من موقف المسيح الروحي لأنه لا يتصرف كسلطان دنيوي يحرّر شعبه ويقتل أعداءه.

الجماعة المسيحية الأولى وعصور ما قبل الإسلام

في قصة رمزية يتحدث سفر أعمال الرسل عن رؤيا روحية عاشها بطرس الرسول (أحد تلامذة المسيح = أحد الحواريين)، ملخصها أن الجماعة الأولى كانت ترفض انضمام الغرباء إليها وبينما كان بطرس يصلّي، رأى أو تخيل سلة كبيرة تهبط أمامه من السماء، فيها جميع الحيوانات والنباتات فرفضها بطرس على أنها نجسة، لكنه فهم بعد ذلك أن عطية الله لا يمكن أن تكون نجسة، وانفتح قلبه لقبول "الغرباء" في الجماعة المسيحية الأولى.

وابتدأت هذه الجماعة تكبر شيئاً فشيئاً، وكانوا يجتمعون معاً ويصلّون ويأكلون ويساعدون بعضهم بعضاً. وفي البداية كانوا مضطهَدين، يعيشون إيمانهم خفية. وإن أول المضطهِدين الرسميين هو نيرون (54 - 68م) الذي قتل الرسولين بطرس وبولس، أما أول الشهداء في المسيحية فكان استيفانس، الذي رُجم حتى الموت غافراً لراجميه. ثم تتابع اضطهاد المسيحيين على أيدي دومتيان 81 - 96م، تراجان 98 - 177م، هدريان 177 - 138م، أنطونيوس 138 - 161م، أوريليوس 161 - 180م.

كان كلُّ مسيحي معرضاً للنفي أو الإعدام أو مصادرة الأملاك باعتباره من أتباع دين غير شرعي. وقد خفّ الاضطهاد بين عامي 180 - 192 أيام حكم كومودوس، بل مرت سنوات طويلة من الهدوء النسبي أيام أسكندر سفيروس (222 - 235م) وفيلبوس العربي (244 - 249م). وكانت أسوأ الأيام على عهد ديوقلتيان (284 - 305م) حين سقط أكبر عدد من الشهداء، وقد أصدر قراراً بوجوب تدمير جميع الكنائس وطرد جميع المسيحيين من الوظائف.

أما ديسيوس (249 - 251م) فقد أوجب عبادة الإمبراطور وحكم على الذين رفضوا بالموت أو بالنفي، وتبعه على نفس المنهج غالوس (251 - 253م) وفالريان (253 - 259م) وأورليان (270 - 275م).

وبعد ثلاثة قرون من نشوء المسيحية واضطهادها بدأت الأمور تتغير. فقد اعتنق قسطنطين المسيحية عام 313م، واعتبرها أحد أديان الدولة، ثم تمّ استيحاء تعاليمها في التشريعات الرسمية عام 324م، ثم تحولت إلى دين الدولة الرسمي عام 380م، وهكذا تغير وضع المسيحيين من مضطهَدين يعيشون في الخفية إيمانهم، وعندما يقبض عليهم يصيرون طعاماً للوحوش في المسارح الرومانية، إلى مواطنين من الدرجة الأولى وستصبح الكنيسة مؤسسة روحية ودنيوية لقرون مديدة، حتى يتم فصل الدين عن الدولة في العصور الحديثة.

في القرون الأولى للمسيحية كان هناك تياران فكريان لاهوتيان بخصوص الإيمان بالمسيح والانضمام لكنيسة. فمن اللاهوتيين الذين يعتقدون أن الخلاص هو أوسع من دائرة الكنيسة ويشمل البشرية كلها

أذكر:

* القديس يوستينوس الفيلسوف الشهيد (1 0 5 - 165م:
نابلسي المولد وثني الأرومة، اطلع على الفيثاغورية والرواقية والأفلاطونية الحديثة ثم تلقى التعليم المسيحي.. ولما رفض أن يقدم العبادة للإمبراطور حكم عليه بالموت). حيث يقول:

*** "الكلمة الإلهية تظهر بكمالها في المسيح، إلا أن بذار الكلمة منثورة في كل الجنس البشري قبل المسيح وليس فقط عند اليهود".**

*** القديس إيريناوس أسقف مدينة ليون (+ 202م) حيث يقول:**

"لا إله إلا واحد وهو الله، الذي من البدء وإلى المنتهى وبتدابير مختلفة، يعضد الجنس البشري".

*** أوريجانس (من لاهوتيي القرن الثالث، توفي سنة 254م) حيث يقول في العظة الثانية من المزمور 36:**

"المسيح هو الذي يكون جسدَه الجنسُ البشري أو ربما بتعبير أفضل، الخليقة كلها، ويكون كلٌّ واحد منا عضواً من أعضائه في حيَّز منه".

بالمقابل هناك تيار لاهوتي فكري معاكس يستبعد غير المؤمنين من الحصول على الخلاص والحياة الأبدية أي الجنة والنعيم..

أذكر من هؤلاء اللاهوتيين:

*** كبريانس القرطاجي (من لاهوتيي القرن الثالث أيضاً) يقول:**

"لا يظن هؤلاء أن لهم سبيلاً إلى الخلاص إن هم رفضوا إطاعة أساقفتهم أو كهنتهم، فالمتكبرون والمتغطرسون يميتهم سيف الروح حين يُطرَدون من الكنيسة، إذ أنهم لا يستطيعون أن يحيوا في الخارج، لأن ليس سوى بيت واحد لله وليس من خلاص لأحد إلا في الكنيسة".

وإن العبارة الأخيرة أي "لا خلاص خارج الكنيسة" بقيت متداولة لقرون طويلة كتيار فكري (يمكن أن نطلق عليه في أيامنا هذه "أصولي").

يعتقد أوغسطينوس (توفي 430م) أن الكنيسة تشمل كل المخلصين بيسوع المسيح ابتداءً من هابيل، أي كل الذين سبقوا ظهور المسيح التاريخي، وبالتالي يمكن توسيع هذه المقولة إلى الذين لم ينتموا إلى الكنيسة الظاهرة أو المنظورة، لكن أوغسطينوس نفسه كان يعتقد أن القبائل الأفريقية التي كانت قريبة من موطنه في الجزائر هي مقصية عن الخلاص بمشيئة إلهية.. وبشكل أكثر تزمتاً اعتقد أن سلالة آدم لا يمكنها أن تحصل على الخلاص ورحمة الله ما لم تعتنق الإيمان المسيحي وتنال المعمودية !! .. وسماها "السلالة الهالكة"، وإن هذه النظرة القاسية والمقيدة والمحصورة قد انتقلت إلى فكر العصور الوسطى لتأثير أوغسطينوس القوي والبارز في لاهوت تلك العصور.

* يؤكِّد يوحنا الذهبي الفم (توفي عام 407) أن اليهود والوثنيين مذنبون ذنباً عظيماً لأنهم رأوا النور فأعرضوا عنه، ومن ثم فإن الوثنيين الذين ارتضوا البقاء خارج الكنيسة لا يحصلون على الخلاص !!

*** فولجانس الروسبي (توفي عام 533م) وهو أسقف أفريقي متشدد ومن تلامذة أوغسطينوس، فقد أقصى كل الذين "لم يمنحهم الله معرفة الحقيقة" من الخلاص.**

طبعاً كل هذه الأفكار اللاهوتية سابقة للإسلام، وموجَّهة بشكل خاص لليهود والوثنيين.

إن هذه النظرات المتشددة قد انتقلت إلى تعليم الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى كما ظهرت في أقوال الباباوات والمجمع اللاتراني الرابع (1215م) الذي يقصي من الخلاص كل الذين لا ينتمون إلى الجماعة الكنسية المنظورة بما فيها من طقوس وأسرار.

وزاد الطين بلة المنشور الباباوي عام 1302 الذي أصدره (البابا بونيفاسيوس) والذي أضاف إلى الخلاص وجوب الخضوع التام للحبر الروماني !!

فعبارة "لا خلاص خارج الكنيسة" لم تعد كافية، بل أضيفت الصفة الكاثوليكية والرومانية والخضوع لسلطة البابا في روما. وبهذا أقصى هذا البابا كل الكنائس الأرثوذكسية المشرقية (التي انفصلت عن سلطته عام 1054م).

á á á

بعد ظهور الإسلام

مقدمة:

شكل الدين الإسلامي مشكلة سياسية واجتماعية ودينية لأوروبا المسيحية، التي رأت في المسلمين تهديداً لأبنائها، وأعداء يقفون على الحدود.

وإن توسع الإمبراطورية الإسلامية في القرنين السابع والثامن للميلاد حتى بلوغها قلب العالم المسيحي قد اعتبر زحفاً دينياً وسياسياً يجب إيقافه...

وصلت الفتوحات العربية الإسلامية إلى حدود واسعة وتبعها اعتناق الدين الإسلامي من قبل شعوب البلاد المفتوحة.. واستمر ذلك حتى القرن الحادي عشر، حين قامت الدول الغربية بهجوم معاكس فأسست مملكة القدس اللاتينية واستردت إسبانيا. وفي عام 1492 انتهت آخر مملكة إسلامية فيها. لكن كان هناك توسع في مناطق أخرى على أيدي السلاجقة والعثمانيين.. وتم احتلال القسطنطينية، وتوسعت الدائرة حتى احتلال جزيرة كريت وتهديد فيينا.

حالة العرب حوالي عام 600م:

يبدو أن المسيحية بقيت على هامش الحياة العربية في القرون الأولى لانتشارها، بسبب بعدها عن مخيلة القبائل العربية وعباداتها الوثنية، والاختلاف الشديد بين اللاهوت المسيحي والعقائد الوثنية لتلك القبائل. كما أن ارتباط المسيحية بالدولة البيزنطية نفّر العرب، خاصة البدو والقبائل، من الولاء غير المباشر لها، وإن عدم ترجمة الإنجيل إلى العربية وبقاء تفسيره محصوراً بالسريانية واليونانية قد زاد البعد والنفور. رغم ذلك فإن الكثير من السكان أيام الفتوح العربية كانوا مسيحيين، كالغساسنة في بلاد الشام وبني تغلب في أرض الرافدين، وحين جاءت الفتوح الإسلامية الأولى الكبيرة وقضت على الدولة الفارسية وانتزعت بلاد الشام ومصر وليبيا من الدولة البيزنطية، واجه الفاتحون مشكلة تنظيم العلاقات مع الناس من الأديان الأخرى. وعقدت معاهدات تعتمد على فكرة الجزية من قبل غير المسلمين مقابل الحماية المقدمة من المسلمين أصحاب السلطة. وبشكل عام لم يكن للمسيحيين تجمعات سياسية قوية كيهود المدينة ولم يحصل اقتتال وتشابك عنيف بين المجموعتين.. بل إن هناك بعض الأخبار التي تدل على تسامح وتعاطف شديدين كوضع الأقباط في مصر أيام الفاطميين (973 - 1171م) فقد كان في حاشية المعزّ الفاطمي القاهري قبطي يدعى "قزمان بن مينا" الذي شغل منصب نائب الخليفة في سوريا رغم احتفاظه بمسيحيته. كما أن الخليفة العزيز (975 - 996م) قد عين مسيحيين في وظائف رفيعة في الدولة، وأعفى الأقباط من الضرائب الإضافية، وسمح لهم أن يعمروا كنائسهم المتداعية وبناء كنائس جديدة.. ورغم الظلم

والاضطهاد والقتل الذي عاناه المسيحيون أيام الحاكم بأمر الله (996 - 1021م) وهدم كنيسة القيامة في القدس، إلا أن خليفته الظاهر (1021 - 1036) قد أصلح الأمور، وأعاد بناء الكنيسة وعاد الاستقرار والسلام.

احتل النساطرة مراكز هامة في نصيبين وجند يشابور ومرو.. وقد قاموا بأعمال جُلّى في بيت الحكمة في بغداد، نتيجة الحرية والامتيازات المعطاة لها من قبل الخلفاء.. فقد تولوا بعض المناصب السياسية وبنوا كنائس جديدة..

الإسلام والحروب الصليبية:

في حوالي القرن الحادي عشر كان معظم سكان البلاد العربية قد صاروا مسلمين.. وكانت المراجع والكتب قد ترجمت إلى العربية وأصبحت بمتناول الجميع.. فخفت سيطرة المسيحيين على الثقافة في البلاد العربية.. في الوقت نفسه كانت المسيحية قد بدأت نشاطها من جديد على الحدود العربية حيث نضجت فكرة الحروب الصليبية لاستعادة المدن والبلاد "المقدسة" بالنسبة للمسيحيين. وحين أُستُرِدَّت طليطلة عام 1085 اتجهت الأنظار إلى القدس، ولما كان البابا يحلم بفرض سيطرته على الكنيسة الشرقية المنفصلة عن الكنيسة الأم (وهذا ما حدث عام 1054م) كما يرى ذلك الغربيون.. كما أن الأطماع الاقتصادية باحتلال منافذ التجارة وأبوابها، بالإضافة إلى التغيرات السياسية في أوروبا في ذلك الوقت.. كل ذلك دفع البابا إلى بدء الحملات الصليبية على بلاد المشرق خصوصاً بلاد الشام ومصر (بين عامي 1099 و1291م). ففي سنة 1099م سقطت القدس، واستولى الصليبيون على الموانئ وأقاموا مملكة بيت المقدس وثلاث إمارات: طرابلس وأنطاكية والرها. واستمرت الحروب حوالي قرنين. وفي سنة 1187م استرجع صلاح الدين الأيوبي القدس في معركة حطين. وتتابع الاسترجاع وانسحاب الصليبين حتى عام 1291م حين أخرجوا بالكامل.

لكن هذين القرنين قد دمّرا كل الثقة والسلام والتعاون بين المسيحيين والمسلمين في الشرق.. فرغم وقوف المسيحيين إلى جانب المسلمين في الحروب ضد الفرنجة أو الصليبين، والقتال سوية ضد الاستعمار، إلا أن الشعور العام للمسلمين صار يرى في المسيحيين أشخاصاً تصعب الثقة بهم، وفي الوقت نفسه فقد المسيحيون الشرقيون ثقةَ الغرب. فبعد الانفصال التاريخي للكنيسة إلى شرقية وغربية عام 1054، حاولٍ الصليبيون اجتذاب المفكرين وعامة الناس إلى صفوفهم وقد نجحوا قليلاً لكن فشلوا بشكل عام، وبقي المسيحيون الشرقيون ضدهم، يقاتلون مع صلاح الدين في فتح القدس وحصار عكا.

في العصور الحديثة:

عندما استولت الدولة العثمانية على بلاد الشام ومصر حوالي 1516 ثم على العراق وشمال أفريقيا، طور العثمانيون النظام المتعلق بالجاليات وأهل الذمة وسموا الطوائف مللاً، فكانت كل طائفة تعتبر وحدة اجتماعية يترأسها رئيس روحي مسؤول عن علاقاتها بالدولة..

وبالنسبة للمسيحيين فقد جعل "السلطان سليم" الأقباط والنساطرة واليعاقبة والسريان والغريغوريين تابعين للبطريرك الأرمني، أما بطريركية أنطاكية الأرثوذكسية وبطريركية القدس فكانتا تحت نفوذ بطريرك القسطنطينية.. وكان زيادة عدد الملل المسيحية تفيد في زيادة الحصول على المال من قبل الباب العالي.. ومع السنين ازدادت عدد الطوائف المسيحية وتشعبت حتى وصلت إلى أكثر من عشر طوائف !!

زعماء التشكيك الثلاثة والانهيارات:

بعيد الحرب العالمية حدث منعطف تاريخي في البنى الاجتماعية والسياسية في العالم. فالدولة العثمانية انهارت... كذلك الإمبراطورية الصينية، وتفككت الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية القيصرية الروسية.. كما انتهى مفهوم الكنيسة البروتستانتية للدولة.. ومع كل تلك التداعيات بدأت فرص بناء نظام عالمي جديد على أنقاض القرن الثامن عشر والتاسع عشر المبنييّن على الفلسفة الحديثة لديكارت والعلم الطبيعي لغاليليه، ومفاهيم الدولة والحق والسياسية المدنية. وتبدلت المحورية الأوروبية بأقطاب جديدة هي أميركا والاتحاد السوفياتي واليابان إلى جانب أوروبا.

لكن الأمور سارت باتجاه منحرف كارثي نحو الشيوعية والاشتراكية القومية والنزعة العسكرية اليابانية، ووصلت قمتها في الحرب العالمية الثانية بإلقاء القنبلتين الذرتين على اليابان و55 مليوناً من القتلى.. وإذا كان الامتداد العسكري لليابان قد توقف بعد ذلك إلا أن "ديكتاتورية البروليتاريا" في الاتحاد السوفياتي بقيت تنمو وتمنع كل حزب أو تجمع في البلاد، وتحولت من ثورة باسم الطبقات الكادحة إلى سلطة عنف ضدها (مع بقايا واضحة في العالم العربي حتى اليوم).. حتى مجيء غورباتشوف وإنهاء الشيوعية العالمية..

هذا من الناحية السياسية والعسكرية.. أما من الناحية الفكرية (وهي البنية الأساسية التي ارتكزت عليها كل الحركات السياسية والاجتماعية في القرن العشرين)، فنجد زعماء التشكيك الثلاثة وهم ماركس ونيتشه وفرويد..

إن المادية التاريخية التي أتى بها ماركس وتبناها لينين ثم ستالين والتي عاشت قرابة 70 عاماً في الاتحاد السوفياتي، وما تزال موجودة هنا وهناك بشكل أو بأخر، بدأت كأي مفهوم إنساني لخير الإنسان وسعادته.. فانطلقت من الشعوب الفقيرة والعمال الكادحين وانتهت بعد بضع سنوات بمعسكرات الاعتقال (Gulag) وسلطة الحزب الواحد القوي والغني والمسيطر على شعوب فقيرة محرومة من

الحاجات الطبيعية بالإضافة إلى حرية الرأي والديمقراطية..

وتأثرت البلاد العربية بشكل عميق بالمفهوم الاشتراكي، وابتدأت كثير من الثورات - بعد استقلال تلك البلاد من الاستعمار الفرنسي والإنكليزي - متبنية المفاهيم الاشتراكية.. وللأسف انتهت بعد بضع سنوات إلى وضع مشابه.

أما فكرة التفوق الإنساني التي قدمها نيتشه (وقد انتهى به الأمر إلى الجنون) فقد استغلت تماماً من قبل النازية الهتلرية، وأدت إلى فكرة التفوق العنصري عند كثير من الدول والأشخاص. ورغم ذلك فإن الكثير من المفكرين قد رأوا الجانب الإيجابي في أفكار نيتشه.. ونحن نعيش اليوم بشكل أو بآخر فكرة "السوبرمان" على جميع الأصعدة..

أما الأيديولوجية الفرويدية فقد قادت إلى معرفة أعمق للإنسانية والدوافع الغريزية، وإلى تيار إباحي هائل.. هؤلاء الزعماء الثلاثة الذين زعزعوا أسس الدين.. في الغرب أكثر من الشرق.. قد خلقوا "مشكورين" المجتمع المدني العلماني في الغرب، دون أن يتغير الكثير في النهاية بالنسبة لعلاقة الإنسان بالله.. فاليوم في عصر ما بعد الأيديولوجيات.. لم نصبح في عصر ما بعد الدين.. لأن أكثر من 85% من الشعوب الأوروبية والأميركية ما تزال تؤمن بالله.. وقلة قليلة من الناس خصوصاً في أوروبا الشرقية الخارجة من الشيوعية لم يتربّوا على أي دين.. ويمكن تصنيفهم ضمن "الملحدين" مع أن أغلبهم يؤمنون "بقوة فائقة الطبيعة".

نحو عالم مؤمن:

على كل حال وصلت هذه التيارات ضعيفة وخفيفة إلى البلاد الإسلامية، ولا يمكن أن نقول إننا مررنا بعصر الأيديولوجيات لأنّ (هذا أحد الأسباب) الأيديولوجية الشرقية تمتد لآلاف السنين ولا يمكن زعزعتها بسهولة (فمثلاً شريعة حمورابي في بابل القديمة بين القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل المسيح تحتوي الكثير من الوصايا التي جاءت في الكتب المقدسة للأديان الإبراهيمية).

فالغنى الروحي للشرق وافر وممتد في الزمان.. ويقدم حماية أساسية للإنسان الشرقي.. وهذا - أعني الغنى الروحي - أوسع من الأديان الإبراهيمية التي تأمر بالعدل والصدق والأعمال الخيرية وحب الله وحب القريب حتى حب العدو والجهاد الروحي.. لأن البوذية تسير في الخط عينه كتعليمها على تحمل الألم الإنساني والسيطرة على الذات واحترام حياة الآخرين، كذلك الكونفوشيوسية والهندوسية تسعى إلى الحفاظ على النظام العالمي الإنساني واحترام الإنسان..

فهذه الأديان العالمية الكبرى تشترك في وصايا إنسانية عامة تحرم القتل والكذب والسرقة والزنى وتكرم الحياة العائلية والوالدين والأولاد.. كما أنها تشترك في الرؤى النهائية والمفهوم الأخروي للحياة..

فما يسمى "القيامة" في اليهودية يشبه "الحياة الأبدية" في المسيحية، و"الجنة" في الإسلام"، و"النرفانا" في البوذية، و"الموكشه" في الهندوسية، و"الخلود" في التاوية.

إذن إزاء التيار الأيديولوجي "الملحد" في الغرب كان ينمو تيار آخر روحي ديني شرقي.. وفي عام 1970 انعقد المؤتمر العالمي للديانات من أجل السلام في اليابان، وعبّر البيان الختامي عن أخلاق عالمية لخدمة الإنسان تصلح كقواعد عامة للشعوب كلها مع الحفاظ على خصوصية كل شعب وكل حضارة وكل دين:

"نحن البهائيين والبوذيين والكونفوشيوسيين والمسيحيين والمسلمين والهندوسيين واليهود والجينيثين والشينتيين والسيخ وأتباع زرادشت وممثلي الأديان الأخرى، اجتمعنا هنا لمصلحتنا العامة من أجل السلام.. اجتمعنا هنا لنتطرق إلى موضوع السلام الأولي ولقد اكتشفنا أن ما يجمعنا هو أهم من الذي يفرقنا.. اكتشفنا أن هناك أموراً مشتركة مهمة بيننا، فهناك قناعة لوحدة أساسية للأسرة الإنسانية وللمساواة ولقيمة كل البشر.. كما أن هناك شعوراً بقيمة المجتمع الإنساني، وعدم المس بالفرد وضميره، وبواجب الجميع أن يكونوا إلى جانب الفقراء والمظلومين، وبأن الإيمان والمحبة والرأفة وقوة الروح والصدق هي أقوى من الحقد والضغينة والأنانية".

طبعاً هذه مبادئ جميلة ويمكن أن نضيف إليها كرامة الحياة وسلامة البيئة، وأهمية التعددية الثقافية والدينية لبناء مجتمع مسكوني..

لكن يجب أن لا ننسى أن معظم الحروب الدينية قامت أيضاً في الشرق كالحرب اللبنانية، والحرب العراقية الإيرانية، والصراع بين الهنود والباكستانيين، وبين السيخ والهندوس، وبين البوذيين السنغاليين والهندوسيين التامول... الخ.

ومن المؤتمرات العالمية للسلام حدث لقاء أسيزي عام 1987 بين ممثلي الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام وديانات الهند والشرق الأقصى.. وصلّوا جميعاً معاً من أجل السلام..

إن هذه اللقاءات تفيد في الشفاء من التعصب والانغلاق ومفهوم "الديانة الوحيدة للخلاص والبقية للجحيم".. كذلك في فهم خصوصية الشعوب وتقبلها للأديان المختلفة، كعدم وصول الهندوسية والكونفوشيوسية إلى البلاد العربية مثلاً وعدم دخول المسيحية إلى معظم الشرق الأدنى إلا بشكل ثانوي..!!

وهكذا "فالطريق والحق والحياة" هو المسيح بالنسبة للمسيحيين، والتوراة بالنسبة لليهود، والقرآن بالنسبة للمسلمين، والطرق الثمانية بالنسبة للبوذيين و..

ويبدو أن فكرة خلق ديانة عالمية أو موحدة قد باء بالفشل عبر القرون، لأن الخصوصية أساسية بالنسبة للشعوب.. والرجاء هو أن يكون هناك

لقاء حضارات وحوار شعوب وسلام بين الديانات السامية (اليهودية والمسيحية والإسلام) والديانات الهندية (البوذية والهندوسية) والديانات الصينية (الكونفوشيوسية والتاوية).

بالمقابل وخصوصاً في البلدان الإسلامية (العربية وغير العربية) وبعد انهيار كل الأيديولوجيات الغربية، خاصة القومية أو الاشتراكية (الماركسية)، ومع انتشار الفساد وفشل الحكومات العربية أمام التطرف الصهيوني وقيام دولة إسرائيل.. كل ذلك أدى إلى خلق تيار أصولي إسلامي يستعمل العنف والإرهاب داخل الوطن العربي وخارجه.. وهذا موضوع خاص سأدرسه في قسم تالٍ..

الباب الرابع: مواقف إيجابية في العلاقات المسيحية الإسلامية عبر العصور

أدرس في هذا الفصل والذي يليه مواقف بعض الجماعات المسيحية أو المسيحيين الأفراد، عبر التاريخ، من المسلمين والإسلام.

أولاً: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين أيام النبي والإسلام الأولى

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة:

لما رأى الرسول ما يصيب أصحابه من البلاء قال: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.. فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.. واشتدت قريش على المسلمين، وتتابع المسلمون إلى الحبشة فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً، والنبي مقيم بمكة يدعو إلى الله سراً وجهراً، ولما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمنوا، وأن النجاشي قد أحسن صحبتهم، ائتمروا بينهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية ومعهما هدية إليه وإلى أعيان أصحابه، فسارا حتى وصلا الحبشة فحملا إلى النجاشي هديته وقالا: إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم. فردّ النجاشي على من أوصلوا له رسالة الرجلين قائلاً: لا والله لا أسلم قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، وإن كانوا غير ما يذكر هذان منعتهم وأحسنت جوارهم.

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب النبي فدعاهم فحضروا، وقد أجمعوا على صدقه فيما ساءه وسره، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟

فقال جعفر: أيها الملك كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله وأن لا نشرك به شيئاً ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام. وعدد عليه أمور الإسلام، قال: فآمنا به وصدقناه وحرمنا ما حرم علينا وحللنا ما أحلّ لنا، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ فقال: نعم.. فقرأ عليه سطراً من كهيعص، فبكى النجاشي وأساقفته، وقال النجاشي: إن

هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مسكاة واحدة، انطلقا.. والله لا أسلمهم إليكما أبداً!

فلما كان الغد قيل للنجاشي: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. فأرسل النجاشي فسألهم عن قولهم في المسيح فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود. فنخرت بطارقته. فقال: وإن نخرتم.. وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنني آذيت رجلاً منكم. وردّ هدية قريش وقال: ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناس في حتى أطيعهم فيه، وأقام المسلمون بخير دار.

ولما مات النجاشي كانوا لا يزالون يرون على قبره نوراً.

نصارى نجران:

وأما نصارى نجران فإنهم أرسلوا العاقب والسيد في نفر إلى رسول الله، وأرادوا مباهلته فخرج الرسول ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوه وصالحوه على ألفي حلة.. ثمن كل حلة أربعون درهماً، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ولا يعشروا، وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به.

ومن نص العهد، كما ورد عند البلاذري في فتوح البلدان: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم وأموالهم، وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم، وأمثلتهم. لا يغيّر ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم. لا يُفتن أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته... وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش. من سأل منهم حقاً فبينهم النَصَف، غير ظالمين ولا مظلومين بنجران... ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر. ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله، وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم".

ومن الأحداث الجميلة التي تدل على سعة صدر المسلمين تجاه المسيحيين قصة وردت في فتوح البلدان للبلاذري حيث يقول:

حدثني هشام بن عمار أنه سمع من المشايخ يذكرون أن عمر بن الخطاب عند مقدمه الجابية من أرض دمشق مرّ بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يُجرى عليهم القوت...

وإن التعايش وصل إلى درجة صلاة المسيحيين بطقوسهم داخل المسجد.. فقد ورد في السيرة النبوية لابن هشام، أن الرسول عندما وفد إليه وفد من نجران دخلوا عليه مسجده في المدينة المنورة، وعندما

حانت صلاتهم قاموا في مسجد رسول الله يصلون فقال الرسول: "دعوهم فصلوا إلى بيت المشرق".

رئيس الكنيسة النسطورية عام 650م:

قال: "إن هؤلاء العرب لا يحجمون عن محاربة المسيحية فحسب، بل إنهم يكبرون ديننا ويثنون عليه، ويحترمون قسسنا ورجالنا المقدسين، ويقدمون الهدايا لأديرتنا وكنائسنا".

ثانياً: العصر العباسي الأول (750 - 846)

من أعظم العصور العربية والإسلامية لانفتاحه على الثقافات المختلفة وتمهيده لساحات لقاء بين الحضارات المنتشرة في البلاد الإسلامية التي شكلت في ذلك الزمن إمبراطورية واسعة الامتداد.

ويبدو أن العقلية العباسية تنورت واتبعت أحاديث نبوية تشجع العلم والمعرفة والحكمة، والبحث عنها "ولو في الصين" و" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". فقدمت الثقافة المسيحية على أيدي النساطرة واليعاقبة والموارنة ومدارسهم الثقافة والفلسفة اليونانية باللغة السريانية، كما كان الغساسنة والمناذرة عرباً مسيحيين وقد أسهموا في ثقافتهم باللغة العربية في تنويع مصادر الحضارة.

لقد شعر الخلفاء العباسيون بالحاجة إلى ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، فوجدوا في السريان ضالتهم لأنهم يتقنون اليونانية والعربية.. ومن أشهر المدارس في ذلك الوقت كانت مدرسة الرها ومدرسة نصيبين ومدرسة جنديسابور ومدرسة قنسرين ومدرسة أنطاكية ومدرسة حران.

كذلك قدمت الثقافة الهندية الكثير من العلم في مجالات الرياضيات والطب والنجوم والإلهيات، بالإضافة إلى ذلك كان هناك اليهود وثقافتهم والصابئة والمجوس والزرادشتيون والمانويون والمزدكيون.. وكل هؤلاء شكلوا مزيجاً متنوعاً متكاملاً من الحضارات والثقافات التي تعمل معاً من أجل ازدهار الدولة والإنسان.

ومن الحوادث التي تروى أن الخليفة أبو جعفر المنصور (753 - 775م) كان مصاباً بمرض في معدته، وقد اشتد عليه الداء وامتنع على أطباء بلاطه شفاؤه، فاستقدم الطبيب النسطوري جورجيوس بن بختيشوع ولما شفي بعلاجه أمر الخليفة بتوليه نقل الكتب الطبية إلى العربية لينهل منها جميع العرب.

كذلك أنشأ الخلفاء مكتبات وجمعوا الكتب النفيسة من كل حدب وصوب.. وقد بعث المأمون بالوفود إلى الهند وبلاد فارس واليونان للتفتيش عن الكتب العلمية وشرائها، كما جعل الحصول على الكتب من أحد شروط وقف القتال واعتبرها غنيمة من غنائم الحرب. وشجع أيضاً المفكرين والعلماء وجدد مدرسة الترجمة "دار الحكمة" في بغداد..

ومن أهم المترجمين أربعة من العصرين العباسيين الأول والثاني وهم حنين بن إسحق، قسطا بن لوقا، يحي بن عدي، وثابت بن قرة.

حوار طيموثاوس الجاثليق مع الخليفة المهديّ سنة 781م [2] :

هذا الحوار من أجمل الحوارات المسيحية - الإسلامية وربما أوله، وأورده هنا لأظهر مدى انفتاح الديانتين وتسامحهما أيام العصر العباسي.

وملكنا الحليم، المملوء حكمة، قالي لي:
"ماذا تقول عن محمد؟".

فجاوبته قائلاً: إن محمداً يستحق المدح من جميع الناطقين، وذلك لأجل سلوكه في طريق الأنبياء ومحبّي الله. لأن سائر الأنبياء قد علّموا عن وحدانية الله، ومحمد علّم عن ذلك. فإذاً هو أيضاً سلك في طريق الأنبياء.

ثم كان أن جميع الأنبياء أبعدوا الناس عن الشر والسيئات وجذبوهم إلى الصلاح والفضيلة، هكذا محمد أبعد بني ملته عن الشر، وجذبهم إلى الصلاح والفضائل، فإذاً، هو أيضاً قد سلك في طريق الأنبياء.

ثم إن جميع الأنبياء منعوا بني البشر من سجدة الشياطين وعبادة الأوثان، وحرضوهم على عبادة الله (عزّ وجلّ) والسجود لجلالته. هكذا محمد منع بني ملّته من عبادة الشياطين والسجدة للأوثان، وحرضهم على معرفة الله والسجود له تعالى: الذي هو وحده إله، وليس بإله آخر سواه. فقد اتضح إذاً أن محمداً قد سلك في طريق الأنبياء.

ثم إن كان محمد قد علّم عن الله وكلمته وروحه فجميع الأنبياء تنبأوا عن ذلك، فمحمد إذاً قد سلك في طريق الأنبياء.

فمن لا يمدح ويكرم ويبجّل ذلك الذي يحارب من أجل الله؟ ليس بالكلام فقط بل وبالسيف أيضاً أظهر الغيرة لأجل البارئ تعالى.

وكما فعل موسى النبي في بني إسرائيل الذي صنعوا عجلاً من ذهب، وسجدوا له فقتل بالسيف وأباد جميع الذين سجدوا للعجل، هكذا محمد أيضاً صنع، لما أظهر الغيرة من أجل البارئ (سبحانه تعالى) وأحبه وكرّمه أكثر من نفسه وعشيرته وبني أمته.

والذين كانوا يتبعونه في إكرام الله ومخافته كان يمجدهم ويكرمهم ويمدحهم ويوعد لهم أيضاً الجنة والمجد والإكرام، من لدن الله في هذا العالم، وفي الآخر بالجنة.

والذين كانوا يعبدون الأصنام ويسجدون لها، كان يحاربهم وينذرهم بعذاب أليم في نار الجحيم التي بها يحترق المنافقون، وهم فيها خالدون.

وكما فعل إبراهيم، خليل الله، الذي ترك الأوثان وأبناء جنسه، وتبع الله وسجد له، فصار يعلّم عن وحدانية الله للأمم.. هكذا صنع أيضاً محمد، لما ترك سجدة الأوثان، والذين كانوا يسجدون لها من بني جنسه وغيرهم من الغرباء، فأكرم فقط ذلك الذين هو وحده إله الحق، وسجد له.

ثالثاً: العصور الوسطى

فرنسيس الأسيزي:

من أعظم القديسين في المسيحية وأقربهم إلى روحها.. اختار الفقر التام في شبابه، وجذب إليه آلاف الرهبان والراهبات..

ولد عام 1181، في مدينة أسيزي بإيطاليا، وعاش فترة الحروب الصليبية.. وكإنسان ابن بيئته، جاء إلى الشرق مع إحدى السفن المسافرة التي تقل المحاربين الصليبيين.. وقد أرست تلك الباخرة في دمياط التي كان يحاصرها الصليبيون منذ سنة.. وهناك تبيّن له أن دافع الكثيرين لم يكن روحياً أو دينياً، وإنما روح المغامرة والسلب والمتعة، وأدرك سبب فشل الحملات لأنها حملت العنف والقتل والدم.. ولما علم أن الصليبين ينوون الهجوم صباح 29 آب أنذرهم بهزيمة نكراء، لكنهم سخروا منه ومضوا في طريقهم وحلت الكارثة التي أودت بحياة تسعة آلاف محارب!!.. وشعر فرنسيس بعد ذلك أن هؤلاء الذين رفعوا الصليب شعاراً كانوا أبعد عن المسيح من المسلمين الذين جاؤوا "لردهم إلى الدين المسيحي"، فصار يبشر المحاربين بالسلام والفقر والأخوة حتى تخلى الكثيرون عن السلاح واعتنقوا الفقر الفرنسيسكاني..

وفي هذه الأثناء عقدت هدنة بين فريدريك الثاني والملك الكامل، ففكر فرنسيس في بدء حوار مع المسلمين.. واصطحب أحد الإخوة، رغم معارضة القادة العسكريين، وسارا إلى طرف المسلمين.. فاعترضوهما وأوسعوهما ضرباً فيما كان فرنسيس يهتف بأعلى صوته: سلطان.. سلطان.. فظن الجنود أنهم أمام رسولين منتدبين.. فمضوا بهما إلى المعسكر حيث أوضح فرنسيس رغبته في محاورة السلطان بشأن الإنجيل.. وكان الملك الكامل واسع الفكر، رحب الصدر فرحّب بالراهبين.. ويقال إنه دعاهما إلى الصلاة في إحدى المساجد فلم يتردد فرنسيس وقال: "إنني سأدعو هناك ربي فالله في كل مكان".

ويبدو أن اللقاء قد صحّح بعض الأفكار المسبقة الخاطئة لكل من الطرفين عن الآخر.. وتبين للملك الكامل أن المسيحيين الحقيقيين هم دعاة سلام ومحبة.. وقد أغدق الملك الهدايا على فرنسيس الذي رفضها وحث السلطان على إنفاقها على الفقراء.. وفي النهاية انصرف فرنسيس وصديقه مشيعين بحجّاب السلطان وتمنياته الطيبة لهما..

وللأسف سقطت دمياط في الخامس من تشرين الثاني 1219 واحتل الصليبيون المدينة، لكن مناظر الموت والسلب أدمت قلب فرنسيس فترك مصر ومضى إلى عكا.

بيار أبيلار (1079 - 1142م):

هو مؤلف كتاب "اللاهوت المسيحي"، حيث رفض فيه أن المسيحيَّ وحده مهيأ للخلاص، ووصف هذا الاعتقاد بأنه منافٍ للعقل فالله عنده يحب جميع البشر.
وبسبب آرائه المنفتحة فُرض عليه أن يلزم الصمت إلى الأبد، ويحجرَ نفسه في أحد الأديرة بناء على قرار باباوي. وتوفي في دير كلوني في بورغوندي.

البابا غريغوريوس السابع (1073 - 1085م):

تعززت العلاقة بين البابا غريغوريوس السابع وملك موريتانيا المسلم بتحرير بعض الأسرى وإرسال الهدايا والرسائل. ومن قوله في إحدى رسائله: "يجب علينا نحن وأنتم أن نعطي للأمم الأخرى مثالاً على محبة الله، لأننا نؤمن ونعترف بإله واحد ولو بطرق مختلفة، ونسبحه ونعبده كل يوم كخالق الأزمنة كلها وسيد هذا العالم".
وهناك أيضاً رسالة بعثها البابا غريغوريوس السابع عام 1076 إلى الأمير المسلم الناصر الذي كان يتولى الحكم في بجاية، الجزائر الحالية وقد جاء فيها: "إن الله القدير الذي يودّ أن يخلص الجميع ولا يهلك أحد لا يحبذ شيئاً فينا أكثر من أن يحب المرء قريبه بعد حب الله، وألا يصنع بالغير ما لا يريد أن يصنع الغير به.
إننا نتمنى، نحن وإياكم، هذه المحبة لذواتنا، لا سيما وأننا نؤمن ونعترف بالله الواحد، ونقرّ به، كل على طريقته الخاصة، ونمجده يومياً ونكرمه، هو خالق العالم وسيد هذا العالم".

رامون لول:

استلهم رامون لول وهو راهب فرنسيسكاني إسباني بعض كتاباته في الحب من متصوفي الأندلس كابن عربي. وهو من مواليد 1232 أيام كانت الحروب الصليبية ما تزال قائمة، وقد كتب باللغة العربية "كتاب الوثني والحكماء الثلاثة" يبين فيه كيف أن (الحكماء الثلاثة) أي اليهودي والمسيحي والمسلم أنقذوا الوثني ويعني به الكافر من يأسه في الحياة، إذ حملوا له رسالة السماء وهي أن الإنسان ليس وحيداً وأن للعالم معنى جميلاً.
ويذكر رامون أحاديث الحكماء الثلاثة الذين يريد كل منهم أن يبيّن سمو قانونه. وبعد أن أقنعوا الوثني وأعادوا له فرح الحياة ومعناها، ذهلوا من نبل صلاته وحرارتها. كما شعروا أنهم آثمون ووعوا وحدة إيمانهم العميق وخطيئة انقسامهم، وانتهوا إلى النتيجة المشتركة التي تكون الإرث الثمين لهذا الاتحاد الوثيق في الأندلس في تلك الأيام بين هذه الثقافات الثلاث: وهذه النتيجة هي أن الحرب والعذاب وروح الإيذاء تفرض على الناس الاختلاف وتمنعهم من الاتفاق على اعتقاد واحد.

ومن النقاط الجميلة أيضاَ في هذا الكتاب إعراض كل واحد منهم عن استمالة الوثني لدينه بعد أن أخذ يسألهم إلى أي دين يجب أن ينتمي.

ويقول رامون لول كخلاصة لكتابه على لسان أحد الحكماء الثلاثة دون ذكر عقيدته ليزيد انطباع التوحد والاتفاق: بما أنه ليس لنا سوى إله واحد، وخالق واحد ورب واحد، فليس عندنا إلا إيمان واحد وناموس واحد وطريقة واحد في محبة الله وإكرامه، فنحب بعضنا بعضاً ويعين بعضنا بعضاً، ولا تعود تفرقنا خلافات في الإيمان وفي الأعراف، إذ أنه بسبب هذه الاختلافات يصنع بعضنا العراقيل للبعض الآخر، ويحارب بعضنا البعض الآخر ويقتل بعضنا بعضاً. والحال أن هذه الحرب وهذا الموت وهذه العبودية أمور تمنعنا من أن نحمد الله ونجله ونكرمه على نحو ما ينبغي أن نصنعه كل أيام حياتنا". توفي رامون لول عام 1316م. فهل من مصغٍ بعد سبعة قرون!.

الكاردينال نيقولاوس الكوزاني (1401 - 1461) أسقف كوز:

له كتاب مهم في السلام بين الأديان الإبراهيمية بعنوان "سلام الإيمان" عام 1453. كما كتب شرحاً نقدياً للقرآن بعنوان "في غربلة القرآن"، الذي يهدف إلى مباشرة حوار ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين. وتواصل أسقف كوز أيضاً مع مطران سيزاره، جان سيغوفي، الذي عمل أيضاً في مجال تفسير القرآن.

يصوّر أسقف كوز موقفه العقائدي بشكل رؤيا.. يرى فيها نفسه مرتفعاً إلى السماء حيث يسأل الملائكة الله أن ينعم على البشر بدين وحيد شامل مع اختلاف الطقوس والشعائر والممارسات. وفي تلك الرؤيا يقود المسيح المباحثات التي تنتهي بالحفظ على طقوس كل أمة وشعائرها بعد المحافظة على الإيمان والسلام.. لكن نيقولاوس يفترض أيضاً إيمان الجميع بالله الواحد والله الثالوث والإيمان بالمسيح. ويعتقد أن الاختلاف الظاهري بين الأديان الثلاثة سببه امتناع الله على الإدراك، وأن لا تصور بشرياً يحمل حقيقة الله الكاملة وبالتالي فإن كل تصور إنساني هو ناقص بما فيه التصوّر المسيحي لله.

كثيرون اعتبروا الأسقف قد انزلق في هاوية التوفيقية التي تلغي الحقيقة والخصوصية.. وطبعاً الهاوية الأخرى هي التميز والانغلاق والانفصال.. ومن الصعب دوماً السير بين الهاويتين!!.

á á á

في القرن الثالث عشر، كانت بعض بيوت الدومنيكان في إسبانيا مراكز للدراسات الإسلامية. وكانت أول دراسة منتظمة للإسلام وتاريخ الحضارة الإسلامية، في نهاية القرن السادس عشر حيث بدأ تدريس اللغة العربية عام 1587 بشكل منظم في المعهد الفرنسي في باريس. وفي عام 1613، بدأت إمكانية الدراسة الجامعية للغة العربية في جامعة ليدن في هولندا. وتبعتها جامعة كمبرديج عام 1632 وأكسفورد 1634.

في القرن السابع عشر قام بادورد بوكوك بدراسات عن علم الأنساب

عند العرب وعن الديانات في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكذلك العقائد الإسلامية الأساسية "وإحياء علوم الدين" للغزالي، وجمع هذه الدراسات في كتابه "نماذج في التاريخ العربي" المكتوب باللاتينية.

كما قام جورج سايل بأول ترجمة دقيقة للقرآن إلى الإنكليزية في نهاية القرن السابع عشر معتمداً على الترجمة اللاتينية التي قام بها لودفيكو ماراتشي.

يعتبر سلفستر دوساسي (1758 - 1838) مؤسس الدراسات الإسلامية الحديثة في فرنسا، حيث نشأت مدرسة اللغات الشرقية الحية في نهاية القرن الثامن عشر. وكان الطلاب يتوافدون عليه للدراسة من جميع بلدان أوروبا ليتابعوا دراساتهم المتقدمة في العالم الإسلامي.

لكن أهم شخصية علمية أوروبية درست الإسلام وتطوره كحضارة ودين كان شخصية "أغناس جولد تسيهر" وهو يهودي هنغاري من القرن التاسع عشر. وقد تابع دراساته في الأزهر بعد تتلمذه على سلفستر دوساسي.

ومن جيله كان سنوك هورغرونيه (1857- 1936) الذي أقام في مكة لمدة سنة (1884 - 1885) كراغب في فهم الإسلام، وكتب بعدها كتابه "مكة" الذي يصف الحج والحياة في المدينة المكرمة. وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً أقام في إندونيسيا لسبع سنوات كمستشار للحكومة الهولندية المستعمرة هناك. وهناك اكتشف من جديد ما تعلمه في مكة من أن الإسلام حقيقة حية ومتغيرة.

إن هذه الفكرة القائلة بأن الإسلام أكثر من مجرد نصوص بل شيء حي في الفرد المسلم كانت فكرة جديدة في الدراسات الأوروبية، تبناها لويس ماسينيون.

في عام 1730، نشر هنري دو بولنفيلييه كتاباً عن "حياة محمد" عبّر فيه عن إعجابه البالغ بنبي الإسلام، كما كتب كل من غوته وكارليل وفكتور هيغو صفحات شهيرة في تمجيد النبي محمد.

وفي أوبرا "الاختطاف في السراي" قدم موزارت شخصية الباشا سليم، وهو رجل مسلم، في صورة رجل حكيم وكريم يرى "أن مقابلة الإساءة بالإحسان ترضي النفس رضاء أكبر من مقابلة الإساءة بالإساءة" ويطلق الباشا سراح أسيرته كونستانس في نهاية الأوبرا مما يجعل الجمهور يحيّي بإعجاب سمو روحه.

á á á

وضع وليم ميور (1819 - 1905) كتابه الشهير "حياة محمد" الذي بقي المرجع الرئيسي لسنوات طويلة رغم وجود عدد من الصفات السيئة. وفي القرن التاسع عشر كان إرنست رينان (1823 - 1892) أحد أهم المفكرين الأوروبيين الذين درسوا الإسلام، ويخبر رينان كيف فقد إيمانه الكاثوليكي مع احتفاظه بالبحث الصادق عن

الحقيقة، وقد اتبع مبدأ أو علم فقه اللغة في بحثه، وكرس حياته لهذا وتعمق في فيلولوجيا اللغات السامية وتاريخ اليهود والمسيحية، ودرس فلسفة ابن رشد، واستخلص من دراساته أن طبيعة اللغة تحدد الحضارة. وأن الروح السامية التي أنتجت الوحدانية الإلهية في الأديان الثلاثة قد أقفلت الدماغ البشري في وجه أية فكرة بارعة، وأي شعور رفيع، وكل بحث عقلاني.

وفي محاضرة سلبية حول "الإسلام والعلم" يقول: "كل من زار الشرق أو أفريقيا يُجابه بنوع من الحلقة الحديدية التي تسجن رأس المؤمن، جاعلة إياه مغلقاً تماماً عن استيعاب العلم، وغير قادر على أن ينفتح على أي شيء جديد". طبعاً هذه النظرة المتطرفة جوبهت بردود متعددة منها مقالة لجمال الدين الأفغاني. وقد تكون هذه الاستفزازات سبباً في حركة تجديد الإسلام التي بدأت في تلك العقود على أيدي جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

في القرن التاسع عشر كان ف.د. موريس أحد كبار اللاهوتيين الإنكليز وشغل منصب أستاذ اللاهوت في معهد كينغ في لندن، وكان يرى أن نجاح الرسالة المحمدية لم تكن بمجرد قوة الجيش وإنما إيمان المسلمين، كذلك شخصية النبي وقوة إيمانه الراسخ.

ويقول موريس: إن الإسلام قد أعاد إلى العالم الشعور بإرادة الألوهية الفائقة القدرة، التي يجب أن تخضع لها كل إرادات البشر.

بالطبع كان موريس والمفكرون الآخرون يرون في الإسلام القرآن والنبي محمداً وفتوحات المسلمين الأوائل، وبقيت هذه الفكرة هي السائدة حتى القرن التاسع عشر.

á á á

الباب الخامس: مواقف مسيحية إيجابية من الإسلام في العصور الحديثة

"إن كل حوار يقوم على إخصاب متبادل لا على تسامح أبوي".

"لقد أرسلت - يا ربُّ- أنبياء لكل الشعوب، ذلك أنه ما من مخلوق يستطيع أن يفهم معنى لانهائتيك".

نيقولاوس الكوزاني - أسقف كوز
القرن الثالث عشر

شارل دو فوكو

أفرد قسماً كبيراً في هذا الكتاب عن شارل دو فوكو والجماعات المسيحية التي تعيش الآن في جميع أنحاء العالم مستلهمة أفكاره وطريقة حياته.

ولد شارل عام 1858 في مدينة ستراسبورغ الفرنسية، وهناك نشأ وترعرع. كان من عائلة غنيّة تنتمي إلى طبقة النبلاء، وتشتهر بعراقتها العسكرية الوطيدة. توفيت أمه وهو في السادسة من عمره، ثم توفّي والده بعد بضعة أشهر، فاختبر باكراً قساوة الحياة. أخذه جده عنده واعتنى بتربيته، وفي الثانية عشرة من عمره اضطر إلى الهجرة إلى مدينة نانسي بسبب الحرب بين فرنسا وألمانيا عام 1870. اطلع في سني مراهقته على التيار المعروف آنذاك بشكه في أمور الدين وبالفلسفة الوصفية التي ترتكز على العلم كجواب تام على الأسئلة الكثيرة التي يطرحها البشر.. وشيئاً فشيئاً فقَدَ شارل الإيمان.

في سن العشرين تخّرج شارل من المدرسة العسكرية المختصة بتنشئة الضباط، وانخرط في الجيش مدة 3 سنوات. توفّي جده في هذه الفترة فلم يعد هناك من شيء يقف في وجهه ويضبطه، وألقى بنفسه في اللهو وحياة العبث.

أرسل شارل عام 1881 وهو ضابط في الثالثة والعشرين من عمره إلى بلدة ستيف شمال الجزائر في مهمة عسكرية. ووصل إلى هناك برفقة امرأة شابة عرّفها في البداية على زملائه كزوجة له، لكن سرعان ما تبين أن هناك علاقة غير شرعية بينهما فأرغمه رؤساؤه على قطع العلاقة لكنه رفض الانصياع للأوامر، حتى صدرت بحقه عقوبة تسريحه من السلك العسكري. فقرر العودة حالاً إلى فرنسا. لكن بعد بضعة أشهر سمع نبأ انتفاضة في جنوب الجزائر، فطلب إعادته للجيش ليساهم في المغامرة. وهناك بدأت الأرجاء الصحراوية الواسعة تجتذبه أكثر فأكثر وراحت رمال أفريقيا تستهويه.

بعد انتهاء الحملة العسكرية قرّر شارل أن يترك الجيش نهائياً ويقوم باستكشاف في بلاد المغرب. انطوت رحلته على مخاطر جمة لأن مملكة المغرب كانت مغلقة وأرضها محرمة على الأوروبيين. واضطر أن يتخذ هوية مزيفة بمظهر يهودي فقير محتقر!! ليقوم بمشروعه.

وخلال السنة التي أمضاها هناك اختبر حالة الفقر والوضاعة الاجتماعية، وكان اختباراً فريداً انطبع في قلبه بشكل عميق. إن كونه مسافراً وحيداً عرّضه للقتل، وقد عرفه مستضيفوه المسلمون واليهود مرتين بالرغم من تنكره لكنهم أخلوا سبيله لتقليدهم في تكريم الضيف.. وإن اختبار حسن الضيافة هذا انطبع في أعماق قلبه.

أما المشهد الأكثر تأثيراً عليه فكان مشاهدة المسلمين يؤدون الصلاة،

يقول في رسالة إلى صديقه هنري دي كاستر: "لقد ولّد الإسلام فيّ انقلاباً عميقاً.. إن رؤية هذا الإيمان وهذه النفوس التي تعيش باستمرار في حضرة الله جعلتني أرى أن هناك شيئاً أعظم وأحق من الاهتمامات الدنيوية الباطلة، فأخذت أطلع على الدين الإسلامي، ثم على العهد القديم".

إبان عام 1885، أقام ذلك المستكشف الشاب في مدينة الجزائر لينهي كتابه مذكرات رحلته. وعندما عاد إلى فرنسا، كانت رحلته للمغرب قد أنضجته كثيراً وأعطته شهرة واسعة، كما أن عائلته استقبلته بمحبة وترحاب فشعر بنفسه يعود إلى حضن الله والعائلة.

من كتاباته في هذه الفترة إلى صديقه هنري بخصوص الإسلام: "لقد كنت أرى تلك البرانس أو العباءات الواسعة تنحني بروعة، في حركة واحدة، بحسب الركعات القانونية، وكنت أسمع أصداء صلاة تردد بنبرة أعلى ابتهال "الله أكبر" فكان يجتاحني قلق شديد هو مزيج من الخزي والغضب.. ووددت أن أقول لهم بأني أيضاً أومن وأعرف أن أصلي وأن أسجد".

في هذه المرحلة بدأ المستكشف الشاب يبحث عن شيء جديد.. راح يفتش عن الحقيقة بصدق وقد ساعده الأب هوفلان، كاهن العائلة، في ذلك.. وفي إحدى مواعظه قال: "أخذ يسوع المكان الأخير حتى أنه لم يستطع أحدٌ أن يسلبه منه أبداً"، فانطبع هذا الكلام في قلبه للأبد. وعندما اقترح عليه الحج إلى الأراضي المقدسة لم يتردد في ذلك وسافر عام 1888 إلى فلسطين حيث زار بيت لحم والناصرة والقدس وعاش هناك "الحياة المتواضعة والخفية التي عاشها يسوع كعامل في الناصرة"..

بدأ التحول الكبير في حياة شارل يبلور قراراته المستقبلية فقرر في مطلع عام 1890 أن يتوجه إلى دير سيدة الثلوج للآباء الترابيست، وبعد بضعة أشهر أرسل إلى دير آخر في شمال سوريا.. وفي أحد الأيام أرسل ليمضي الليل بالقرب من رجل قد توفّي في قرية صغيرة مجاورة للدير، وكان من عائلة فقيرة جداً مما حمله على التساؤل: "أي فرق بين هذا البيت وبين مساكن الدير.. إن عينّي ترنوان إلى الناصرة".. وصار يتوق إلى حياة فقيرة حقاً.. وبعد سنين من حياة الرهبنة قرر ترك الدير ليعيش حياة بسيطة وفقيرة وقريبة من الناس.

عمل شارل كخادم في دير الراهبات الكلاريان في الناصرة وسكن هناك في كوخ كانت توضع فيه الأدوات الزراعية.. ثم عاد في منتصف عام 1900 إلى فرنسا ليقوم بخبرة روحية ويُرسم كاهناً، وقرر بعدها أن يبني منسكة في بني عبّاس في الجزائر، وكان يردّد "أريد أن أعوّد كل سكان المنطقة من مسيحيين ومسلمين ويهود على أن ينظروا إليّ كأخ لهم.. أخ الجميع"..

وفي هذه الأجواء خلّص شارل بضعة عبيد من سيطرة أسيادهم بدفعه الفدية عنهم. وقد كتب: "ليس لنا أن نكون كلاباً لا تنبح وعسَساً خرساناً..

علينا أن نرفع أصواتنا عالياً عندما نشهد الشر أمامنا"، ومع الوقت بدأت آفاق جديدة تنفتح أمام شارل للمضي إلى العمق أكثر.. إلى بلاد الطوارق.. في الهوغّار.

لقد كتب له صديقه القائد لابرين بإسهاب عن هذا الشعب الذي يتميّز بأخلاق نبيلة، موضحاً له كل احتياجاته وحاثاً إياه على المضيّ إلى تلك المنطقة، وقد استشهد في رسالته بموقف إنساني رائع أقدمت عليه إحدى نساء الطوارق أثناء معركة دارت بينهم وبين الفرنسيين، حيث منعت أبناء قبيلتها من القضاء على الجرحى الفرنسيين، واعتنت بهم في بيتها وسعت في إعادتهم إلى ثكنتهم بعد شفائهم!!

تأثر شارل جداً من كتابات صديقه، وقرّر أن يتوّجه إلى هناك. وبعد خمسة أشهر من السفر المتواصل والمرهق وصل إلى الهوغار، وعلى الفور شعر بانجذاب كبير واستقر في تمنراست.. وأخذ يتعمق بلغة الطوارق ويهتم بثقافتهم ونسخ خلال سنوات عديدة القصائد التي تغنّى في المساء حول النار، والتي تحمل في طياتها تاريخ هذا الشعب وروحه العميقة.. وفي ذلك الوقت كانت المنطقة تتعرض لجفاف مخيف، وانتشرت المجاعة في أرجاء البلاد كلها فشارك شارل بكل ما لديه حتى آخر كسرة من الخبز، إلى أن نفد ما لديه وغلبه المرض فشعر بنفسه متروكاً وبعزلة كبيرة.. وفي تلك اللحظة شعر بمحبة الطوارق له حيث عملوا جهدهم لتقديم بعض الحليب له وصارت علاقة الصداقة بينهم تتوطد أعمق وأعمق..

وفي زمن كان من المعتاد فيه ترديد هذه المقولة "لا خلاص خارج الكنيسة"، كتب شارل كلمات قوية للغاية: "لست هنا البتة لأهدي شعب الطوارق، إنما لكي أحاول أن أفهمهم.. إنني متأكد بأن الله سيستقبل في السماء كل من عاش حياة صالحة ومستقيمة، دون أن يتحتم عليه أن يكون مسيحياً كاثوليكياً ولاتيني المذهب.. فالطوارق مسلمون وأنا مقتنع بأن الله سيرحب بنا جميعاً فيما إذا كنا نستحق ذلك"..

في عام 1910 باشر شارل ببناء منسكة أخرى في جبال الهوغار العالية على هضبة الأسكريم، وكانت علاقته مع الطوارق تتعمق..

وفي منتصف عام 1914 اندلعت الحرب بين فرنسا وألمانيا واضطرت القوات الفرنسية أن تخفّف من تواجدها في الجزائر، فبرزت حركة تمرد محلية وعصابات مسلحة تهدد سلامة جميع سكان المنطقة. وفي هذه الأجواء المشحونة بات شارل وحيداً في تمنراست معرضاً لكثير من الأخطار.. وقد نصحه الضباط الفرنسيون التابعون للثكنة المجاورة بالالتحاق بهم، لكنه رفض لأنه يريد البقاء مع هذه الحفنة من الطوراق التي ترسخت عرى الصداقة بينه وبينهم.. وفي ساعة الخطر لم يشأ أن يتركهم.. وهكذا صار ارتباطه الإنساني أعمق من كل نزعة قومية..

في عام 1916 بدأ الوضع يتفاقم ويزداد عدم الأمان.. فصمم شارل أن ينقل مسكنه إلى مسكن آخر يبنيه بشكل برج صغير حتى يستطيع أهل تمنراست الاختباء في حال وصول الغزاة.. وكان قد وضع جنود من الثكنة

الفرنسية المجاورة في هذا البرج بالذات أسلحة لتوزيعها على رجال الطوارق المكلفين بحماية تمنراست!!

وفي مطلع آخر شهر من عام 1916 عند غروب الشمس، وصل عدد من الطوارق العصاة مسرعين الخطى نحو البرج عازمين على نهبه واحتجاز ناسكه كرهينة.. وكان بينهم شاب سبق أن عرفه شارل فلم يتردد بفتح الباب.. بعدها قبضوا عليه وسجنوه خارجاً وربطوه بالحبال وجعلوه تحت حراسة صبي في الخامسة عشرة من عمره.. لكن الوصول المفاجئ لرجلين من سعاة البريد خلق لحظة ارتباك فقد فيها الصبي رشده، وأطلق النار على سجينه وقتله على الفور.. وانتهت حياة رجل بدأ غنياً متغطرساً ليتدرج في الفقر ومحبة الآخرين والانفتاح عليهم حتى دفع الثمن حياته.

يقول شارل في صلاته: أبتِ.. إني أسلّم لك ذاتي فافعل بي ما تشاء، ومهما فعلت بي فأنا شاكر لك.. إني مستعد لكل شيء، وأرتضي بكل شيء. ليس لي رغبة أخرى يا إلهي سوى أن تكمل فيّ إرادتك وفي جميع خلائقك..

إني أستودع روحي بين يديك، وأهبها لك يا إلهي، بكل ما في قلبي من الحب..

لأني أحبك.. ولأن الحب يتطلب مني، أن أهب نفسي. أن أودعها بين يديك، من دون ما قياس وبثقة لا حد لها.. لأنك أبي!!.

وأنا إذ أردّد هذه الصلاة أتذكر رابعة العدوية، المتصوفة المسلمة تقول صلاتها: ربي.. إن توسلت إليك خوفاً من الجحيم فزجني في نارها، وإن ابتهلت إليك طمعاً في الجنة فأغلق دوني بابها..

ولكن إن دعوتك حباُ بك فلا تحرمني بهاءك الأبدي.. يا الله، بدون ذكراك لا أستطيع أن أحيا في العالم، وكيف يمكنني الصمود إزاء المستقبل بدون رؤياك.. يا رب تنهّدي ليس بشيء أمامك إذ أنا غريبة في بلادك ووحيدة وسط عبادك.

á á á

أما كيف رأى المسلمون حياة شارل فإنني أستعين بكتاب لعلي مراد باللغة الإنكليزية، ترجمة علي مقلّد (باللغة العربية).

يقول علي: إن المجنون بالله هو قبل كل شيء إنسان.. ذلك هو شارل دو فوكو، إنسان تتأكله نار داخلية هي بالنسبة إليه محبة يسوع، والرغبة في تقليده.. ثم إن هذا الكائن لم ينفك بعد إنساناً، أي فرنسياً من أواخر القرن التاسع عشر، مطبوعاً بتربيته، وبثقافة عصره، وكذلك بتكوينه العسكري، وزيادة على ذلك، محاطاً بالإطار الاستعماري الذي يترتب عليه التعامل معه..

وفي موضع آخر: "إن الأخ الكوني قد بذل جداً متفانياً في خدمة الصحراويين الذين كانوا يأتون لرؤيته، أو الذين كانوا يستطيعون لقاءه أثناء

دوراته وزياراته عبر الواحات.. لقد اهتم بالبؤساء والمرضى، موزعاً الأغذية والخدمات والأدوية".

وفي موضع ثالث: "بفعل فضيلة مثله ساهم شارل دي فوكو، في أعين المسلمين، بتقويم سلم القيم في حقيقة معناه.. فلا تتجلى التقوى فقط بحياة التأمل أو بالالتزام بالطقوس.. إنها في أساسها فاعلة ومشعة، خلاقة للسعادة وملهمة الخير للبشر".

هذه النقطة ثابتة ومستقرة في العقيدة الإسلامية. وبهذا الشأن ينذر القرآن بصورة قاطعة "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب.." (2 - 177). وبعدها يأتي تفضيل الأعمال الصالحة الداخلة في التعريف القرآني للبر الحق: الإحسان إلى الفقير واليتيم وابن السبيل، وإطلاق الأسرى، والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء "أولئك"، يتابع القرآن "الذين صدقوا وأولئك هم المتقون" (2 - 178).

وأيضاً: "إن شارل دي فوكو استطاع أن يكسب ثقة واحترام الطوارق.. هذا الشعب الأبي القاسي والصعب المستعصي على الموالفة. إن سهولة مجانبته، ولطف كلامه، وبره، وتقواه قد فتحت له الكثير من القلوب.. واستقامته وحسه بالعدالة قد مكنته أن يؤخذ في بعض الأحيان كحكم. وعندما نعرف السلطان الأدبي والتأثير الاجتماعي الذي يمكن للحكم أن يمارسه في المجتمع البدوي التقليدي، ندرك إلى أي حد دخل المرابط المسيحي في الوسط المسلم المجاور له.

وحين موته، يوثق الكاتب رسالة زعيم الطوارق موسى آغامستان إلى أخت شارل حيث يقول: منذ أن علمت بموت صديقنا، أخيك شارل، غامت عيناي، وكل شيء قاتم في وجهي، لقد بكيت وذرفت الكثير من الدموع، وإني في حداد عميق".

á á á

بعد موت شارل دو فوكو بنحو 16 عاماً شعر الأب "رينيه فوايوم" وهو فرنسي الجنسية، مع أربعة أصدقاء، بالحاجة للحياة على نمط هذا الراهب الغريب الدعوة، الذي ذهب إلى البعيد إلى الصحراء.. إلى الطوارق.. فقام بتأسيس أخوة يسوع الصغار الذين انطلقوا من الصحراء الجزائرية إلى كافة أنحاء العالم ويعدّون اليوم حوالي 300 أخاً أو راهباً يعيشون حياة بسيطة فقيرة مع الناس المهشمين في أوروبا ومع المسلمين في الوطن العربي وباكستان وإيران..

كذلك فعلت الأخت مادلين فقامت بتأسيس جماعة رهبانية من الأخوات من أجل العرب الرحل المسلمين خصوصاً الأكثر فقراً وإهمالاً، وانطلقت معهن من صحراء الجزائر إلى الشرق العربي كله ثم العالم أجمع (حالياً الرهبنة موجودة في 68 بلداً، وعدد الأخوات 1250 أختاً من 67 جنسية).

عندما أتكلم عن هذه الجماعات الرجالية والنسائية المنتشرة في الوطن العربي بتواضع وبساطة، والمتغلغلة في الحارات الشعبية قريباً من المسلمين خصوصاً، أقول عندما أتكلم عنها أشعر أن التيار المنفتح في كنيسة اليوم يدعو للتعزية وهو أقوى من طوفان الحقد والتباعد وإلغاء الأخر..

لقد عرفت الكثير من الأخوة والأخوات في سوريا ولبنان وهم أمثلة حية للحب الأخوي الإنساني دون حدود. أذكر منهم:

إيف: رجل فرنسي الأصل، أحد الأخوة، يقيم في دمشق منذ سنوات عديدة ويعمل في قرية SOS للأطفال. يقوم بدور البستاني (إيماناً منه بالعمل كالبسطاء وكسب المعيشة بعرق الجبين) ومن خلال تواجده هناك يقيم علاقات كثيرة مع الأطفال والمسؤولين المسلمين، ويدعى من الجميع "العم إيف". التقيت به عدة مرات وزرته في البيت والعمل. وهو يحبّ المسلمين بعمق ويحترمهم ويقدرهم ولديه صداقات رائعة معهم. علمني إيف كيف تكون الصداقة حقيقية مع المسلمين.

باولا: إيطالية الأصل، من أخوات يسوع الصغيرات.. تدهشني ابتسامتها الدائمة وطفولة ملامحها. عملت لسنوات في المبّرة الإسلامية في حلب - سورية. وأقامت صداقات جميلة مع المعوقين والمسؤولين وأغلبهم - إن لم يكن جميعهم - من المسلمين. علمتني باولا الكثير من الاحترام والمحبة للمسلمين.

بطرس: طبيب من جماعة أخوة يسوع الصغار، يعيش في قرية البرص في إيران، وهو يساعدهم في التغلب على صعوبات مرضهم (مثلاً صنع أحذية طبية خاصة للمرضى الذين يفقدون أصابعهم وأحياناً أقدامهم نتيجة الفقدان الحسي والعصبي). يعيش هذا الأخ بتواضع وانسحاق نادرين، وأنا لم أتعرف عليه شخصياً لكنني تابعت أخباره لفترة طويلة.

الرهبان السبعة

ليس الهدف من هذا القسم إثارة الحقد على الجماعات الإسلامية التي قتلت سبعة رهبان مسالمين في الجزائر منذ عدة أعوام، وليس أيضاً إظهار بطولة هؤلاء النساك ووحشية الناس المحيطين بهم، لأن ذلك عكس النية الإيجابية لهذا الكتاب وضد رغبتي في فتح آفاق للمسلمين والمسيحيين ليروا الجانب الناصع في الإسلام، وتحريره من الصفات الإرهابية والعنيفة التي بدأت تلصق به في السنوات الأخيرة. كما أن الشعب الجزائري المسلم قد قدم حوالي 100 ألف من أبنائه ضحايا لهذه الحركات الإرهابية.

هذا القسم هو لفهم التفكير العميق وراء حياة الرهبان في الشرق، خصوصاً في المناطق المسلمة. ويجب أن لا نظن أن هؤلاء الرجال انتحاريون أو يطلبون الاستشهاد من أجل أفكارهم أو دينهم، بل هم بكل بساطة (كما تدل على ذلك كل الكتب والمقالات التي كتبت عنهم) أشخاص أحبوا أن يبقوا قرب أصدقائهم الذين شاركوهم حياتهم لسنوات طويلة، ولم يتخلوا عنهم ساعة الشدة حين ازداد التوتر بين الناس والجماعات المسلحة الإسلامية.

الرهبان السبعة:

يوم الخميس في 30 أيار 1996 حوالي الظهر، شاهد أحد الفلاحين ثلاثة رؤوس بشرية مقطوعة ومعلقة بواسطة أسلاك على أوتاد السياج المحيط بأرضه في منطقة المدية في الجزائر.. وكان رأس رابع ملقى على الأرض.. أصيب الفلاح بالرعب والذهول.. وحين حضر المحققون إلى المكان وجدوا بين النباتات العالية رأسين آخرين داخل أكياس سوداء من البلاستيك ملقاة في الحفرة الموازية للطريق العامة.. وبعد حين عثر على رأس سابع في مجرى جاف لنهر صغير بالقرب من ذلك..كانت الرؤوس السبعة في حالة من التحلل بحيث أن خمسة منها غدت بدون لحم.. لكن بطاقات الهوية الموجودة في كيس صغير بالقرب من الرؤوس أثبتت الشخصيات المقتولة.

شيء عن التاريخ:

إن حملة الفاتح العربي عقبة بن نافع والحملات التالية لم تؤدِّ إلى محو الوجود المسيحي في أفريقية الشمالية على نحو كامل.. فقد بقيت الكنيسة هناك تارة تحت ضغط شديد كما حدث في نهايات القرن الثاني عشر، وتارة أخرى كمتسلطة ومبشرة وداعية للتنصير الإكراهي خاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر 1830.

بعد استقلال الجزائر بدأت الكنيسة بالانحسار.. وفي بداية التسعينات وإثر الأحداث الدموية والقتل والاختطاف لآلاف الجزائريين والأجانب من قبل الفئات الإسلامية المسلحة.. خرج كثير من الفرنسيين والرعايا الأجنبية وصار عدد المسيحيين ضئيلاً جداً.. وعندما ذُبح إثنا عشر كرواتياً في مدينة تيمزقيدة، أحس الرهبان الساكنون في دير نوتردام الأطلس، أن الخطر محدق بهم.. ورغم أن علاقتهم بالجيران في تبحرين كانت رائعة وعميقة إلاّ أنهم اجتمعوا ليقرروا البقاء أو الخروج.. واقترعوا بشكل سري واتفقوا بالإجماع على البقاء مع أصدقائهم في لحظات الخطر.

كان الأخ آميديه، وهو راهب عجوز، يدعى "الشيخ حمادة". والأخ لوك، الطبيب العجوز، يعالج الكثير من المرضى هناك، وكان تمثال العذراء مريم يسهر على الأطلس وقد كتب تحته "صلي لأجلنا ولأجل المسلمين".

الاختطاف لمدة ستة وخمسين يوماً:

في الساعة الواحدة صباحاً من 27 آذار 1996 دخلت مجموعة من المسلحين إلى الدير واختطفوا سبعة رهبان وسرعان ما انتشر الخبر.. وبدأت محاولات شتى من جميع الجهات للتوسط لإنقاذهم، مثل الدعوة والنداء الموجهين من إبراهيم يونسي "عضو الجبهة الإسلامية للإنقاذ" التي قال فيها: "إن الخليفة الأول للنبي، أبو بكر الصديق، أوصى المحاربين المسلمين بأن يتحاشوا تلطيخ انتصارهم بدماء النساء والأطفال، والعجزة. وهذه الوصية ترتفع إلى مستوى التحريم. إن قتل الأبرياء، وقتل أولئك الذين لا يقاتلون عمل محرّم... وسوف تلتقون برجال من أهل الكتاب يعيشون في الأديرة ويخدمون الله بالعبادة، دعوهم في حالهم. لا تقتلوهم ولا تهدموا ديرهم".

بعد حوالي شهر من الاختطاف صدر عن الجماعة الإسلامية المسلحة بيان في جريدة الحياة تعلن فيه عن مسؤوليتها، وأن رجال الدين هم أحياء، وأن الجماعة تريد التحاور مع الرئيس جاك شيراك بخصوص مبادلة المعتقلين.

وفي تهديد آخر طلب البيان: إذا حررتم نحرّر، وإذا رفضتم نذبح".. وبعد ستة وخمسين يوماً دفع الرهبان السبعة ثمن قرارهم بالبقاء للحياة مع أخوتهم وأصدقائهم والتعايش مع أبناء تلك المدينة.

الأب كريستيان:

في قصة مؤثرة رواها كريستيان لأصدقائه وأهله نفهم الآن ومن بعيد ما كان يحصل في تبحرين بين الرهبان وأخوتهم المسلمين. فحين كان كريستيان يبحث عن دعوته لخدمة الله والبشر كان يتجول في المنطقة هناك، قبل أن يصبح راهباً، مع رجل اسمه محمد، متزوج ولديه عشرة أولاد. ويبدو أنهما ابتعدا قليلاً، وإذا بمجموعة من المسلحين تخرج لهما وتشهر الأسلحة.. عندما رأى محمد أنهم سيقتلون صديقه كريستيان تقدم

ووقف أمامهم حامياً وراءه كريستيان، وتكلم مع المسلحين وأخبرهم أنه رجل مسالم ولا يحمل السلاح ولا يريد الشر للآخرين.. مضى الرجال المسلحون يومها ولكن محمداً وجد مقتولاً في اليوم التالي، مقطوع الرأس قرب بيته.. تألم كريستيان وشعر أن محمداً قدم له حياته عربون صداقة ومحبة.. وقرر بعد ذلك أن يعيش في البلد الذي أعطاه فرصة للحياة من جديد، من أجل الناس الذين على شاكلة محمد، يقدمون حياتهم للآخرين.

رباط السلام:

تأسس عام 1979، وهو مجموعة صغيرة تضم الرهبان وأصدقاء الدير ومسلمين من أخوية صوفية في الجوار. وهم يجتمعون للتأمل وتبادل الآراء، والصلاة. وكان كريستيان روح الفريق. وهو قد تعمق في اللغة العربية والدين الإسلامي وركز انتباه على روحانية الشعب وتدينه.. وكان يقول إنه "مؤمن بين المؤمنين" كما قدم فكرة "الإسلام الباطني" المنفتحة على الآخرين.

وكان يقرأ كتاباً عن الروحانية الإسلامية من تأليف الشيخ خالد بن تونس.. كما كان يستشهد بآيات قرآنية في أحاديثه وكتاباته.. وكانت العلاقة بين أهل الدير وسكان تبحرين جميلة ووطيدة.. فمثلاً في بداية التسعينات حين قرّر المسلمون في تبحرين بناء مسجد، قدم الرهبان قاعة من الدير لكي تستخدم لتأدية الصلوات الخمس حتى الانتهاء من بناء المسجد، فكان السكان يصلّون في تلك القاعة والمؤذن يرفع الأذان في مواعيدها الخمسة.

أصدقاء لشارل دي فوكو:

كتب روبير ماسون في كتابه "تبحرين: ساهرو الأطلس": "لقد أراد ناسك الصحراء أن يكون أخاً كونياً لجميع البشر... ورغم جميع الفوارق بين الأوضاع التاريخية، فإن رهبان تبحرين تابعوا المسيرة ذاتها".

هذا الخط الروحي الذين ابتدأ في بداية القرن العشرين ونما بخفوت لكن بقوة، وتأصل في قلب الكنيسة وارتوى بالدم والصدق، ما يزال يحث الكثيرين على الانفتاح العميق على الآخرين عارفين الثمن ومرحبين به في سبيل الحب.

يقول القديس أغوسطينوس وهو جزائري مسيحي: "أياً كان الخطر ينبغي للأساقفة البقاء في وظائفهم، يجب عليهم ألاّ يتهربوا وألاّ يتخلوا عن المؤمنين".

ويختصر كريستيان معنى وجوده في أرض الإسلام بقوله: "ينبغي الدخول في محور الآخر، الآخر يعنيني، وبقدر ما هو آخر، غريب، مسلم، بقدر ما هو أخي. اختلافه ذو معنى بالنسبة لي، وفي ما أنا عليه. هذا

الاختلاف يعطي قوة لعلاقاتنا المتبادلة. وكذلك لبحثنا المشترك عن وحدانية في الله.

دُفن ما تبقى من أجساد الرهبان في أرض الدير يوم الثلاثاء 4 حزيران 1996.

á á á

أضيف هنا بعض مقاطع من حوار مع أسقف الكنيسة في الجزائر المنسنيور هنري تيسييه نشرته جريدة البيان في 18 أيار 2002، لإيضاح صورة الكنيسة في الجزائر هذه الأيام.

سؤال: بمجرد تصاعد سلسلة اغتيالات الرهبان والراهبات تلقيتم تعليمات بضرورة مغادرة أرض الوطن؟!

* في الحقيقة لم نتلقَ دعوة بمغادرة أرض الوطن من الفاتيكان أي من البابا، بل العكس فقد ألح على ضرورة بقائنا في الجزائر، أما الذين طلبوا منا المغادرة فهم الرؤساء الروحيون للمجموعات الرهبانية. لكن رهبان وراهبات الجزائر رفضوا ذلك. وفي رسائلهم التي يشرحون فيها الدوافع التي جعلتهم يختارون البقاء، ركزوا على الروابط وعلاقات الصداقة مع الجزائريين، والوفاء للناس في الأحياء التي يعيشون فيها.

أتذكرون الرهبان السبعة الذين اغتيلوا في تبحرين قرب المدية؟ عندما زارتهم الجماعات المسلحة للمرة الأولى فكروا في الانسحاب، خوفاً من أن يطلب هؤلاء منهم المساعدة، لكنهم لم يغادروا المنطقة عندما فكروا في الجيران الذين تربطهم علاقات متينة بهم.

إن أبرشية الجزائر كان فيها 75 فرداً، اغتيل منهم 11 وغادر البلد بعض الشيوخ والمسنات، وبقينا 55 فرداً.

سؤال: كيف تصفون بقاءكم، أهو نوع من التحدي؟

* لقد جئنا هنا لمشاطرة الجزائريين حياتهم، والانسحاب في بداية الأزمة سيكون خيانة لدعوتنا التي نؤمن بها، فالدعوة تأتي من عند الله وتدفعنا للعيش مع إخوان ليسوا مسيحيين، كدليل على أن الإخاء يجب أن يكون عالمياً.

سؤال: كيف تتصورون الدور الذي يمكن أن تلعبه الكنيسة في هذه الفترة بالذات؟

*** أكثرية الجزائريين هم مسلمون، وبوجودنا نمنحهم إمكانية العمل المشترك مع أشخاص ينتمون إلى آفاق مختلفة على المستوى الديني والثقافي. كذلك بعد أحداث 11 سبتمبر، أصبح علينا أن نجعل الغرب يفهم بأن إعلان الحرب على الأمة الإسلامية خطأ وخطر، وأن عليهم أن يميزوا بين الجماعات الصغيرة التي مارست الإرهاب وبين الشعوب التي تألمت من الإرهاب قبل أن يتألم منه الغرب.**

سؤال: شهدنا فترة تقارب بين الكنيسة والساسة الجزائريين من خلال زيارة الرئيس بوتفليقة لروما ولقائه مع يوحنا بولس الثاني.. ما هي الأحوال اليوم؟

* الحقيقة إن الحوار المسيحي الإسلامي في الجزائر هو حوار يومي في الميدان، خدمة لقضايا إنسانية (أذكر منها التكفل بالأطفال المعوقين، وتكوين الطلبة..)، وفي الحوار النظري (فقد تسلمت دعوة من معهد أصول الدين لجامعة الجزائر للمشاركة خلال شهر نيسان في ملتقى حول الإسلام والحضارات الأخرى).

سؤال: هل أصبحت الدعاية كما تسمونها أو التنصير كما يسمى هنا فكرة قديمة؟

* في القرن الماضي عندما تزامن وجود الكنيسة مع الوجود الفرنسي اعتبر الكثيرون ذلك خطراً علي الإسلام، لكنهم اكتشفوا فيما بعد أن عدد المسلمين لم يتغير وقرروا العمل سوياً، لأن ذلك يزيدنا إيماناً وتمسكاً بإيماننا. وإن تأسيس جماعة الآباء البيض من طرف الكاردينال لافيجري الذي لا يذكر عادة بخير في الجزائر، كان يهدف إلى اعتناء الكنيسة بكافة الناس وليس بالمسيحيين فقط، وقد منعهم في البداية من الارتباط بالكنائس وطلب منهم العيش في الأحياء الشعبية، كما منعهم في البداية على الأقل من تنصير الجزائريين، والنصوص واضحة في ذلك.. لكن فيما بعد اتخذ البعض من الآباء البيض رمزاً للتنصير في الجزائر، ونحن نعلم أن مئات الآلاف من الجزائريين عرفوا وعملوا مع الآباء والأخوات البيض وهم ما يزالون مسلمين.

á á á

جماعة دير مار موسى الحبشي

يقع دير مار موسى الحبشي قرب مدينة النبك شمال دمشق - سوريا، وهو دير قديم يعود إلى عصر الرومان، حين شُيّد ليكون قلعة وبرجاً لمراقبة الطريق القديمة التي كانت تسلكها القوافل بين دمشق وتدمر. وفي عهد المسيحية سكنه عدد من الرهبان من بينهم موسى الآتي من بلاد الحبشة. وإن الكنيسة الحالية تعود إلى سنة 1058م وداخلها نجد رسومات جدارية جميلة تعود إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر على ثلاث طبقات. بقي الدير مسكوناً حتى عام 1831 حيث هجر لمدة 151 عاماً وعاد إلى الحياة مع مجيء راهب يسوعي إيطالي الجنسية قرر إعادة ترميمه ثم السكن فيه، وتكوين جماعة روحية رهبانية هدفها استعادة المعنى المطلق للحياة الروحية في الصلاة والعبادة المجانية، وممارسة الضيافة الإبراهيمية لجميع سكان المنطقة المسيحيين والمسلمين، وإنعاش البيئة الصحراوية الجافة بالزراعة وتربية الحيوانات.

بعد حوالي عشرين عاماً من العمل تحولت كومة الحجارة والبناء المهدم إلى دير واسع، وأضيف إلى البناء الأساسي بناءان آخران للاستقبال والدعوة الرهبانية النسائية.

اسم الراهب الإيطالي باولو دي لويلو، ويحب أن يُدعى بالراهب بولص وقد أتم دراساته اللاهوتية مختصاً بالإسلاميات والحوار مع الأديان خاصة الدين الإسلامي.

يمارس الراهب بولص إيمانه بالمسيح عن طريق المحبة الأخوية للمسلمين محلياً (وهم الأكثرية الغالبة في مدينة النبك)، وعالمياً عن طريق الحوار المسيحي - الإسلامي والمحاضرات واللقاءات، وتنشئة الشبيبة على السلام والتعاون والتعايش المشترك..

لقد تعرفت في العمق على تفكير الراهب بولص وعمل الجماعة المحيطة به في زياراتي المتكررة ومكوثي هناك أياماً طويلة، ولا أنكر أنه كان أحد أهم الناس الذين أثروا في محبتي للمسلمين والانفتاح عليهم.
إن مشروع دير مار موسى الحبشي متفردٌ من حيث موقعه في المحيط الإسلامي، وانفتاحه على المسلمين بنظرة مسيحية إيجابية تحترم الآخر دون الرغبة في تغييره أو السيطرة عليه، ومتفرد أيضاً من حيث روحه المسكونية وفكره اللاهوتي.. وفيما يلي أثبت بعض المقتطفات التي تعبّر عن روح المشروع:

"بفهم عميقٍ للتطور الأنثروبولوجي عبر القرن المنصرم، كان ماسينيون منتبهاً جداً للبعد الروحي والسياسي للعلاقة بين الرجل والمرأة، ولذلك فهو يربط رمزياً بين الجماعات الغاندية والأديرة المسيحية التأملية، ويركز على ضرورة الحفاظ على أماكن روحية ذات بعد فني

وتاريخي بجوار المدن الإسلامية، حيث يشبهها بصوامع الأديرة الشرقية في البرية. وهذه الأماكن المقدسة أنثوية ومريمية وإفسسية وفاطمية. وقد شاهد ماسينيون في حياة مريم ويوحنا التلميذ في إفسس أنموذج الموقف الذي تجد به البشرية خلاصها والكنيسة كمالها. وهو يتمنى تأسيس مجموعات مشتركة من متأملين ومتأملات يقفون في ما بين الحدود الفاصلة، جيوش جهاد على جبهة الكفاح الروحي، حيث يحفظهم من كل شر حضورُ الله المقدس السراني المتطلب الشافي، مجسدين نذورهم في سبيل الحق بأفعال رحمة، أولها ضيافة الغريب. وهم شهود لطعنة الرمح في جنب المسيح مع العذراء ويوحنا والمجدلية".

لن أطيل الحديث أكثر وسأختار من كتابات الراهب بولص أجزاء من مقالتين تلخصان جزءاً كبيراً من تفكيره (من أجل فهم أوضح لهاتين المقالتين، يمكن الاستعانة بالقسم المتعلق بشارل دو فوكو، ولويس ماسينيون. بالنسبة لصوفية الحلاج يرجى مراجعة الدراسات المطولة عنه من قبل لويس ماسينيون).

نبوّة.. شخص.. مستقبل:

إن النبوة وفعل الإيمان يشكلان وجهين لحقيقة واحدة وهي الإمكانية والمقدرة على استقبال حضور الله - الشخص ومبادرته في أعماق القلب وقمة الشخص في شركة الروح.

إن هذا الحضور للضيف الإلهي ناطقٌ وخلاقٌ. آدم، كونٌ مصغرٌ، خلق بحسب النص القرآني مثل الكون برمته من الأمر الإلهي (كن.. فيكون)، (سورة آل عمران، الآية 59) في التاريخ وإلى الانتهاء. وقد دعيت الملائكة أي القدرات الروحية إلى أن تسجد لآدم (سورة البقرة، آية 34) المخلوق من التراب والنفخة (سورة الحجر، أية 28 - 29)، (سورة ص، آية 71 - 72). وهذا لأنه نبي، يلفظ الأسماء المعبرة عن المعاني، التي أوحى له الله بها، ويعلم ما تجهله الملائكة (سورة البقرة، آية 31 - 33).

أخرج آدم من الأرض وأخرجت حواء من آدمٍ، توازٍ تام، وإذا دخلت نفخة الله حشا مريم البتول شكلت الكلمة بشراً. تضيعُ أصولنا الآدمية في ماضٍ من التحولات التطورية اللامتناهية، بينما يصبح مستقبلنا شذرات من ٍ لحظة الحاضر، من بعدما أصبح ممكناً وواجباً أن نتصوره كتقدمٍ تدريجي للعالم الإنساني إلى ما خارج الكوكب الأرضي باتجاه تشتتٍ زمنيٍ ومكاني لا حدود له، بهذا لم يبقِ سوى قوسِ حياة الشخص المربوط ببدايةٍ خالقةٍ ونهايةٍ فانيةٍ، مقياساً باقياً ومفتاحاً لتأويل الوجود.

فعيسى ابن مريم، الشخص، في ادعائه الرهيب أن ينقض الهيكل في نفسه، نموذجاً للكون، مقراً للمجد، وأن يعيد بناءه، يرشح نفسه قمةً وينبوعاً للمعنى، للحياة والنور، بنظر تلاميذه، عندما فيه، في قوس حياته، يكتشفون رسم جودةٍ يعانق الكل. فلذلك بعد ما ذاق مع مريم أمه مرارة

الترك، يصرح بإتمام الكل، (قد تم كل شيء، يوحنا 19/30). لكن التلميذ الذي يكتشف ولادة الكنيسة السرية في خروج الدم والماء من جنب المسيح الأيمن يصرح بأنه الآن فقط يبدأ الكل.

كلمة القرآن النبوية تركز على التوازي بل على التطابق بين آدم والمسيح (سورة آل عمران، آية 59)، (قارن مع الكتاب المقدس - رومية 5/14، 1كو 15/20 - 22، 45 - 49).

إن تتلمذ الكنيسة ليسوع الناصري واضح كتخطي الشرائع في إعادة خلق الشخص بكونه الآخر في العلاقة، رجل - امرأة، اللّه - أنا، بين قمة سيناء نبوة موسى وغار حراء نبوة محمد. بينما إلياس لا بل روح إلياس وروح أخنوخ (إدريس) ويوحنا (يحيى) باستمرار تعود إلى السماء، تختطف على عربةٍ ناريةٍ إلهيةٍ.

موسى الذي تكلم معه اللّه فماً إلى فمٍ، ما يزال يبشر بمجيء المسيح، وهكذا محمد الذي نزلت عليه الكلمة بشكل الوحي ما يزال يعلن عودته النهائية.

كل ظاهرة نبوية تحدث في نطاق لغوي خاص محدود بشكل طبيعي ملتبس، وإذا كان هذا الأمر لا يبرر الموقف الأصولي لمن يعتبر إحدى هذه الظواهر النبوية هي وحدها المطلقة، فإنه لا يسمح بممارسة الشك الساذج في حقيقة الخبرة النبوية وصدقها.

فقط من خلال الفهم الروحي الممارس في مستقبل الحوار والشركة، يمكن لتلاميذ الناصري الوصول إلى حقيقة نبوية توحيدية شديدة ونقدية، وظاهرياً رافضة للعقيدة المسيحية كالنبوة المحمدية. لا يمكن لهذا الفهم الروحي أن يحدث سوى من خلال اللقاء مع بني الإسلام عبر التقليد الروحاني الذي يربط بينه وبين مسلمي اليوم، حيث يلمس المسلم اليوم صدق النبي في خشوع وتقوى الأنفس الأمينة المصلية، المتضرعة، والمصغية لأولياء الإسلام وصدّيقاته.

كتب أحد تلاميذ المسيح عن حجاب موسى الذي وضعته الحكمة الإلهية لمنع استيعاب سر الجلجلة كي لا يبقى هذا السر أسيراً في نطاق الشعب المختار (2 كو 3/7 - 18)، وكذلك أسدل الحجاب نفسه في القرآن سداً وردعاً لاستخدام هذا السر المقدس كوسيلة للهيمنة المسيحية الدنيوية.

á á á

تستخدم الثقافة الأوروبية المعاصرة مصطلح (Post Christian) أي ما بعد المسيحية، والمفهوم الشائع لهذا المصطلح هو الثقافة المدنية العلمية والفلسفية التي لم تعد مبنية على النظرة المسيحية الإيمانية بل على تخطيها.

يمكن وبمفهوم أوسع الحديث عن (ما بعد المسيحية) بخصوص نبوة حصلت تاريخياً بعد المسيح كالإسلام مثلاً، وأيضاً بالإمكان استخدام هذا المفهوم في خصوص الاستمرار الواعي والمسؤول لتقاليد دينية سابقة

للمسيح إلى ما بعد المسيح وحتى اليوم مثل الدين العبري.

كما يمكن أن يعتبر (خارج عن المسيحية) موقف الهندوسيين والبوذيين الذين بقوا على ديانتهم عن قناعة بالرغم من المحاولات التبشيرية تجاههم. وأخيراً في المصطلح (ما بعد المسيحية) رفض الحداثة وما بعد الحداثة لادعاء شهود القبر الفارغ. وبطريقة أو بأخرى يدور الـ (ما بعد المسيحية) بقوةٍ جاذبة أو نابذة حول ذلك المحور واضعاً على المسيح كفناً واسعاً.

وفي سنة الألفين (2000م) هذه، التي فيها حاولت الكنائس أن تبرهن المركزية التاريخية للحدث - المسيح يبدو وكأنه يبرهن عكس ذلك، عبر فشل المسيحية التاريخية، وقد كرس فشل الهيمنة المسيحية نجاح عولمة أخرى جديدة تبدو أكثر قوةً وفعاليةً. إن فشل النظام المسيحي يبدو وكأنه يقابل تطوراً مناسباً لإعادة بناء التتلمذ ليسوع كعلاقة شخصية. من إعادة البناء هذه تنبع الأمانة للقيمة الصوفية الفائقة التاريخ للشخص الإنساني كونه ابن الله.

شخص الناصرة الهامشي مع تلاميذه يريدون أنفسهم شهوداً لدينامية العطاء والتقدمة والشركة بشكل حاسم كمقر رمزي وفعالٍ للمرور إلى اللامتناهي الأبدي. تقاليد أخرى أيضاً تشهد بأشكال أخرى لهذه التطلبات أو لغيرها.

إن الساعة الأخيرة سوف نكتب عنها وسوف نصفها، سوف نحققها معاً إن كنا مستعدين للتوبة والمصالحة والشركة والحوار المسامح المحتمل والعلاقات المحبة (أي التقرب المليء بالخشوع في حقيقة الآخر كشرط لإمكانية تقدمة الشهادة للحقيقة التي فينا).

لذلك لا بد من الحصول على إمكانية جدلية الانتماءات المتعددة والدينامية على صعيد الهوية بغاية دعم التأويلات المتصالبة لمستقبلنا. وليس هذا ممكناً إلاّ بالاستقبال المصغي للنبوة ولنموها في سر شخصية كل واحد، في الصمت، في الاستماع، في الإلهام.

في أماكن متعددة وبأساليب متنوعة أخويات جديدة لها دور الجسور والمعابر. أكثر من ذلك، هناك نسيج معلوماتي متشابك يكسو العالم ثوباً لغوياً جديداً ومشتركاً، صورة أخرى ومعبرة عن مشاركة أكثر فعالية، وأكثر واقعية، ألا وهي شركة القديسين.

إننا في ساعة نبوةٍ جديدةٍ، لا ساعةَ أنبياء جدد، بل ساعة كل منا للمشاركة في النبوة. في هذه الساعة عندما نلتفت إلى الوراء وننظر إلى المستقبل نصاب بتأثر لا يوصف، ندامة، وتعزية.

جهاد لويس ماسينيون بين شارل دو فوكو وغاندي:

إنه لمن المعروف أن لويس ماسينيون وجد في الفترة الأخيرة من حياته عند غاندي تعبيراً كاملاً ومكمِّلاً لآرائه فيما يخص التزامه الإنجيلي تجاه الإسلام، وذلك ضمن نظرة شاملة تخصُّ مسيرة البشرية كلِّها. كما

نعرف أنه كان لشارل دو فوكو دورٌ هام في حياة والتزام لويس ماسينيون الروحي والاجتماعي، حيث كان دو فوكو، مع الحلاج، بين الشفعاء الذين نالوا من اللّه أن ينجو ماسينيون من الموت في بغداد عام 1908 ويعود إلى الإيمان باللّه ومسيحه. وقد رغب ماسينيون بعد ذلك رغبة شديدة في أن يكرِّس حياته للمسيح ولخدمة الإنجيل مع هذا الناسك في صحراء الجزائر.

نعرف أيضاً أن التمييز الروحي والظروف قادت ماسينيون إلى الزواج والالتزام الكامل بالتدريس الجامعي، لكنْ تبقى الرابطة قوية جداً بين لويس ماسينيون وشارل دو فوكو في السنين السابقة للحرب العالمية الأولى. ويبدو لي أن العناصر التي توحِّد بين فكريهما ومشاعرهما هي الرغبة الشديدة في أن يعيشا حبَّ المسيح لكل الناس، ولا سيما لأبعد الناس، وللمسلمين بالأخص. وتبقى هذه الرغبة في البداية تبشيرية تقليدية على الصعيد اللاهوتي، وإن كانت جديدة في الأساليب والآفاق، بسبب تأمل فوكو في سرِّ حياة المسيح في الناصرة، حيث تمثَّلت دعوتُه في تجديد هذا البعد المنسيّ من الرسالة المسيحية - أي رسالة العائلة المقدسة في الناصرة - في سبيل خلاص الناس أجمعين.

لقد شكَّلت هذه الدعوة (نفسانياً أكثر منها لاهوتياً) انقلاباً في قائمة الأولويات في التبشير المسيحي. ولكن فوكو - هكذا نقول - كان ابن عصره؛ فالتزم بالواقع فكرياً وسياسياً في إطار التيار الاستعماري الفرنسي، حيث كان يرى فيه فرصةً وواجباً في سبيل تربية الشعوب وإدخالها في الحضارة، مع تبشيرها بالدين الكاثوليكي لتحويلها عن اعتقاداتها الباطلة. فحقق ذلك أثناء وجوده في الجزائر، وكان صوتاً وشهادة فريدة وجديدة ومختلفة عن النمط العام - دون أن ننكر النيَّات الطيبة لدى معظم المرسَلين حينذاك.

لقد كان فوكو رجلاً عسكرياً في الأساس؛ لذلك يبقى تفكيره، إلى حد ما، عسكرياً، حتى يوم وفاته. وهذا واضح تماماً في موقفه أثناء الحرب، وبشكل خاص في رسائله الموجَّهة إلى ماسينيون. فهو، في رسالة مشهورة كتبها إلى ماسينيون بتاريخ 1/12/1916، يمدحه ويوافق على قراره في أن يتطوع لخط النار. وفوكو نفسه يرغب في أن يموت؛ إذ إنه يعتبر الاستشهاد أثمن ما يستطيع أن يطلبه من الرب؛ ولهذا السبب عينه يتمنَّاه أيضاً لصديقه ماسينيون.

إنه يعتبر الحرب فرصةً لإعطاء النفس حباً للّه وللقريب. وهو في ذلك لا يسعى إلى الشرف، ولا حتى إلى شرف الاستشهاد، بل يبحث عن الخطر والألم والتضحية التامة، وذلك ببساطة وتواضع، ويعتبر ذلك واجباً في سبيل عروس النفس. ويطلب فوكو من ماسينيون أن يقدِّم حياته للّه بالاتحاد مع ذبيحة ربنا يسوع بين يدي العذراء مريم. وفي اليوم نفسه يموت فوكو على يد المجاهدين المسلمين.

عندما استعلم ماسينيون عن وفاة فوكو وهو بالجبهة بتاريخ 27/1/1917

اعتبر أن صديقه قد وجد الصراط، وأدرك الغاية، وأنه قد مات ضيفاً ورهينةً في سبيل الطوارق المسلمين. وقد شبَّه ماسينيون فوكو فيما بعد بالحلاج؛ إذ يُفترَض أنه، بقبوله السلاحَ في المنسكة، جعل دمه حلالاً للمجاهدين المسلمين حتى يُستشهَد على أيديهم، دون أن يحمِّلهم جريرة قتله. والحلاج أيضاً، بأقواله وتصرفاته، كان قد خالف حرف الشريعة وأعطى المسوِّغ الشرعي لقتله، حباً بالأمة وفي سبيل إصلاحها. ولسوف يقرُّ ماسينيون فيما بعد أنه قد تطوَّع للجبهة تكفيراً عن عدم ذهابه مع فوكو إلى الصحراء.

إنما يبدو لي أنه بموت فوكو يبدأ فصل جديد من تطوُّر ماسينيون الروحي والفكري؛ إذ كان قد بدأ يشك برسالة الاستعمار، ولا سيما أنه شهد كيف أن فرنسا وبريطانيا لم تفيا بوعودهما للعرب بالاستقلال. وكان من دور ماسينيون وجهده، بتأمُّله في حياة فوكو ومماته، أن يدافع عن طهرانيَّة صديقه في تقدمته نفسَه، لكي لا يصير الشهيد رمزاً للفكر الكاثوليكي الاستعماري. فاعتبر نفسه، بحق، وريث روحانية فوكو الأصيلة والمتأصِّلة في الناصرة.

هناك توازٍ وترابط بين تعمُّق ماسينيون في المفاهيم الإسلامية الروحية الأساسية وبين حياته الروحية المسيحية، من خلال دراسته وتأمُّله في التصوف، وبشكل خاص من خلال هذا الترابط الروحي المدهش بين نفسه ونفس الحلاج. بذلك أصبح ماسينيون، رويداً رويداً، يعيش مسيحيَّته انطلاقاً من المفاهيم الإسلامية والتعابير العربية. فمن الواضح، مثلاً، أن "الجهاد الأكبر" (جهاد النفس) هو، بنظره، المصطلح الإسلامي العربي للزهد والمجاهدة في سبيل القداسة والتتلمذ على المسيح يسوع. كما أن دراسته عن مفهوم "الفتوَّة" في الإسلام توازي مفهوم "النذر" عند الصليبيين في سبيل استرداد القدس؛ والمُطوِّعة، أي سكان الرباط، هم كالفرسان الصليبيين سواء بسواء؛ والمتصوف المسلم، الملتزم بالجهاد الأكبر، يرادف الراهب الذي يعيش النذور الإنجيلية. كما أن هناك توازياً بين الحج الإسلامي إلى مكة المكرمة وبين الحج المسيحي إلى القدس، وبين مفهوم الإحرام هنا وهناك. فالمرجع والأصل هو إبراهيم الخليل بعلاقته بإسماعيل ومكة، من جهة، وإسحق والقدس، من جهة أخرى. وإبراهيم هو أيضاً النموذج الأولي للمهاجِر، وكل من يخرج من ذاته في سبيل اللقاء مع الله يُعتبَر مهاجراً.

هذا ومن الواضح أن ماسينيون لا يدرس فقط التصوف الإسلامي بدراسته للحلاج، بل يدرس سبيل لقائه مع الله كابن للكنيسة. فإذا كان ماسينيون، من جهة، يرى في الحلاج - بـ "وحدة الشهود" - ذروة الهجرة الروحية والاتحاد بالله في إتمام جهاد يؤدي إلى تقدمة الذات ضحيةً وذبيحة، كما في الحج عند جبل عرفات لدى ذبح الأضاحي التماساً للغفران، فإنه، من جهة أخرى، وبالمفاهيم نفسها، يتأمل في اتحاده بالله في المسيح من جراء فعل الإيمان على غرار الـ "نَعَم" التي نطقت بها مريم.

وإذا كان ماسينيون، من ناحية الإسلام، ينتقد الغنوصية الإسلامية في تصوف ما بعد الحلاج، وبشكل خاص تصوف ابن عربي (إذ كانت تلائم الانغلاق الروحي النرجسي على الذات فيما عُرِف بـ "وحدة الوجود")، فهو، من ناحية أخرى، يتأمل في الحضارة الأورَوبية التي انقطعت عن العلاقة مع الله بسبب الإلحاد على أنواعه، وحرَّفت عقيدة التجسد، حيث صار الإنسان يعبد نفسه، وعَدِم الانفتاح للقاء مع الله ولاستقبال الضيف والغريب. فشفاعة إبراهيم لسدوم وسكانها تشمل، بهذا المعنى، الحضارة الحديثة النازعة إلى المادية مع الحضارة الإسلامية المنغلقة في انحراف روحي. هذه الفكرة هي رابط روحي يربط بين أفكار ماسينيون، منذ وقت إهتدائه إلى وقت جهاده اللاعنفي في أواخر حياته. فهو يفهم ذلك انطلاقاً من خبرته الأليمة، وتصبح خبرته وسيلة لتفسير التيارات الروحية، في الشرق كما في الغرب.

وإذا عدنا إلى الجهاد، فمن البديهي أن الجهاد المسلَّح الإسلامي، وإن كان حلالاً مثلاً في سبيل التحرر من الاستعمار، فهو يؤدي إلى صراع وتوتر مع العالم المسيحي الذي يعيش أنواعاً أخرى من الجهاد المسلَّح باسم المصالح والحضارة الغربية، وإن لم يعد ذلك باسم الإيمان المسيحي.

ولكن الموضوع على الصعيد الروحي يختلف. فإذا كان المؤمن يتقرب إلى الله بجهاد النفس، فلا فرق بين جهاد المسلم وجهاد المسيحي؛ إذ إن غاية الجهاد واحدة هي هي. فعندما درس ماسينيون مفهوم الرهبانية في الإسلام وبرهن أن حديث "لا رهبانية في الإسلام" حديث متأخر موضوع وغير صحيح، بيَّن أن المفهوم القرآني للرهبانية مفهوم إيجابي.

"ثم قفَّينا على آثارهم برسلنا وقفَّينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتَّبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما راعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا..." (سورة الحديد 27)

وتبقى الرهبانية فعلاً نوعاً من أنواع الجهاد المقدس. والبرهان على ذلك هو الحديث المتأخر الذي يقول إن الرهبانية في الإسلام هي الجهاد في سبيل الله. وقد لاحظ ماسينيون أن هناك ترادفاً بين عفة الراهب في المسيحية وبين الامتناع عن العلاقة الجنسية أثناء الحج في الإسلام. فممارسة الخلوة في الإسلام تتطلب العفة؛ وهذا ما نلاحظه عند الحلاج حيث عاش العفة التامة فترات طويلة من حياته. وعلى كل حال، فإن عفة القلب شرط اللقاء بالله إذا كانت أسرارنا بكراً. وإننا نجد ماسينيون يتأمَّل في ذهاب الحلاج لخدمة رسالة الإسلام إلى ما وراء حدود دار الإسلام وقلاع المرابطين، حيث عاش جهاده مرتين بالذهاب إلى الهند، وأيضاً مرتين في جهاده بالحج.

فالاستشهاد جهاداً في سبيل الله يرادف تماماً أضحية الحج، حيث إن

الصلاة وقت الحرب ركعتان، وصلاة وقفة عرفات ركعتان، كما أن صلاة العاشق "ركعتان لا يصحُّ وضوؤهما إلا بالدم"، على حد ما قال الحلاج على الصليب. وبعرفات تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة، كما أن الجهاد الأكبر واحد للاثنين. والحج أيضاً هو جهاد النساء، اللواتي يمارسن الجهاد أيضاً بخدمة الفقراء وحماية اليتامى والضيوف والغرباء. فمن الواضح تماماً أن الحلاج، بتقدمة نفسه، يريد أن يؤدي الحج والجهاد معاً. فهوذا أثناء الجلد يصرخ بعد 400 جلدة: "فُتِحَت القسطنطينية!"، ثم يتوضَّأ بدم ذراعيه قبل الصلب. وعرق الأبطال هو الدم (كما في بستان الزيتون، إنجيل لوقا 22: 44). والشهيد لا يحتاج للغسل بعد موته؛ إذ هو طاهر قد تطهَّر بدمه. والحلاج شهيد في الجهاد، قتله الله. ويرى ماسينيون بوضوح الترادف بين موت المسيح على الصليب وبين موت الحلاج مع الأبدال في سبيل إصلاح الأمة وغفرانها. فكما أن لموت المسيح بعداً نشورياً، كذلك لموت الحلاج هذا البعد عينه. فالأبدال، بتقدمة أنفسهم، يؤجِّلون قيام الساعة من خلال شفاعتهم الإبراهيمية.

á á á

الأخ دوغلاس

اسمه الكامل Douglas Venne ، يعيش في بنغلاديش منذ خمس وعشرين سنة بين الفقراء (معظمهم من المسلمين، وبعضهم هندوس). الآن بقي وحيداً هناك.. أما في السنين الأولى لوجوده في بنغلاديش فكان يعيش في "أخوة" من خمسة أخوة أو رهبان حيث كانوا يقومون بمساعدة الناس والعمل معهم، ومع السنين بقي وحيداً وما يزال يعمل في الزراعة (كالبذار، وجمع الرز وحمل رزم الأعشاب..)..

يقول الأخ دوغلاس في رسالة بعثها إلى دير مار موسى بالإنكليزية أترجم بعض مقاطعها هنا: كان الرجل الذي أوحى إلي بهذا النمط من الحياة هو شارل دو فوكو مؤسس أخوة وأخوات يسوع الصغار. فأنا أعيش في قرية قرب بيوت المسلمين.. وفي البدء أرادوني أن أعيش داخل المجمع السكني لكنني فضلت أن أتخذ كوخاً صغيراً قرب ذلك المجمع، ليكون لزواري الحرية في المجيء إلي، لأن بابي مفتوح دائماً ما عدا أوقات الصلاة والنوم. وإن الكبار والصغار يزورونني ويجلسون أمام كوخي المصنوع من أعواد الخيزران.. كما يلعب الصغار ببعض الألعاب الخشبية في الساحة الترابية أمام الكوخ.

لقد أمضيت 16 سنة في الفيلبين قبل مجيئي إلى بنغلاديش، وقد أحببت الناس هناك لكن شوقي كان دائماً إلى الأبعد والأفقر والأكثر إهمالاً، وعندما وجدت الفرصة هنا لم أتردد في المجيء والمكوث..

إنني أصلي يومياً في كوخي وقد وضعت بعض الأيقونات على الحائط ووضعت فوقها غطاء كي لا أجرح حساسية المسلمين الذين يزورونني.. ووضعت فوق الغطاء جملة بلغتهم بمعنى: "أؤمن وأعرف الله العظيم". إننا بالصلاة نجد الطريقة لنشر الأخبار الحسنة في العالم.. ولذلك تصبح اللغة، رغم كونها جداراً بيني وبين الناس، ثانوية أمام رسالة الصلاة..

بالإضافة للصلاة أقوم ببعض المساعدات البسيطة للناس هناك، كتوزيع الأدوية وتعليم الفتيان والنساء بعض الدروس الأدبية، كما أنني أشهد أعراسهم وجنازاتهم وأحداثهم الرياضية وألعب أحياناً مع أطفال العائلات المحيطة..

ومنذ البداية قدمت نفسي باسم الأخ دوغلاس أو دوغ والجميع يعرفونني بهذا الاسم، وأشعر أنني أشهد بذلك لمحبة الله للجميع، ولتقريب المسيحيين والمسلمين من بعضهم البعض..

مؤخراً كنت أعطي محاضرة للرهبان الجدد فأخبرتهم أنه عندما نسمع "أذان المسلمين" يجب أن نتوقف لحظة لنقول "ليأت ملكوتك يا الله.." وهكذا نصلي معاً "كقطيع واحد لراعٍ واحد".

المجمع الفاتيكاني الثاني

هو مجمع التجديد اللاهوتي الأكثر أثراً في تاريخ الكنيسة عبر العصور. وإن الأفكار اللاهوتية خصوصاً فيما يتعلق بالحوار والانفتاح على الأديان غير المسيحية قد بدأت قبل ذلك التاريخ بسنوات عديدة. فقد كتب البابا بيوس الثاني عشر قبل انعقاد هذا المجمع بعشر سنوات، رسالة بابوية تدعو الكاثوليكيين إلى اكتشاف القيم الروحية للديانات الأخرى واحترام تلك القيم. كما وجه البابا بولس السادس رسالة في تشرين الأول 1967 تحث على الحوار المسيحي - الإسلامي، ومما جاء فيها:

"نود أن نعبّر عن تقديرنا لكل معتنقي الإسلام في أفريقيا. إن لهم مبادئ مشتركة مع المسيحية، الشيء الذي يعطينا بارق الأمل لقيام حوار حقيقي فعال بيننا. إننا نعبر عن رغبتنا في أن يسود، حيثما تجاور المسيحيون والمسلمون في معيشتهم، احترام متبادل ودائم في الحياة المجتمعية، وأن يعملوا معاً على الدفاع عن حقوق الإنسان وسيادتها"..

نجد في المجمع الفاتيكاني الثاني العديد من المقولات التي تحترم الأديان الأخرى، ومقولتين خاصتين بالإسلام. كما يعلن أن الحرية الدينية حقّ للشخص الإنساني، وهو حق متأصل في كرامة الشخص يقوم على الحرية النفسية مقرونة بالعصمة عن الضغط الخارجي.

*** تبدو الكنيسة رمز هذه الأخوة التي تتيح الحوار الصادق وتشجعه، وذلك بفعل رسالتها التي تهدف إلى إنارة المسكونة كلها بنور البشارة الإنجيلية، وجمع جميع البشر في الروح الواحد، إلى أي أمة أو عرق أو ثقافة انتموا".**

المجمع الفاتيكاني الثاني، الدستور الراعوي (الكنيسة في عالم اليوم، فقرة 92)

*** "إن الله الذي يهتم بالجميع اهتماماً أبوياً، أراد أن يكون جميع البشر أسرة واحدة، وأن يعامل بعضهم بعضاً بروح أخوية. فقد خلقوا جميعاً على صورة الله الذي صنع من واحدٍ كلَّ أمة من البشر ليسكنوا على وجه الأرض كلها وهم مدعوون إلى نفس الغاية الواحدة أي الله ذاته".**

من الدستور الراعوي (الكنيسة في عالم اليوم، فقرة 24)

*** "وليجتهدوا في أن يتعاونوا مع أهل الإرادة الصالحة على نشر كل ما هو حق وعدل ومقدس، وما هو خليق بأن يُحبّ، وليقيموا معهم الحوار، ذاهبين إليهم بحكمة ولطف، وليعملوا الفكر في كيف يحسنون النظم المجتمعية والعامة بحسب روح الإنجيل".**

رسالة العلمانيين، فقرة 14

*** "إن كل نوع من أنواع التمييز في حقوق الشخص الأساسية سواء كانت اجتماعية أو ثقافية، وسواء كان التمييز قائماً على الجنس، أو**

العرق، أو لون البشرة، أو الوضع الاجتماعي، أو اللغة، أو الدين، فهذا التمييز يجب تجاوزه وإسقاطه على أنه مخالف لتصميم اللّه".

(الكنيسة في عالم اليوم، فقرة 29)

* بما أن اللّه الآب هو مبدأ جميع البشر وغايتهم، فإننا جميعاً مدعوون إلى أن نكون أخوة، وإذ كنا مدعوين إلى دعوة إنسانية وإلهية واحدة، كان بإمكاننا ومن واجبنا أن نتعاون، في غير عنف ولا خلفيات، على بناء هذا العالم على سلام حقيقي.

(الكنيسة في عالم اليوم، فقرة 92)

* يجب أن يمتد الاحترام والمحبة إلى أولئك الذين يخالفوننا تفكيراً وعملاً في أمور الاجتماع والسياسة أو الدين. وبمقدار ما نعمل بإنسانية ومحبة على تفهم نظرياتهم تفهماً أعمق يصبح الحوار معهم أشد سهولة.

لاهوت ما قبل المجمع الفاتيكاني الثاني:

كان هناك تياران لاهوتيان في فهم الأديان غير المسيحية:

* الأول ويمثله جان دانيالو وهنري دولوباك، ويقول هذا التيار إن أصل الأديان جميعها يقوم على فكرة العهد الذي قطعه اللّه مع نوح في مستهل أوائل الخلق، ذلك العهد الكوني الذي يتضمن إعلان وحي اللّه في الطبيعة وفي الضمير الإنساني، والذي يختلف عن العهد المباشر الذي قطعه اللّه مع إبراهيم، وبقدر ما تصون هذه الأديان أصول ذلك العهد الكوني فإنها تحتوي على قيم إيجابية ومثل إنسانية راقية. لكنها تبقى أدياناً ناقصة تعدّ للعلاقة الحقيقية بين اللّه والإنسان، فتحمل الإنسان إلى ملاقاة اللّه لكنها لا يمكنها أن تصل إلى غايتها إلا مقترنة بالمسيح وبانتمائها إلى كنيسته.

* ويمثل التيار الثاني اللاهوتي كارل راهنر: وأصحاب هذا التيار يعتبرون أن النعمة الإلهية المتجلية بكمالها في يسوع المسيح تتدفق على جميع البشر وأن الجميع يفهمون ويعون إلى حد ما نعمة الحب المنسكبة من يدي المسيح الكوني. وإن هذه الأديان يمكن أن تساعد أتباعها على اقتبال نعمة المسيح اقتبالاً ضمنياً ضرورياً للخلاص، فتقودهم محبة القريب التي تعلمها مختلف الأديان إلى محبة اللّه، وبهذا المعنى يمكن لهذه الأديان أن تحتوي قيماً خلاصية.

ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني:

نبذت الكنيسة الكاثوليكية هذه الجملة المقيتة: "لا خلاص خارج الكنيسة".

ويقول المجمع الفاتيكاني الثاني في وثيقة "الكنيسة" فقرة 16: "إن الذين يجهلون إنجيل المسيح وكنيسته، ويطلبون مع ذلك اللّه بقلب صادق، ويجتهدون بنعمته أن يتمموا في أعمالهم إرادته كما يمليها عليهم

ضميرهم، فهؤلاء يمكنهم أن ينالوا الخلاص الأبدي".

وفي موضع آخر: "إن ظفر القيامة غير مقصور على المسيحيين، بل إنه لجميع البشر ذوي الإرادة الصالحة، الذين تعمل النعمة في قلوبهم بطريقة غير منظورة. وبما أن المسيح مات من أجل الجميع، وبما أن دعوة الإنسان الأخيرة هي في الحقيقة واحدة، أي دعوة إلهية، فمن الواجب علينا أن نكون على يقين من أن الروح القدس يُمكِّنُنا، بطريقة يعرفها الله، من الاشتراك في هذا السر الفصحي".

(الكنيسة في عالم اليوم، فقرة 22)

* في الوثيقة المجمعية "علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية":

"الكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حق ومقدس، وتولي تقديرها باحترام صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة. وهذه القواعد والتعاليم التي، وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتعلمه، تحمل قبساً من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس.. من أجل ذلك تحرض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية".

وفيما يخص المسلمين، هناك مقولتان مهمتان، حول نظرة الكنيسة الكاثوليكية الرسمية لهم والعلاقة بهم، صادرتان عن المجمع:

* "بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على دين إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحمان الرحيم، الذين يدين الناس في اليوم الآخر".

(دستور عقائدي في الكنيسة، فقرة 16)

* تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيوم، الرحمن القدير الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التعليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعدما يبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم، خصوصاً. ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم في ما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية".

(بيان في علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية، فقرة 3)

وفي الوثائق المجمعية نقرأ:

*** "إن الحوار يشمل جميع أشكال الحياة، ويوجد في كل مكان يعيش فيه المسلمون والمسيحيون معاً، ومعاً يعملون ويحبون ويتألمون وكذلك يموتون. وخصوصية الحوار ليست في موضوعه، وإنما في نمط الوجود والعمل الذي هو تقبل للآخر، وإصغاء إلى كلامه، وقبول اختلافه".**

(توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، وثيقة أمانة السر للعلاقة بغير المسيحيين)

وتوضح الوثيقة أنه ليس من المحظور على المسلم أن يتمنى لصديقه المسيحي أن يصير مسلماً، كما أنه ليس من المحظور على المسيحي أن يتمنى لصديقه المسلم أن يصير مسيحياً. فهذا دليل قناعة كل واحد بإيمانه الخاص ودليل محبة. ولكن الحوار الصحيح يفترض عند الطرفين العزوف عن السعي إلى حمل الآخر على تغيير دينه على وجه مصطنع، أو حمله على الشك في معتقده الديني. وسيكون ذلك مسخاً أو خيانة للحوار الحقيقي المعدّ للنمو في حضرة الله وبفعل الروح القدس. وهذا الحوار هو دعوة متبادلة للطرفين إلى تعاون يتزايد باطراد في سبيل التوبة إلى الله توبة شخصية أفضل، وطاعته في كل ما يأمر به ضمير المؤمن.

وتقول الوثيقة ذاتها:

"المسيحيون مدعوون دائماً إلى أن يزدادوا تلاؤماً مع مثال يسوع المسيح الذي يتطلب الكثير منهم، إذ قال: أحبوا أعداءكم، وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والأثمة.. فأنتم إذاً كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل (متى 44: 5 - 48). والمسلمون يعلمون، بعد الغزالي، أنه قيل لهم: تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات، التي هي من الصفات الإلهية، من العلم والإحسان واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل **(إحياء علوم الدين للغزالي)** . وهكذا يقودهم العمل نفسه إلى نوع من "تبادل الصفات" الذي يشيد به حديث من أجمل الأحاديث القدسية، إذ يقول: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويديه التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وفؤاده الذي يعقل به، ولسانه الذي يتكلم به".

á á á

هناك أيضاً الرسائل الكنسية التي يكتبها الرؤساء الروحيون، وفيما يتعلق بالإسلام أذكر هنا:

*** "إن قرابتنا الحضارية هي إرثنا التاريخي الذي نصرّ على المحافظة عليه وتطويره وتجذيره وتفعيله، كي يكون أساس عيشنا المشترك وتعاوننا الأخوي.**

إن المسيحيين في الشرق هم جزء لا ينفصل عن الهوية الحضارية

للمسلمين، كما أن المسلمين في الشرق هم جزء لا ينفصل عن الهوية الحضارية للمسيحيين.

ومن هذا المنطلق نحن مسؤولون بعضنا عن بعض أمام الله والتاريخ. ولذا يتحتم علينا أن نبحث بشكل مستمر عن صيغة، لا للتعايش فحسب، بل للتواصل الخلاق والمثمر الذي يضمن الاستقرار والأمان لكل مؤمن بالله في أوطاننا، بعيداً عن آلية الحقد والتعصب والفئوية ورفض الآخر. وإننا على قناعة بأن قيمنا الروحية والدينية الأصيلة، خليقة بأن تساعدنا على تخطي المشكلات التي قد تطرأ على مسيرة عيشنا المشترك. وهذا ما يفرض علينا أن ينظر بعضنا إلى بعض بروح الانفتاح والتعرف المتبادل الحقيقي، لأن الإنسان عدو ما يجهل.

لقد أرادنا الله، جلّت كلمته، معاً في هذه البقعة من العالم وإننا نقبل هذه الإرادة برحابة صدر، ونرجو أن تعمل هذه الإرادة على توسيع قلوبنا بحيث تتسع للجميع مهما كانت انتماءاتهم المختلفة.

(من رسالة بطاركة الشرق الكاثوليك عام 1 990)

*** ومن رسالة أخرى:**

"معاً أمام الله. نحن المسلمين والمسيحيين لسنا جبهتين أو حزبين متواجهين، بل إننا جميعاً وقبل كل شيء أمام الله، وهو رب العالمين وليس ملكاً لأحد. وكلنا منه وإليه. لا نقدر بتاتاً أن نقبل الآخرين الذين يضعهم الله في طريقنا ما لم نقبل الله أولاً في حياتنا. وكلما اكتشفنا الله اكتشفنا أيضاً قدسية الإنسان، لأن كل وجه إنساني إنما يمثل خليقة فريدة خلقها الله "على صورته كمثاله"، وخلقها لتكون "خليفته على الأرض". إن عيشنا معاً هو من صميم وقوفنا أمام الله. فلنقف معاً أمامه ونبحث عما يريده لمجتمعنا ومن خلاله للبشرية جمعاء، فنتحد بعضنا ببعض اتحاداً روحياً باسم الله، وبهذا الاتحاد نمجد اسمه تعالى في شرقنا العزيز، الذي ندعو الله أن يكون دائماً أرضاً طيبة لعبادة الله ولرقي الإنسان".

(من الرسالة الثالثة لبطاركة الشرق الكاثوليك بعنوان معاً أمام الله في سبيل الإنسان والمجتمع. العيش المشترك بين المسلمين المسيحيين في العالم العربي 1994)

البابا يوحنا الثاني

مقدمة:

استعاد البطريرك الماروني نصر الله بطرس صفير في إحدى خطبه موقف الكنيسة الكاثوليكية من الحرب متجلياً في كلام البابا يوحنا الثالث والعشرين في عقد الستينات، والبابا بولس السادس في السبعينات والبابا الحالي يوحنا بولس الثاني ونحن نعلم موقف الكنيسة الحالي من الحرب على العراق واضطرار الرئيس الأميركي لاتخاذ قراره بالحرب كرئيس علماني بعد فشل الوفد الأميركي المرسل إلى الفاتيكان في إقناع السلطة الكنسية "بالحرب العادلة". وازداد الرأي العام المناهض للحرب ورفع شعار "إن الحرب على العراق خرق للقانون الإلهي ولتعاليم المسيح".. وقامت مظاهرات ضخمة منها مظاهرة الثلاثة ملايين إيطالي في روما حيث الفاتيكان.. واعتبر البابا الحرب على العراق "جريمة ضد الإنسانية" في عدة خطب ومواقف.

موقف:

لقد ألقى البابا يوحنا بولس الثاني عدة خطب في زياراته للدول الإسلامية عن الحوار والتفاهم والعيش المشترك. ففي عام 1979 في زيارته لتركيا في تشرين الثاني توجه بخطابه إلى المسيحيين والمسلمين قائلاً:

"إننا ونحن نفكر في العالم الإسلامي الشاسع الأطراف نعبّر من جديد عن التقدير الذي تكنّه الكنيسة الكاثوليكية للقيم الدينية للإسلام، فحينما أتأمل في هذا التراث الروحي، وفي المكانة التي يخص بها الإنسان والمجتمع، وفي قدرته على أن يهب الإنسان، وخاصة الشباب، وسائل نهج طريق مستقيم في الحياة، ويملأ الفراغ الذي تخلقه المادية، وكذا في قدرته على إرساء أسس قوية للتنظيم المجتمعي والقانوني، أتساءل: أليس من المهم والمستعجل أن يعترف كل منا بالعلاقات الروحية التي تجمعنا وننميها كيما نعمل معاً على صيانة العدالة الاجتماعية وتقوية القيم الأخلاقية وسيادة السلام والحرية لصالح البشرية جمعاء".

وركز البابا يوحنا بولس الثاني على هذه النقطة في عدة أماكن أخرى كالفيليبين عام 1981، وبلجيكا عام 1985، والدار البيضاء في المغرب 1985، وقد دعاه إلى الأخيرة الملك الحسن الثاني، ومن خطابه هناك:

"إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين ضروري اليوم أكثر منه في أي وقت مضى، وإن الكنيسة الكاثوليكية لتنظر إلى سعيكم الديني وغنى تراثكم الروحي بعين الاحترام والتقدير - وأعتقد أنه علينا، مسيحيين ومسلمين على السواء - أن نقرّ بفرح جمّ بما لدينا من القيم الدينية

المشتركة وأن نشكر الله عليها. فإننا معاً نؤمن بالله الأحد الكلي العدالة والرحمة. وإننا نؤمن بأهمية الصلاة والصوم والصدق والتوبة والغفران. ونؤمن أن الله سيكون ديانا الرحيم في آخر الأزمنة وإنما رجاؤنا أن تكون كل نفس بشرية عند القيامة راضية مرضية لدى الله.

إننا - مسيحيين ومسلمين - غالباً ما أسأنا تفاهمنا المتبادل، وأحياناً في الماضي تعارضنا مع بعضنا حتى في العديد من المجادلات والحروب، وإنني أعتقد أن الله يدعونا اليوم إلى تغيير عاداتنا القديمة. فعلينا أن يحترم بعضنا بعضاً وأن يحث بعضنا بعضاً على أعمال الخير في سبيل الله".

á á á

= في آذار 1991 استدعى البابا يوحنا الثاني إلى روما جميع بطاركة الكنائس الكاثوليكية في المشرق كيما يسمع في الغرب صوت العرب المسيحيين بعد حرب الخليج، وفي افتتاح اللقاء تحدث البابا عن "الآلام التي ما تزال تعاني منها جماهير منطقة تجلى الله فيها لآبائنا عبر الأديان السماوية".

= قام البابا بتوجيه التهاني بمناسبة عيد الفطر عام 1991 في رسالة يقول فيها:

إلى أخوتي وأخواتي المسلمين والمسلمات الأعزاء،

من عادة المجلس الباباوي للحوار ما بين الأديان أن يبعث كل سنة رسالة تهنئة باسم الكاثوليك في جميع أنحاء العالم، إلى المسلمين بمناسبة عيد الفطر في ختام شهر رمضان. أما هذه السنة فقد قررت أن أبعث لكم هذه التهاني أنا شخصياً نظراً إلى النتائج المأساوية التي خلفتها الأشهر الماضية من نزاع وحرب في الشرق الأوسط، ونظراً إلى آلام الكثيرين المستمرة".

= قام البابا بزيارة الجامع الأموي في دمشق أثناء زيارته لسوريا ليصبح بذلك أول زعيم روحي للكاثوليك في العالم يقوم بزيارة مسجد.. وقد وقف البابا أمام ضريح القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى).. وقال للجمع المرافق: علينا أن نطلب الغفران من القادر على كل شيء عن كل مرة أهان فيها المسلمون والمسيحيون بعضهم بعضاً كما علينا أن يغفر بعضنا لبعض.

= اجتمع في بلدة أسيزي في إيطاليا ممثلو كل الأديان والطوائف في العالم من أجل الصلاة للسلام.

وقد ضم اللقاء ممثلين عن اليهود والمسيحيين والمسلمين والبوذيين والهندوس والسيخ وكافة الديانات التقليدية المحلية في الدول الأفريقية. وقد جاء الجميع إلى هذا اللقاء الروحي، بدعوة من البابا يوحنا الثاني، من روما إلى تلك البلدة الصغيرة أسيزي على متن قطار أطلق عليه قطار السلام. إذ حمل على متنه أكثر من مئتي شخصية روحية من مختلف الديانات في العالم.

وقد تم هذا التجمع الروحي على خلفية الخلافات بين الشرق والغرب

والدول الإسلامية والمسيحية. أراد الرؤساء الروحيون المجتمعون هناك في لقاء نموذجي أن يكونوا مثالاً للرؤساء الزمنيين والسياسيين لتحقيق السلام دون عنف ودماء. وقد أكد البابا أن العنف لا يولّد إلا العنف كما أنه لا يمكن التسامح أمام الإرهاب أو الدعوة إليه.

وتكلم الناطق الإعلامي للقاء أسيزي الأب فورتو ناتو قائلاً: يجب أن نعمل معاً من خلال خطوات ثابتة وجوهرية نظراً لوجود تاريخ مشترك وصلات وروابط مشتركة خصوصاً بين الأديان الرئيسية الثلاث، لذلك طريقنا واحد.

وارتفعت الصلوات، كل طائفة بطريقتها الخاصة للإله الواحد، بدعاء واحد:

لا للكراهية، لا للعنصرية، لا للحقد باسم الدين نعم للأخوة والتلاقي، ونعم للعيش معاً بحرية وسلام وعدالة.

وقد شارك آلاف الشباب في هذا الاحتفال الكوني، ومن النقاط التي نوّه عنها ممثل الأزهر قضية فلسطين وضرورة إيجاد حل عاجل لها فهي محور الحوار بين الديانات الثلاث لما تحمله من معانٍ رمزية لأتباع تلك الديانات..

كما ارتفع صوت الشيخ يعقوب سلموسكي رئيس علماء سراييفو ينادي العالم قائلاً: "كيف يمكن لأوروبا حقوق الإنسان أن تسمح بموت، بل بدمار أمة بكاملها على مرأى منها؟ ولكي ندين إبادة شعب مسلم، فإننا نود، كمسلمين مخلصين لتعاليم القرآن، أن نصلي جميعاً من أجل السلام".

وبطريقة مشابهة قال البابا يوحنا بولس الثاني: ماذا فعلنا إزاء هبة الله؟ هل فضلنا السلام كما يقدمه العالم؟ السلام القائم على صمت المستضعفين وعجز المغلوبين واحتقار رجال وشعوب يشاهدون، بلا حول ولا قوة، حقوقهم المداسة.

á á á

موقف الكنيسة الأرثوذكسية

* قال البطريرك أغناطيوس الرابع (رئيس الكنيسة الأرثوذكسية) في خطابه أمام القمة الإسلامية في الطائف (كانون الثاني 1981):

"فالمسيحيون المشرقيون مثلكم ينشدون وجه الله ومثلكم تواقون إلى خالق السموات والأرض وملتمسون الرضى الإلهي في كل زمان".

ويذكر التشابه بين الهدوئية المسيحية والذكر الإسلامي واستعمال السبحة في تلاوة الأسماء الإلهية، ويؤكد البطريرك أن المسيحيين والمسلمين "عرفوا وعياً، يكاد يكون واحداً، لتعالي الله. وكانت عندهم الثقة ذاتها بالعناية الإلهية والاتضاع وإسلام النفس لله".

وإن الكنيسة الأرثوذكسية تشعر بانتمائها للشرق والتصاقها بالعروبة بشكل عميق خصوصاً منذ عشرة قرون بعد انفصالها عن الكنيسة الغربية.. وبشكل عام تعتبر الكنيسة الأرثوذكسية نفسها مشرقية ومنفتحة على كل المذاهب والطوائف والأديان المشرقية.

= المطران جورج خضر:

هو مطران جبل لبنان لطائفة الروم الأرثوذكس، وهو من مواليد طرابلس حيث ترعرع فيها بين المسلمين فاكتسب من نشأته ومن دراساته في حقل الإسلاميات معرفة عميقة بالإسلام والمسلمين.

من أفكاره اللاهوتية أذكر الأمور التالية:

* "المسيح هو قرآننا": فكما أن القرآن عند المسلمين هو كلام الله غير المخلوق، هكذا المسيح عند المسيحيين هو كلمة الله غير المخلوقة. طبعاً هذه الجملة تحمل تقريباً وتبسيطاً لمفهوم التجسد المسيحي الذي يعني أن الله الكلمة صار بشراً كما صار "اللوح المحفوظ" قرآناً يُتلى.

* "أميتك هي عذرية نفسك، كانت صرخة على الشركة فغدوت في صفاء التوحيد، كما يكون الأمي أعذر بالنسبة إلى الحرف".

وهنا يلتقي المطران خضر بطيموتاوس الجاثليق في العصر العباسي الذي قال إن محمداً سلك في طريق الأنبياء. ويضيف المطران فكرة لاهوتية مهمة هي استقبال كلمة الله في قلب محمد دون تدخل أو تحريف كما استقبلت العذراء مريم في رحمها كلمة الله المسيح وقدمتها للعالم دون تشويه.

- يستشهد المطران خضر بكثير من الآيات القرآنية في وعظاته ومقالاته خصوصاً تلك التي تحرّض على التعايش السلمي وحرية العقيدة والأخوة الإنسانية وكذلك الآيات التي تعدد أسماء الله الحسنى، وهو من أقطاب الحوار المسيحي الإسلامي في لبنان ويبشر انفتاحه، مع احتفاظه بإيمانه القويم كاملاً، بجيل من المسيحيين العرب الذين يؤمنون

بالتعايش والحوار والمحبة رغم الصعوبات اليومية.

وهنا أحب أن ألفت النظر إلى أن وجود الانفتاح والمحبة بين المسيحيين والمسلمين العرب (الذين تعايشوا أو عاشوا معاً لقرون طويلة) أصعب من وجود ذلك عند المستشرقين وذلك لأن التاريخ الطويل المشترك قد خلق الكثير من القصص الدامية والعلاقات المتأزمة والصعوبات اليومية بل الحروب كحرب لبنان، أما بالنسبة للمستشرق الأوروبي أو الأميركي فهناك فقط عقائد وأفكار غير مرتبطة بتاريخ موجع.. لذلك فإن حضور الكنيسة الشرقية في الحوار المسيحي الإسلامي له أهمية إضافية ويساهم في شفاء الجروح التاريخية لأتباع العقيدتين.

*** "إن أكثر مما يبدو في القرآن ضد الثالوث نوافق نحن عليه لأنه موجه ضد بدع نصرانية نعرفها، ولا يمسّ العقيدة المسيحية التي تقول بها الكنائس"، بمعنى أن "الإسلام يجاهد بدعاً لسنا معنيّين فيها".**

طبعاً تبقى عقيدة الثالوث جوهرية ومن خصوصيات الإيمان المسيحي لكنها يجب أن تفهم انطلاقاً من المصادر المسيحية التي تشرحها بطريقة مختلفة تماماً.

*** "قبول المسيح للصليب هو قمة إسلامه لله ولمشيئته رغم تعارض فكرة المسيحية بموت المسيح مصلوباً مع ما جاء في القرآن، إلا أن ذلك لا يتعارض مع الفكرة الأساسية في الإسلام وهي الخضوع التام لمشيئة الله حتى الموت.**

*** "المسيحي كمعلمه محمول على الصليب لا حامل صليب. ليس هو بصليبي".**

ويقول أيضاً:

"المسيحية الشرقية التي استهدفتها الحملات الصليبية كانت مخلوعةً مع بطاركتها وأساقفتها في الحكم الفرنجي لهذه المنطقة وقد مات أبناؤها ذبحاً في القدس واختلطت دماؤهم بدماء المسلمين" وهنا نقطة مهمة تفيد في الحياة الاجتماعية والسياسية اليومية بين المسلمين والمسيحيين، تؤكد أن مسيحيي الشرق يجب أن يكونوا موضع ثقة لأنهم تاريخياً وحتى يومنا الحاضر ارتبطوا بأرضهم وأحبوا وطنهم وهم ينتمون أولاً إلى عروبتهم ثم إلى عقيدتهم الكونية [3] .

á á á

كتب المطران خضر كثيراً عن الوطن والأرض والعروبة والانتماء الشرقي ونشر مقالاته في الجرائد والمجلات وجمع مؤخراً خطبه ومقالاته في كتاب سماه (القدس) يعبّر فيه عن فكره اللاهوتي والإنساني والوطني.

يقول بخصوص فلسطين في كتابه "القدس":

"لنا جميعاً تطلعات روحية حضارية واحدة قد تكون ذات ترجمة سياسية على دروب الحرية الكاملة. وأساس هذه التطلعات جميعاً أنه لا

يجوز أن نلين في مقاومتنا الصهيونية، ولا يجوز الرضوخ للكيان الصهيوني على أنه كيان نهائي على أرضنا".

وأيضاً:

"خارج الرؤية المدنية، وهي الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، سيستمر الجدل إلى الأبد حول اقتسام المدينة بين موسى وعيسى ومحمد، بينما المشكلة هي مشكلة حقوق دولية، لا حقوق السماء في مساحات عقارية".

يقول المطران خضر في مقالة منشورة في جريدة النهار بتاريخ 14/10/2000 بعنوان "القدس والمجد":

"من كل المشاهد الفلسطينية لا شيء حركني مثل انتفاضة الحجارة منذ تفجرها حتى عودتها اليوم. يدهشني أن فتياناً عُزَّلا يقولون لا لعسكر. هذا الرفض كان عندي قمة في بلاغة الصدّ، قمة في الشهادة كما نفهمها إنجيلياً".

وفي كتابه "القدس" يبتهل إلى الله متكئاً على كلمات من الكتاب المقدس ويقول:

"دعوت باسمك يا رب من أعماق الحب الذي حفره الطغاة للفلسطينيين فلا تصمّ أذنك عن استغاثتي. كيف تبعثرت حجارة القدس وتفتتت رام الله؟ كيف حسبوهم آنية من فخار؟ كيف أصبحت هيئتهم كالحة فلم يعرفوا في الشوارع؟".

á á á

* **في لبنان:** وقّع المطران جورج خضر والأب يواكيم مبارك والإمام السيد موسى الصدر، والشيخ صبحي الصالح وحسن صعب والأب فرنسوا دوره لاتور، ويوسف أبو حلقة، ونصري سلهب، بياناً في الثامن من تموز 1965 يؤكّد على "تلاقي الديانتين في إيمانهما بالله الواحد وبقيامهما معاً على تعزيز قيم روحية ومبادئ خلقية مشتركة تصون كرامة الإنسان وتعلن حقه في الحياة الفضلى".

á á á

الباب السادس: المستشرقون والمفكرون الغربيّون

المستشرقون والمفكرون الغربيون

إن مقالة أنور عبد الملك "الاستشراق في أزمة" عام 1963 وكتاب إدوارد سعيد "الاستشراق عام 1978 قد أحدثا ضجة واسعة وجدالاً وردود فعل كثيرة في صفوف علماء الاستشراق الغربيين.. وقد جمع هاشم صالح في كتابه "الاستشراق بين دعاته ومعارضيه" ترجمات كثير من المقالات التي كتبت كرد فعل على الشك بالاستشراق وجهود المستشرقين.

من المعروف أن المستشرقين الأوروبيين قد قاموا بعمل جبار في اكتشاف ودراسة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وقد عملوا منذ القرن التاسع عشر على الحصول على الكتب والمعلومات ودراستها وتبويبها وبدء مرحلة التنظير. وإذا كان الدافع العلمي هو الأساس كما يقول مكسيم رودنسون، إلا أن الأمر لم يكن يخلو من نزعة عنصرية أوروبية تجاه الشعوب المدروسة، وكذلك لم تكتف الحكومات الأوروبية بالدافع العلمي لجمع المعلومات ودراستها بل إنها استفادت منها في غزو البلاد الشرقية واستعمارها.

وهكذا استغلت تلك الدول الدراسات اللغوية والأنثروبولوجية والفقهية والفلسفية والأدبية والتاريخية لبلاد الشرق في التمهيد لاستعمارها..

á á á

من الواضح أن الاستشراق أوروبي المحور وليس هناك مستشرق أميركي ذو قيمة علمية من أصل أميركي.. وإن بعض خبراء الإسلاميات في أميركا كفيليب حتي (لبناني)، وغوستاف فون غرونباوم (نمساوي)، وجوزيف شاخت (ألماني)، وإدوارد سعيد (فلسطيني)، هم أساتذة في الجامعات الأميركية لكنهم غرباء المولد، ومكانتهم الثقافية والعالمية أقل من جاك بيرك في فرنسا أو ألبرت حوراني في إنكلترا.

ويبدو أن عصر الاستشراق قد انتهى بموت جاك بيرك آخر أهم المستشرقين.

á á á

"يجب أن نتذكر أن الباحثين العرب يلزمهم في أحيان كثيرة أن يعودوا إلى كتب المستشرقين لمعرفة حجم تراثهم وعدد مخطوطاته وأماكن وجودها في مختلف مكتبات العالم وما حقق منها حتى الآن بشكل علمي وما لم يحقق، وهكذا يتبدى لنا أن الاستشراق الجاد يقوم بعمل علمي مفيد جداً، وبعيد عن أي مماحكة جدالية أو محاولة التهجم على العرب والإسلام" [4] .

من هذه الأعمال العلمية الهامة جداً كتاب كلود كاهين، المؤرخ الفرنسي المعروف، بعنوان "مقدمة لتاريخ العالم الإسلامي

القروسطي" المنشور بالفرنسية 1983 وهو كتاب شامل في العلم الاستشراقي عن الإسلام والعرب في مختلف اللغات، ويضم أسماء المصادر والوثائق الأركيولوجية والمصكوكات واللوائح التي تشمل المراجع الأجنبية والعربية الإسلامية.

á á á

مهما كانت الآراء حول المستشرقين بشكل عام وحول بعض الأسماء بشكل خاص، فإننا لا يمكن أن نلغي ببساطة دورهم الكبير في تعريف الغرب على الإسلام بشكل إيجابي في معظم الأحيان وأيضاً بطريقة علمية موضوعية غالباً وإن الشهادات الإيجابية عن الإسلام وحتى اعتناق بعض المستشرقين للدين الإسلامي (مثل روجيه غارودي وهنري كوربان).. يدل كل ذلك على أن هؤلاء الأِشخاص لم يكونوا مخادعين دوماً أو مرتبطين بالاستعمار والإمبريالية وإلى ما ذلك!!

كما أن بعضهم قد اضطهدوا بسبب مواقفهم وتصرفاتهم مثل لويس ماسينيون الذي ضربه الفاشيون الفرنسيون ورجال الشرطة نتيجة مواقفه.

á á á

سأستعرض بعض المستشرقين المسيحيين سريعاً، أما بالنسبة لغير المسيحيين (مثل برنارد لويس ومكسيم رودنسون) فسأتركهم للمهتمين كي يبحثوا عن نتاجهم وأعمالهم.

لويس ماسينيون (1883 - 1962)

يعتبر لويس ماسينيون من أكبر مستشرقي فرنسا وأشهرهم. وقد شغل عدة مناصب مهمة كمستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، وكذلك الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر.

تعلّم لويس العربية والتركية والفارسية والألمانية والإنكليزية وعني بالآثار القديمة، وشارك في التنقيب عنها في العراق (1907 - 1908) حيث أدى ذلك إلى اكتشاف قصر الأخيضر. درس في الجامعة المصرية القديمة (1913) وخدم في الجيش الفرنسي خمس سنوات خلال الحرب العالمية الأولى. استهواه التصوف الإسلامي فدرس "الحلاج" دراسة مستفيضة ونشر "ديوان الحلاج" مع ترجمته إلى الفرنسية وكذلك "مصطلحات الصوفية" و"أخبار الحلاج" و"الطواسين". كما كتب عن "ابن سبعين" الصوفي الأندلسي، وعن "سلمان الفارسي".

تولى لويس تحرير "مجلة الدراسات الإسلامية" وأصدر بالفرنسية "حوليات العالم الإسلامي" حتى عام 1954.

رغم الدراسات الكثيرة التي قدمها ماسينيون إلا أن ارتباطاته الفرنسية قد جعلته موضع شبهة.. فهناك الكثير من الآراء السلبية عنه وعن تصرفاته وأقواله. وهذا موقف عام من الاستشراق والمستشرقين في أحيان كثيرة.

يجب أن لا ننسى أن ماسينيون هو ابن بيئته ومجتمعه ورغم بعض أقواله التبشيرية التي تبدو سمجة وغير مقبولة في يومنا الحاضر (وهنا لست بصدد الدفاع عنه) إلا أنه قدم أعمالاً أدبية كثيرة، وأعاد اكتشاف الكثير من التراث العربي والإسلامي بتقدير واحترام كبيرين. أما ارتباطه بالاستعمار الفرنسي للشرق العربي وكذلك حملات التطهير للبسطاء والأميين فهو مثار جدل وقد يكون حقيقياً [5] .

á á á

درس ماسينيون حياة الحسين بن منصور الحلاج دراسة مستفيضة وله فضل كبير في إعادة اكتشاف ذلك المتصوف الإسلامي. سأورد هنا الصلاة الأخيرة أو صلاة السجن من كتاب "الطواسين" الذي حققه ماسينيون وصدر عام 1913 في باريس باللغتين العربية والفرنسية.

هذه الصلاة هي الدعاء الذي تلاه الحلاج عشية تعذيبه في 25 آذار 922 وهناك أربع صيغ لها سأورد منها اثنين.

صيغة أولى [6] :

1. نحن شواهدك نلوذ بسَنا عزّتك لتبدي ما شئت من شأنك ومشيئتك،
2. أنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله،

3. يا مدهِّر الدهور ومصوِّر الصور، يا من ذلَت له الجواهر، وسجدت له الأعراض، وانعقدت بأمره الأجسام، وتصوَّرت عنده الأحكام،
4. يا من تجلَّى لما تشاء [كما تشاء] كيف شاء مثل التجلِّي في المشيئة لأحسن الصورة [وفي نسخة: "مثل تجليك في مشيئتك كأحسن الصورة"]،
5. والصورة هي الروح الناطقة التي أفردته بالعلم والبيان والقدرة،
6. **ثم أوعزت إلى شاهدك في ذاتك الهوى اليسير،**
7. **لما أردت بدايتي وأظهرتني عند عقيب كراتي ودعوت إلى ذاتي بذاتي،**
8. **وأبديتِ حقائق علومي ومعجزاتي،**
9. **صاعداً في معارجي إلي عروش أزلياتي، عند القول من بريَّاتي،**
10. **إني أحتضَر وأقتَل وأصلَب وأحرَق وأحمَل على السافيات الذاريات،**
11. **وإن لذرة من ينبوع مظانِّ هيكل متجلِّياتي لأعظم من الراسيات.**

á á á

صيغة ثانية [7] :

1. **نحن بشواهدك نلوذ، وبسَنا عزتك نستضيء، لتبدي ما ثبت من شأنك،**
2. **وأنت الذي في السماء عرشك، وأنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله،**
3. [...].
4. **تجلَّى كما تشاء مثل تجلِّيك في مشيئتك كأحسن صورة ولا صورة،**
5. **والصورة فيها الروح الناطقة بالعلم والبيان والقدرة والبرهان،**
6. [...].
7. **كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند عيانك ذاتي،**
8. **وأظهرت معراج علومي بعجزي،**
9. [...].
10. **إني أُخِذتُ وحُبِست وأُحضِرت وصُلِبت وأُحرِقت واحتملتْ الزياداتُ أجزائي،**
11. **وإن ما بقي في معناي متخلياً أعظم من زوَال الراسيات.**

á á á

* الأبعاد الروحية لاستشراق ماسينيون:

يذكر ماسينيون أنه قد تعرض للتوقيف من قبل السلطات العثمانية في أيار 1908 واتهم بالجاسوسية وسجن وهدد بالموت. ويذكر أيضاً نوعاً من الرؤيا الروحية حيث يقول: رأيت ناراً داخلية تحاكمني وتحرق قلبي وكأنني أمام حضور إلهي لا يمكن التعبير عنه، حضور خلاق يوقف إدانتي بصلوات أشخاص غير مرئيين، زوار لسجني، التمعت أسماؤهم فجأة في مخيلتي" ولأول مرة أصبح قادراً على الصلاة وكانت تلك الصلاة باللغة العربية وحين أفرج عنه بفضل عائلة من العلماء العرب المسلمين في بغداد توسطت له، قرّر أن يلتزم بدراسة الإسلام عميقاً وجدياً. من الأفكار المهمة التي آمن بها ماسينيون كانت فكرة "البَدَليّة": وتفهم كشفاعة الأنبياء والمُخلصين ومثالها "الحلاج" الذي درسه ماسينيون بعمق وأنجز أطروحة الدكتوراه عنه عام 1914 وقد أظهر فيها تطور المراحل في حياة المتصوف عبر التوبة ونكران الذات والتطهر، إلى نوع من تجربة الاتحاد في ذات الله. وقد طبّق على الحلاج فكرة البدلية وهو يرى أن حياة الحلاج وشفاعة موته من أجل أمته تمتد إلى ما بعد إعدامه. واعتبر أن موت

الحلاج نوع من الألم البطولي تحمله من أجل الآخرين، منتمياً بذلك إلى سلسلة البدائل أو الشواهد.

أما بالنسبة للإسلام فكان ماسينيون يعتقد أنه تعبير حقيقي عن الإيمان التوحيدي المتحدر من إبراهيم عن طريق إسماعيل، وأن له رسالة روحية إيجابية بتأنيب عبدة الأوثان وإعطاء المسيحيين نموذجاً للإيمان والاستسلام. وكان ماسينيون يهتم بالأماكن التي يستطيع أن يشترك فيها المسيحيون والمسلمون في الصلاة كالقدس ومقام إبراهيم في الجليل ومزار "أهل الكهف السبعة في أفسس".

á á á

مع موقفه اللاعنفي "الغانديّ"، أصبح ماسينيون يوسع تضامنه مع البشر حتى أقاصي الأرض، وتوسعت آفاق "البدلية" عنده (وهي كما يعرّفها الجماعة المسيحية المكرسة للشفاعة من أجل الإسلام)، وإن بقيت مؤصلة في نذره مع ماري كحيل في دمياط، وكان الثالث في الجماعة البدلية راهباً اسمه الأب دو بونفيل.

واستطاع ماسينيون أن يربط بين موقف صديقه ومرشده الأخ شارل دو فوكو وبين خبرة غاندي الروحية والسياسية عبر شهادة الحلاج حيث يرى فيه متصوفاً حاول أن يعطي للبعد الروحي دوراً واضحاً في حياة الأمة الإسلامية. وإن ماسينيون يعد فوكو والحلاج وغاندي بين سلسلة الأبدال في فكرة البدلية.

á á á

من علاقات لويس ماسينيون العميقة والمهمة كانت علاقته بالشاعر (بول كلوديل) وقد تبادل معه الرسائل ومنها رسالة في آب 1908 تدور حول قرار ماسينيون إما باتباع صديقه شارل دو فوكو في الصحراء في حياة مكرسة للصلاة والتوحد في الصحراء مع القبائل العربية، أو متابعة حياة العالِم المنفتح على الآخرين.

á á á

عمل ماسينيون عميقاً في نفسه، وبصبر، لتحقيق أمنيته في الانتماء إلى سلسلة البدائل متشوقاً إلى الاستشهاد في الصحراء كصديقه شارل دو فوكو، معيداً للمسلمين ما سبق أن قدموه له (حين سبق وأخلي سبيله ورعته عائلة مسلمة في بغداد) ليصبح من الرجال الذين تستمر شفاعتهم عبر الأجيال ويشكلون تلك السلسلة من النفوس البطولية، أو كما يدعوهم أصدقاء الله، وكما يسمون في المسيحية في مواضع أخرى بشركة القديسين، وإن هذه السلسلة هي العمود الفقري للتاريخ البشري. وإن الحلاج بوصفه أحد البدائل قد قبل ظلم مجتمعه وطلب الاستشهاد وصلب مرفوضاً ومنبوذاً ومهمشاً.. لكنه عبر العصور،

رويداَ رويداَ، تقبّله الوعي الأخلاقي للعالم الإسلامي وها هو يقوم بعمله البَدَلي في حياة الناس بعد قرون طويلة كما في حياة ماسينيون نفسه.

إن هذا الإيمان الكوني قد دفع بماسينيون ليقوم بنشاطات اجتماعية كثيرة كزيارة المساجين وتعليم المهاجرين الجزائريين وممارسة الاحتجاج اللاعنفي على تجاوزات الحكم الاستعماري الفرنسي (انطلاقاً من إيمانه بفضيلة الضيافة الإبراهيمية التي يلغيها الوجود الفرنسي، هذه الفضيلة التي تعكس وجود الله في الغريب والمنفي والمضطهد).

لعل تماهي ماسينيون بشخصية الحلاج المتصوف قد وصل قمته ساعة الموت وراح مثله يردد هاتين الآيتين الكريمتين اللتين طالما رددهما في حياته:

) **... لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ...** ([الجن: 22] و) **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ...** ([الشورى: 18].

á á á

* قصة أهل الكهف:

هي قصة وردت في القرآن في سورة الكهف وفي الأدب المسيحي (وليس في الكتاب المقدس). وهي تحكي عن فتية آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله وفضلوا العزلة على ارتكاب الخطيئة.

ومختصر القصة أن فتية في زمن سابق قد وحدوا الله تعالى وآمنوا به مخالفين قومهم ولما شعروا بالخطر لجأوا إلى كهف وباتوا فيه مع كلب لهم. وأراد الله أن يجعلهم آية من آياته، فناموا في كهفهم مدة ثلاثمئة وتسع سنين، ثم بعثهم فأفاقوا من سباتهم واتصلوا بالناس، لكن الزمن قد تغير وإن العملة التي استعملوها كانت قد تغيرت أيضاً فاكتشف الناس الآية وتيقنوا قدرة الله تعالى. وهناك اختلاف على موضع الكهف لكن الأبعاد الدينية والروحية والإنسانية أعمق وأهم من الموضع.

لقد اهتم ماسينيون بهذه القصة كنقطة لقاء بين المسيحية والإسلام وقرأ فيها الكثير من المعاني الروحية من حيث غلبة الإيمان، وفكرة الموت والبعث، وبساطة التسليم لقدرة الله، وفضيلة الحياة المشتركة والتعاون والتآخي.

á á á

جاك بيرك

من مواليد الجزائر 1910، فرنسي الجنسية، أتقن العربية كأحد أبنائها وأقام في عدة بلاد عربية، وكانت إقامته في بكفيا في لبنان كمشرف على معهد تعليم العربية للمستشرقين آخر محطاته في البلاد العربية حتى انتقل بعدها إلى باريس ليتولى كرسي "التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر" في المعهد الفرنسي، ثم تقاعد عن العمل منصرفاً لترجمة القرآن الكريم لمدة 10 سنوات.. توفي عام 1995. لقد فهم بيرك الاستعراب على أنه حوار بين ثقافتين - الأوروبية المسيحية والعربية الإسلامية..

ويؤكد أن منطقة المتوسط ستتحول إلى "بحيرة للمعنى" من خلال إعادة بناء الشراكة المتوسطية الأوروبية - العربية والحوار الديني المسيحي الإسلامي..

وهو لا يخفي إيمانه المسيحي إلا أنه يؤكد أن السنين الطويلة (ورغم أنه في البلاد العربية وتشبعه بالثقافة الإسلامية) قد بلورت رؤيته المسيحية للحياة والإيمان..

وينظر بيرك للحياة نظرة متفائلة ويرى أن الله يحب الحياة لأنه خلقها، ورغم عذاباتها وآلامها إلا أنها مصدر فرح وعزاء. وبرأيه أن فرح الحياة هذا هو الذي يمكن للإسلام أن يعيد بثه في المسيحية بوصفه "دين الفطرة".. فالإسلام يحترم الطبيعة الإنسانية والمسيحية تحترم الشخص وتؤنسن الطبيعة فيتكامل المجتمع ليصل إلى جمال "أسطورة الأندلس".

لقد أدخل بيرك مصطلحات متعددة إلى الثقافة العربية كالثابت والمتحول، و"الإسلام المتوسطي" و"الأصالة والمعاصرة". ويمكن أن تعبر هذه المصطلحات عن تفكيره وطموحه الإنساني.. وإن عنوان مذكراته التي نشرها 1989 (بين الضفتين) يلخص سعيه الدائم للتوفيق والتقريب بين الضفتين "الإسلام المتوسطي" و"أوروبا المسيحية"، ويشرح بيرك نشوء "الإسلام المتوسطي" بقوله إن معاوية الذي احتك بالحضارة البيزنطية في بلاد الشام قد تأثر بها عميقاً ومعه بدأ "الإسلام المتوسطي" يكتسب ملامحه التي بلغت ذروتها أيام العباسيين، عندما صارت بغداد عاصمة الثقافة وساحة لقاء الحضارات. ويرى بيرك أيضاً أن مشروعه الثقافي هو إقامة أندلس جديدة أو مجموعة أندلسات جديدة حيث التقت الحضارتان الأوروبية المسيحية بالإسلام طيلة سبعة قرون. أي التقاء الضفتين!!

á á á

أعجب بيرك بطه حسين وأفرد له دراسة عميقة خاصة عن جرأته العلمانية وتأثره بأبي العلاء المعري وابن خلدون الذي جعله موضوع أطروحة الدكتوراه في باريس.

ويشير بيرك إلى عمل طه حسين الصادق بما يخص المعري وعلاقته الفكرية مع راهب مسيحي في طرابلس الشام، والذي أدرك هذه الجدلية في الفكر العربي وراح يبحث عن أساليب الجمع بين الطرفين حتى وجد في المتوسطية نقطة اللقاء بين الحضارتين المسيحية والإسلامية، وقدم طه حسين في هذه الفترة كتابه المشهور "في الشعر الجاهلي" كما كتب "مستقبل الثقافة في مصر"، وعندما حوكم من أجل كتابه الأول وتراجع عنه، شعر أن دوره الاجتماعي والسياسي وانفتاحه قد آذنا بالانتهاء بعدها تحول طه حسين إلى الدين ويتساءل بيرك: ألم يكن موت طه حسين العلماني هو نتيجة خيبة أمله في عبد الناصر؟!

á á á

وفي الحديث عن عبد الناصر فإن بيرك قد أعجب في السنين الأولى للثورة بانفتاح عبد الناصر على العالم.. لكن أمله خاب بعد ازدياد القمع السياسي الناصري.. فكتب بيرك كتابه "مصر إمبريالية وثورة" منتقداً التيار الديني المندفع وانحسار التيار العلماني عند النخبة الثقافية كالعقاد وطه حسين وأحمد أمين والشرقاوي وتشتت الأصوات الفكرية المنفتحة وهربها إلى الخارج.

á á á

ويلتقي بيرك فكرياً بأنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي في مفاهيم العروبة، وهو يفرق بين العروبة الوهمية والعروبة العملية، ويعترف بأن الوحدة العربية مستحيلة عملياً ليس فقط لاختلاف الأجناس بل أيضاً لاختلاف التركيبات الاجتماعية كما يرى سعادة أيضاً.

ويعتقد أن التعددية من أساسات العالم.. "ومن هنا جاءتني القناعة منذ بداية عملي بضرورة حوار الحضارات الأقرب إلى بعضها البعض".

á á á

يقول جاك بيرك في دراسة أسباب الأصولية ونشأتها: "بعد عصر السلطان عبد الحميد جاء الأخوان المسلمون كالخميني وأتباعه، وأبو الأعلى المودودي، وقدموا خطابات مختلفة عن بعضها لكنها تلتقي في الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول، وبخاصة إلى القرآن، وإلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادراً على تقديم الحلول للمشاكل التي يطرحها العالم المعاصر، وهم يطرحون ذلك في مواجهة المجتمعات التي وضعت نفسها منذ مئة عام في مدرسة الغرب ولم تحقق النجاحات المطلوبة.. فهل نشهد نهضة دينية؟ أم استخداماً سياسياً للدين".

á á á

كتب بيرك أربعين كتاباً جميعها عن العروبة والإسلام ما عدا كتابين

وكان آخر كتبه "ويبقى هناك مستقبل"، وهو حوار طويل بعد إصداره الترجمة الجديدة للقرآن، يُعدّ وصيته الأخيرة.

روجيه غارودي

"ليس ثمة - كما يعلم القرآن الكريم وكما عاش المتصوفة بحب، كالرومي، وابن عربي، أو كبير - سوى إيمان واحد، أولي أبدي، يولّد، عبر الثقافات المختلفة، تعدداً في الأديان".

مفكر ومستشرق فرنسي من مواليد مدينة مرسيليا بفرنسا عام 1913، التحق بالجيش الفرنسي عام 1939 وانتخب نائباً في الجمعية الوطنية الفرنسية عام 1945 وظل فيها حتى عام 1962. درس الفلسفة وحاز على الدكتوراه.. ابتدأ حياته بالانتماء إلى الحزب الشيوعي بعمر العشرين وبقي فيه حتى إسلامه عام 1982. له مؤلفات عديدة في الإسلام منها الإسلام الحي، الإسهام التاريخي للحضارة العربية الإسلامية، وعود الإسلام، الإسلام في الغرب، من أجل إسلام القرن العشرين.

من كتابه الإسلام (ترجمة وجيه أسعد، صادر عن دار عطية) أقتطف بعض السطور عن اللقاء المسيحي الإسلامي:

- إن التذكير القرآني بعيسى المسيح سببه لقاء روحي عميق بين الإسلام والمسيحية، ولدى الصوفيين المسلمين على وجه الخصوص، الذين يعبّرون عن أبعاد الحب في الإسلام، بقصائد طويلة. وهذا التصور، تصور الحب، ناجم عن الفكرة الرئيسة للرؤية الإسلامية: "التوحيد" أي وعي الإنسان بأنه لا وجود له إلا بالله ولا يتصرف إلا بالله، وذلك أمر يستتبع، كما في المسيحية، التجرد من "الأنا الصغيرة" ليتاح المكان كله فينا لله، للواحد، للكل.

ذلك هو أساس هذه الوحدة العميقة بين الصوفية المسيحية والصوفية الإسلامية التي ستبلغ أوجها في الأخوة الروحية بين ابن عربي والقديس يوحنا الصليب (جان دو لاكروا) مع فارق زمني بينهما مدته ثلاثة قرون. هذا الحب، حب الله، بالنسبة لابن عربي، يتجاوز كل خوف من قصاص وكل أمل في مكافأة، ويكتب ابن عربي قائلاً: "إلهي، حبك لا يمكن بلوغه بأي عقاب، ولا يكبر بالثواب حبك، يا ربي". "هو الذي خلقني: إنه فعل حب متجدد دائماً". وبشكل مشابه تكتب القديسة تريز دافيلا هذا النشيد الروحي:

"حتى لو لم يكن ثمة فردوس ولا جحيم، فأنا أعرف يا إلهي أنني سأحبك أيضاً. وأن حبك سعادتي بقدر ما هو واجبي.. لا تمنحني إذن شيئاً ولو توسلت إليك. فالحب الذي أكنّه لك لا يحتاج إلى أمل".

إدوارد سعيد

لإدوارد سعيد المتوفى مؤخراً كتب كثيرة عن الاستشراق ومواقف أكثر بخصوص الدول العربية والإسلامية وخاصة موقفه السياسي من القضية الفلسطينية. ولد إدوارد عام 1936 في القدس، وهاجر في صباه إلى الولايات المتحدة وهناك درس في مدارسها وجامعاتها وأصبح أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن في جامعة كولومبيا، نيويورك. له أكثر من ثلاثة عشر كتاباً مترجماً إلى العربية أشهرها، الاستشراق، العالم والنص والناقد، بدايات، الثقافة والإمبريالية، خارج المكان، الإسلام الأصولي، نهاية عملية السلام.. وهو يعد من أبرز المدافعين عن قضية فلسطين في الولايات المتحدة وله كتب ومقالات في النقد الأدبي والإنسانيات والدراسات الإقليمية والأدب المقارن.

لا يمكننا إعتباره مستشرقاً بالمعنى الكامل لأنه عربي الجنسية لكن حياته في أميركا مدافعاً عن العروبة والإسلام ومعرًّفا الغرب على القضايا العربية والإسلامية تجعله من الخبراء العالميين الإيجابيين نحو الشرق والدين الإسلامي. لقد أحدث كتابه الاستشراق ضجة كبيرة وترجم إلى 26 لغة وهو بشكل عام ينظر بطريقة سلبية للاستشراق ونتائجه ويصل إلى درجة اتهام المستشرقين بالتمهيد والتعاون مع الاستعمار الغربي للدول العربية والإسلامية.

من كتابه الإسلام الأصولي أقتطف بضعة سطور لألخص التفكير العام لإدوارد دون أن أتطرق للمقالات الكثيرة التي كتبت رداً على هذه المواقف:

"لقد تلا الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830 فترة كادت تقارب العقدين قام خلالها الباحثون الفرنسيون بتحويل دراسة الشرق من علم أثري قديم إلى علم عقلاني. وكانت هناك طبعاً حملة نابليون واحتلاله لمصر عام 1798، وقد أعد لحملته بضم جماعة رفيعة المستوى من العلماء حتى يضمن لمشروعه المزيد من الفعالية. ولكن رأيي هو أن احتلال نابليون لمصر القصير الأجل كان نهاية فصل في كتاب، وبدأ فصل جديد مع تولي سيلفستر دي ساسي شؤون المؤسسات الفرنسية للدراسات الشرقية، وتلك حقبة طويلة أصبحت فرنسا خلالها زعيمة الاستشراق في العالم. وبلغت ذروة هذا الفصل بعد ذلك حين احتلت الجيوش الفرنسية الجزائر عام 1930.

لا أرغب على الإطلاق أن أدلي بوجود علاقة سببية بين هذين الحدثين ولا أن أتبنى النظرة المهاجمة الناقدة للفكر القائلة أن كل الدراسات العلمية تقود بالضرورة إلى العنف والعذاب. كل ما أريد أن أقوله هو أن الإمبراطوريات لا تولد بين عشية وضحاها وهي لا تنظم وتحكم في الأزمنة الحديثة ارتجالياً. إنني أشك في قدرة إنكلترا على احتلال مصر بمثل تلك الطريقة المؤسسة جيداً ولتلك المدة الطويلة

لولا ذلك الاستثمار المكين في الدراسات الشرقية الذي كان أوائل رواده علماء بحاثة على غرار إدوارد وليام جونز.

أما المثال الثاني فهو مثال معاصر.. فإنه من الواضح أن الشرق الإسلامي في غاية الأهمية اليوم بسبب مصادره وموقعه الجغرو - سياسي. وإن الولايات المتحدة ما انفكت منذ الحرب العالمية الثانية تحتل مواقع السيطرة والسيادة في العالم الإسلامي التي سبق لبريطانيا وفرنسا أن احتلتها.. ولم يسبق أبداً أن غطى الإعلام أخبار أي موقع دولي مضطرب بمثل ما حظيت به إيران من متابعة فورية ومنتظمة. لذلك ظهرت إيران كأنها موجودة في حياة الأميركيين لكنها عميقة الغربة عنهم، مع كثافة شعورية حادة لم يسبق لها مثيل.

لا نبالغ بالقول إن العرب والمسلمين تتم تغطيتهم الإعلامية أساساً بوصفهم مورّدي بترول أو إرهابيين محتملين. أما تفاصيل الحياة العربية - الإسلامية والكثافة الشعورية الإنسانية وزخمها النابض فلم يدخل إلا النزر اليسير منها حتى في وعي أولئك الذين احترفوا تغطية العالم الإسلامي والإبلاغ عنه...

وليس من قبيل المصادفة أن يكون الكلام الحديث عن تدخل الولايات المتحدة في الخليج عسكرياً، أو النقاشات الجارية بشأن قوات الانتشار قد سبقتها فترة من العرض العقلاني للإسلام عن طريق التلفزيون الهادئ وبواسطة الدراسة الاستشراقية "الموضوعية"!!

á á á

طبعاً هناك الكثير من المفكرين العالميين الكبار الذين لا يقبلون آراء إدوارد سعيد بل يرون في كلماته إيذاءً لروح العمل الاستشراقي ونيته العلمية الصافية في معظم الحالات.. كما يأخذون عليه حصر الشرق في الشرق الأوسط بينما كان الاستشراق يهتم بالتراثات التركية والفارسية والسامية بشكل عام..

فرانسيسكو غابريلي

مستعرب إيطالي من مواليد 1904، شغل منصب مدير معهد الدراسات الإسلامية في جامعة روما، له عدة كتب عن الإسلام منها: "التاريخ والحضارة الإسلامية" (1947)، "محمد" صدر عام 1965.

وهو يؤمن بالاستشراق ويدافع عنه ويرجو من المفكرين العرب أن يتبنوا الطرق المنهجية في البحث العلمي.

يقول: "من الخطأ والمغالطة أن نؤكد أن الباعث الوحيد والأساسي لاهتمام أوروبا بالعالم الشرقي من النواحي التاريخية واللغوية والأدبية والدينية كان مرتبطاً بالمخططات السياسية والاقتصادية للاستعمار" [8] .

"وعلى الرغم من أني ابن هذا الغرب ومرتبط بحضارته بكل حواسي ومشاعري إلا أني كنت دائماً أشعر بمدى عظمة هذه الحضارة العربية الإسلامية، ومدى شرفها وكرامتها بصفتها إحدى المكونات الشرقية لتاريخ البشرية" [9] .

هنري كوربان

مستشرق فرنسي الجنسية، كان أستاذاً محاضراً في جامعتي السوربون وطهران ورئيساً للمعهد الفرنسي - الإيراني، عاش سنين طويلة في إيران واطلع على المخطوطات والوثائق الإسلامية هناك وعقد صداقات عميقة مع رجال الفكر والدين كالعلامة السيد محمد الطباطباني (صاحب تفسير الميزان). قضى كوربان حوالي ثلاثة عقود يدرس المبادئ الشيعية أو مذهب التشيع، ويعتبر من أهم الدارسين النزيهين المنصفين الذين قدموا خدمات جلى في تعريف العالم الغربي على المذهب الشيعي في الإسلام. بشكل عام كانت الصورة القديمة لدى الغرب عن الشيعة أنهم فرقة منشقة عن الإسلام اختلفت مع بقية المذاهب على قضايا سياسية أهمها الخلافة والحكم. وكانت المصادر التي يستقي منها المستشرقون هي مصادر أهل السنة في فهم الإسلام ومذاهبه. وقد سعى كوربان لفهم قضيتي الولاية والإمام المهدي في المذهب الشيعي. يؤمن أتباع التشيع بعودة الإمام المهدي بعد ظهور عدة دلائل وإشارات بغية إحياء سنة الرسول من جديد.

يقول كوربان: "في عقيدتي أن التشيع هو المذهب الوحيد الذي حفظ، بشكل مستمر، رابطة الهداية بين الله والخلق، وعلاقة الولايات حية إلى الأبد. فاليهودية أنهت العلاقة الواقعية بين الله والعالم الإنساني في شخص النبي موسى، والمسيحية توقفت بالعلاقة عند المسيح، أما أهل السنة من المسلمين فقد توقفوا بالعلاقة المذكورة عند النبي محمد، وباختتام النبوة به لم يعد ثمة استمرار في رابطة العلاقة (في مستوى الولاية) بين الخالق والخلق. يبقى التشيع المذهب الوحيد الذي آمن بختم نبوة محمد، وآمن في الوقت نفسه بالولاية - وهي العلاقة التي تستكمل خط الهداية، وتسير به بعد النبي - وأبقى عليها حية إلى الأبد".

ويقول في مكان آخر:

"ما تحصّل لي من خلال مطالعاتي وبحوثي العلمية، كوني مستشرقاً مسيحياً بروتستانياً - أنه يجب النظر إلى حقائق الإسلام ومعنوياته من خلال الشيعة، الذين يتحلّون برؤية واقعية للإسلام".

وقد بذل كوربان جهده لتعريف العالم الغربي بمذهب التشيع على النحو الذي يليق به ويتسق مع واقعية هذا المذهب، كما يقول هو نفسه.

ومن أعمال كوربان اهتمامه بمؤلفات الميرداماد، والشيرازي، والسهرودي (مؤسس حكمة الإشراق في الإسلام). ومن كتبه: كتاب (عن الإسلام في إيران - مشاهد روحية وفلسفية).

ومن الجدير بالذكر أن كوربان أحبّ المذهب الشيعي وأتباعه بعد كل تلك السنين الطويلة التي قضاها في رحابهم، وصار واحداً منهم عام 1978. وقد توفي عام 1980.

ويقول عنه العلامة الطباطباني: "كان كوربان رجلاً سليم النفس يتسم

بالموضوعية والإنصاف، وغالباَ ما كان يقرأ أدعية الصحيفة المهدوية وهو يبكي".

á á á

من إنجازات كوربان نذكر أيضاً إنشاء "المكتبة الإيرانية" وهي منشورات محققة تحقيقاً نقدياً لمؤلفات أساسية بالفارسية في ميدان التصوف والفلسفة الإشراقية. وتعد من أعظم أعمال النشر المحقق في ميدان الدراسات الإسلامية.

á á á

إن إنتاج كوربان قد تمركز في شخصية السهرودي المقتول، وكان يؤمن بالتحالف بين مدرسة الإشراق عند السهرودي، ومدرسة ابن عربي، وقد أصدر كتاباً بعنوان "التخيل الخالق في تصوّف ابن عربي" (1958). كما قد قادته نزعته الصوفية العرفانية إلى دراسة مذهب الإسماعيلية فنشر وترجم ثلاثة كتب إسماعيلية.

á á á

فيليب حتّي

1886-1978

لبناني الأصل، نال درجة الدكتوراه في التاريخ عام 1915 في جامعة كولومبيا الأمريكية، وعمل هناك لخمس سنوات ثم عاد إلى بيروت ومكث حتى عام 1925، حين سافر إلى أمريكا من جديد ليدرس مادة التاريخ في جامعة برنستون، وهناك أقنع الإدارة بإدخال مواد تدريس اللغة العربية والأدب العربي والدين الإسلامي. تخرج على يديه قسطنطين زريق وجبرائيل جبور. ويعتبر رائد المدرسة الحديثة في التاريخ العربي وأول مؤرخ لبناني حديث.

له مؤلفات كثيرة عن تاريخ العرب، وتاريخ لبنان وسوريا وفلسطين.

يقول في أهمية العرب التاريخية:

"ليس في شعب آخر، قام في القرون الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدم البشرية، فبينما كان فلاسفة العرب منكبين على دراسة تآليف أرسطو، كان شارلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم. وبينما كان علماء العرب في قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة ويعودون إلى بيوتهم فينعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والأناقة، كان الأساتذة والتلاميذ في جامعة أكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهواني التي يجب الترفع عنها".

ألبرت حوراني

(1915-1993)

لبناني الأصل، درس في لندن الفلسفة والاقتصاد والسياسة، وفي عام 1936 زار لبنان وعمل سنتين مدرساً في جامعة بيروت الأمريكية، وهناك تواصل مع شارل مالك وقسطنطين زريق. عاد بعدها إلى لندن حتى عام 1948 حين زار لبنان وسورية والعراق وشرق الأردن.

كان له اتصالات مع المؤرخ أرنولد توينبي والمستشرق هـ. ر. جب.

في الستينات والسبعينات عمل في أمريكا في جامعة شيكاغو ثم جامعة هارفرد. له كتب كثيرة عن الشرق، من أهمها الإسلام في الفكر الأوربي، وتاريخ الشعوب العربية.

يقول ألبرت عن نجاح الإسلام:

"عندما يصل اللاهوتي الإنكليزي فابوريس إلى الإسلام فإنه منذ البدء يأخذ في الاعتبار خمسة تفسيرات خاطئة أو ناقصة لنجاح الإسلام. هذا لا يمكن تفسيره بمجرد قوة جيوش الإسلام: فمن أين جاءت تلك القوة إذا لم تكن من صلابة إيمان المسلمين وطبيعته؟ ولم تكن أيضاً نتيجة للسذاجة البشرية لأن هذا لا يفسّر لماذا بقي الإسلام حياً وازدهر بقوة؟

ولا يمكن القول بأن الإسلام بكامله قد أخذ من العهدين القديم والجديد، فلا بد لمحمد على أقل تقدير من أن يكون قد استلهمهما ويجب أن يكونا قد استحوذا عليه.

إن شخصية النبي وقوة إيمانه الراسخ وتمجيده، لا تستطيع منفردة أن تشكل السبب الوحيد. يجب أيضاً أن يظهر لماذا كان لهذه الشخصية مثل هذا الأثر العظيم الدائم على البشرية. وهذا هو الأصعب شرحه لأن الدين الذي بشّر به يشجب كل عبادة للبشر.

هل هناك تفسير آخر؟

هل يمكن أن ينظر إلى النجاح الذي حقّقه الإسلام كما لو أنه حكم الله على الشعوب الخاطئة: الشعوب المسيحية التي فقدت الفضائل المسيحية وغرقت في عبادة الصور والاحتفالات الدينية والنظريات الفلسفية، والوثنيين الذين لم يعرفوا المسيحية، أو أنهم عرفوها ولكنهم رفضوها؟

أوليفيه روا

في كتابه "عولمة الإسلام" يرى المفكر الفرنسي أوليفيه روا، الذي يعد من أبرز المتخصصين الفرنسيين في الحركات السياسية الإسلاموية المعاصرة في الشرق الأوسط وأفغانستان، يرى أن هناك انفصالاً بين النجاح الروحاني والإنساني للدين الإسلامي والفشل السياسي والأيديولوجي.

فبعد كتابه "فشل الإسلام السياسي" يعتقد أوليفييه "أن ظاهرة بن لادن والإرهاب الذي يرتكب باسم الإسلام ما هما إلا نتائج ناجمة عن فشل مشروع إنشاء دولة إسلامية".

وإن تبني السياسة للأصولية الدينية كما في (الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر، والجماعة الإسلامية في باكستان، والإخوان المسلمين، وحسن الترابي في السودان، والثورة الإيرانية..) لبناءٍ مجتمع إسلامي انطلاقاً من الدولة.. إن هذا التبني يفشل واقعياً وتاريخياً.

مارشال هدجسون

في كتابه "مغامرة الإسلام" يرى هدجسون تاريخ الإسلام ضمن إطار أوسع باعتباره تتمة لحضارة أقدم ظهرت في الهلال الخصيب وإيران ومصر، وهذا التاريخ الجديد يعبر عن نفسه بلغة جديدة هي العربية وباستجابة عقلية نحو القرآن.

ويرى هدجسون أيضاً أن الحضارة الإسلامية هي التي سيطرت على عالم المدن والمناطق الزراعية حتى القرن الثامن عشر، وبعده بدأ التحدي الكبير من الحضارة الغربية. ومن النقاط الهامة الأخرى فكرة النظر إلى التاريخ الإسلامي وافتراض الأراضي العربية الممتدة إلى شرق المتوسط على أنها مركز المدنية الإسلامية، ويطرَحُ هدجسون فكرة المنطقة الإيرانية - السامية التي تشكل البلاد العربية جزءاً منها حيث ظهرت حضارة رفيعة في المرتفعات الإيرانية عبّرت عن نفسها بالفارسية وكانت مركز الثقل حتى الأزمنة الإسلامية المتأخرة. ويعتقد هدجسون أن المستشرقين حاولوا أن يجعلوا مصر مركز العالم الإسلامي وينظروا إلى الحضارة من خلالها، وكذلك من خلال المفكرين العرب الذين دعوا إلى التجديد الإسلامي كجمال الدين والأفغاني ومحمد عبده والمفكرين العرب الداعين للقومية العربية.

مفكرون آخرون

أدريانس ريلند:

مستشرق هولندي من القرن الثامن عشر من أهم مؤلفاته كتابه "في الديانة المحمدية" باللغة اللاتينية، وفيه عرض أمين للعقيدة الإسلامية كما يفهمها المسلمون وتصحيح للأفكار المغلوطة السائدة في أوروبا في العصور الوسطى عن الإسلام والقرآن وإن آراءه منصفة للإسلام وكتاباته موضوعية.

جورج سيل (1697 - 1736):

مستشرق إنجليزي اشتهر بترجمته للقرآن إلى الإنكليزية. وهي ترجمة واضحة ومحكمة وقد راجت رواجاً عظيماً طوال القرن الثامن عشر، وترجم عنها القرآن إلى الألمانية في 1746. وكان جورج سيل منصفاً للإسلام بريئاً من التعصب الديني.

ميشيل جان دي خويه (1836 - 1909):

مستشرق هولندي كتب بحثاً عن "رسالة محمد" دافع فيه عن رسالة النبي ضد ما كتبه في هذا الموضوع كل من أشبرنجر وباروتس.

هاميلتون جب (1895 - 1971):

مستشرق إنجليزي حاز على شهرة كبيرة، وقد كتب في الأدب العربي، والتاريخ الإسلامي، والأفكار السياسية والدينية في الإسلام. من كتبه "المحمدية 1949" و"الاتجاهات الحديثة في الإسلام" 1974.

إروين جريف (1914 - 1970):

مستشرق ألماني تخصص في الفقه الإسلامي.

هنري دي بولانقلييه (1658 - 1722):

مؤرخ فرنسي، لم يكن يعرف العربية لكنه كتب كتاباً بعنوان "حياة محمد" معتمداً على پوكوك ومراتشي، طبع عام 1730 ويتناول حياة النبي حتى الهجرة مبدياً إعجاباً شديداً بالنبي والإسلام.

ليون كيتاني (1869 - 1935):

مستشرق إيطالي اشتهر خصوصاً بكتابه "حوليات الإسلام" وهو أوسع تاريخ للإسلام في عصر النبي والخلفاء الراشدين، كذلك كتب "معجم الأعلام العربية".

ثيودور نيلدكه (1836 - 1931):

يعد شيخ المستشرقين الألمان، حصل على الدكتوراه عام 1856 برسالة عن "تاريخ القرآن"، وقد خص هذا الموضوع بدراسة عميقة أخرى.

سلفستر دي ساسي (1758 - 1838):

وهو شيخ المستشرقين الفرنسيين، اقترح تأسيس المجلة الآسيوية في 1822، والجمعية الآسيوية، فكان أول رئيس لها وقد أنجز الكثير من الكتب في الآداب الشرقية والنحو العربي وتخرّج على يديه أو تتلمذ له عدد كبير من المستشرقين المعروفين.

غوستاف غرونباوم (1909 - 1972):

مستشرق نمساوي، شغل منصب أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا بين عامي 1957 - 1972. يدور إنتاجه حول الحضارة الإسلامية ومن أهم أعماله "الإسلام في العصر الوسيط".

ومن كتبه التي تناولت موضوع التلاقي بين العالم الإسلامي والحضارة الأوروبية نذكر: "الإسلام الحديث: البحث عن هوية حضارية".

ريجي بلاشير (1900 - 1973):

مستشرق فرنسي ترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية، مع مقدمة طويلة، وقد رتب القرآن في هذه الترجمة وفقاً لما ظنه أنه ترتيب نزول السور والآيات. ثم في طبعة أخرى عاد إلى الترتيب الأصلي الوارد في المصحف.

كذلك كتب كتاباً صغيراً بعنوان "مشكلة محمد" لخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا عن حياة النبي.

لويدجي بونللي (1865 - 1947):

مستشرق إيطالي ترجم القرآن إلى الإيطالية وهي ترجمة حرفية دقيقة.

جوزيف شاخت (1902 - 1969):

مستشرق ألماني متخصص في الفقه الإسلامي.. من كتبه "الإسلام" 1931: وهو مختصر في العقائد الإسلامية، "بداية الفقه الإسلامي" 1950: درس فيه مذهب الإمام الشافعي استناداً إلى "الرسالة" للإمام الشافعي.

كان شاخت حريصاً على الدقة العلمية بعيداً عن الآراء الافتراضية لذلك كانت دراساته ملتزمة التحقيق العلمي والعمل الموضوعي.

برنارد دي ڤو (1867 - 1953):

مستشرق فرنسي كتب "عقيدة الإسلام" عام 1909، و"مفكرو الإسلام" في خمسة أجزاء كما كتب عن الغزالي وابن سينا..

سنوك هرخرونيه (1857 - 1936):

مستشرق هولندي معروف حصل على الدكتوراه في الفيلولوجيا السامية عام 1879 برسالة عنوانها: "موسم الحج في مكة" وفي عام 1884 قام برحلته المشهورة إلى الجزيرة العربية ووصل إلى مكة عام 1885 تحت اسم مستعار هو "عبد الغفار" وأقام هناك ستة أشهر كتب بعدها كتابه عن مدينة مكة. وابتداءً من 1889 عمل في خدمة إدارة المستعمرات الهولندية في إندونيسيا حيث تعرّف على الإسلام والمسلمين أكثر. وفي عامي 1914/1915 ألقى "محاضرات عن الإسلام" في أميركا عرض فيها نشأة الإسلام والتطور الديني، والتطور السياسي للإسلام، وكذلك الإسلام والفكر الحديث.

أوجست فيشر (1865 - 1949):

مستشرق ألماني اختص باللغة العربية: نحواً وصرفاً ومعجماً وله الكثير من الدراسات القرآنية وحول النبي.

رينولد نيكلسون (1868 - 1945):

مستشرق إنجليزي معروف، ويعد بعد ماسينيون من أهم الباحثين في التصوف الإسلامي. أعظم أعماله نشره لديوان "مثنوي معنوي" لجلال الدين الرومي، وله كتب أخرى مهمة مثل "تاريخ العرب الأدبي" و"الصوفية في الإسلام" و"أهداف التصوف الإسلامي".

ألويس أشبرنجر (1813 - 1893):

مستشرق نمساوي الأصل، اشتهر بكتابه عن حياة النبي محمد.. وقد حضّر له بسفره إلى الدول العربية فأصدر القسم الأول بعنوان: "حياة محمد، من المصادر الأصلية" عام 1851.

ثم أصدر كتاب "حياة محمد وتعاليمه" في 3 أجزاء بين عامي 1861 - 1865 باللغة الألمانية.

رودولف أشتروتمان (1877 - 1960):

مستشرق ألماني اهتم بالمذاهب المستورة في الإسلام كالزيدية، نسبة إلى زيد بن علي بن أبي طالب، وهي فرقة شيعية معتدلة تعترف بخلافتي أبي بكر وعمر. كما اهتم رودولف بالفروع المغالية من الشيعة، وبعض الفرق الشاذة في الإسلام.

أوتو برتسل:

مستشرق ألماني اهتم بعلم الكلام في الإسلام، كما كتب بحثاً بعنوان "محمد بوصفة شخصية تاريخية".

á á á

الباب السابع: أقوال المفكرين المسيحيين في الإسلام والمسلمين

أقوال المفكرين المسيحيين في الإسلام والمسلمين

* "لا ريب أن محمداً من كبار المصلحين الذين خدموا المجتمع البشري ويكفيه فخراً أنه هدى أمة كبيرة إلى نور الحق".
الأديب الروسي تولستوي
* إن حياة مثل حياة محمد، وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه، وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وإعلاء كلمته ورباطة جأشه، لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، إن كل ذلك لدليل على أنه لم يكن يضمر خداعاً، أو يعيش على باطل.. فهو فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع وهادٍ للإنسانية إلى العقل، ومؤسس دين لا فرية فيه.. ومنشئ عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة روحية في السماء.. فأيّ رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك؟!
الشاعر الفرنسي لامارتين
* "مبادئ القرآن ليست إلا مبادئ المسيحية مبدلة، ولكن هذا التغيير لم يفقدها طبيعتها، إن هذه العبادة مليئة بالفضائل، وأحب هذا الشعب لأنه شعب صلاة".
لامارتين من كتاب "رحلة في الشرق"
* "لا يمكن أن نجد ديناً يحتل العلم والمعرفة فيه محلاً بارزاً كما كان الأمر في الإسلام".
كونستان جورجيو
* إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من اللاشيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني.. وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لفريدة من نوعها.. لدرجة تجعلها أعظم من أن تقارن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين: كيف حدث هذا؟! إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفككة شعباً عظيماً، آخت بينه العقيدة، وبهذا الروح القوي الفتيّ شق العرب طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول نفسه.. أوَليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟!
المستشرقة زيغريد هونكه من كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب"
* "عندما ندرس أعمال المسلمين العلمية واكتشافاتهم نرى أنه ليس من شعب استطاع مجاراتهم بنفس الوقت القصير وبنفس الوفرة الهائلة وعندما نمتحن فنهم ندرك أنه يملك أصالة لا سابق لها".
غوستاف لوبون

* "إن أكبر سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة الإسلامية هو اتصافهم بالشيم العالية اقتداءً بالنبي محمد".

الأديب الفرنسي ڤولتير

* "ذات يوم عندما كنت ضابطاً في الجيش الفرنسي في الجزائر خرجت أجوب الصحراء في ولاية وهران وخلفي ثلاثون من الفرسان العرب.. وحين حان وقت الصلاة ترجلوا عن جيادهم واصطفوا لأداء صلاة العصر جماعة واحدة، فكنت أودّ لو أن الأرض انشقت وابتلعتني، إذ جعلت أشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج بتحركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع "الله أكبر.. الله أكبر" فكان لهذا الاسم الإلهي أثر عجيب في نفسي وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه بسبب الحياء والانفعال.. كنت أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة، يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً وأعز نفساً".

هنري دي كوربان، من كتاب "الإسلام خواطر وسوانح"

* الإسلام هو دين الديموقراطية وحرية الفكر.. هو دين العقلاء.. وليس فيما أعرف من الأديان نظام اجتماعي صالح كالنظام الذي يقوم على القوانين والتعاليم الإسلامية. الإسلام هو الدين الوحيد الذي يبدو لي أن له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيرة، وهو صالح لكل العصور".

الكاتب الإيرلندي "برنارد شو"

*"إن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلّفه أي عقل في أي زمان ومكان".

أرنولد توينبي

* "أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرة الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي".

الكاتب الفرنسي أناتول فرانس من كتاب "الحياة الجميلة"

* "المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية تتمثل في أنهم تولوا كتابة أعظم الدراسات قيمة وأكثرها أصالة وعمقاً".

جورج سارتون

* كل نسل يستفيد أولاً من الكنز الذي تركه من سبقوه ثم يزيده إن كان عنده استعداد لذلك.. وما من أمة حادت من هذا القانون.. ففي العصر الحديث الذي كانت فيه عناصر الحضارة غير معروفة بالمرة كان يظن أنها غير مدينة لأمم أخرى.. لكن العلم المتقدم أثبت أن الفن اليوناني أخذ عن الفن المصري وأن الفن المصري أخذ عن بلاد المسلمين".

باسكال

* "إن الديانة المحمدية ديانة سمتها الأخلاق والصبر والاستسلام

والإحسان، ومن طبيعتها التسامح، فكل هذه الأوصاف تجعلها صالحة لانصهار ضروري داخل البلدان التي تحتلها".

لامارتين

* "فيلسوف، خطيب، مبشر مشرع محارب، غازي أفكار، مصلح للفكر الإنساني. موحٍ لأركان عبادة عقلانية دون صور، مؤسس لعشرين إمبراطورية دينوًية ولإمبراطورية روحية، هذا هو محمد".

لامارتين من كتاب "عظماء الشرق"

* "إن الإسلام دين عالمي له مكانته المرموقة ويتميز بنمط حياة وحضارة وأفكار وعقائد ومنظومة مفاهيم تركت بصماتها على الحضارة العالمية كلها، وثمة في الإسلام ولدى المسلمين طاقات أخلاقية هائلة وعقول نيرة وثقافية رائعة وقدرات روحية لا تنضب".

ليدفري سيكينانين، بروفسور روسي اختصاصي في العلوم الإسلامية

* "محمد شخص خارق، صاحب مواهب رائعة وبراعة عميقة.. وقد وهب فكراً رائعاً بحيث يستطيع أن يواجه عواصف المحنة بمحض قوة عبقريته الجريئة والخصبة".

جون بامبتون 1748

يعتقد إدموند غيبون بأن محمداً كان ذا عبقرية أصيلة ومتفوقة، تشكلت في العزلة، فرغم أن المحادثة تغني الفهم، فإن العزلة مدرسة العبقرية، وإن القرآن قد جاء في هذه العزلة وهو دليل مجيد على وحدة اللّه.

الباب الثامن: الأصولية

الأصولية

هي رفض الآخر المختلف، وادعاء امتلاك الحقيقة الكاملة وامتلاك اللّه.. وبسبب ذلك تبرر لذاتها الأعمال العنيفة وإنهاء الآخر بطرق قاسية لتطهير العالم من كل ما هو مختلف عن ذلك التيار الحامل للحقيقة.

ورغم الانفتاح الثقافي داخل أوروبا وأميركا إلا أن هناك تيارات أصولية مخفية يمكن أن تدمر تلك المجتمعات. وينطبق مفهوم التيار الأصول المدمر على كل الثقافات بما فيها الهندية والصينية وبالتأكيد العربية والإسلامية.

الأصولية الشيوعية:

هيمنت على مناطق واسعة في العالم لمدة تزيد عن نصف قرن وكانت كتابات فلاديمير لينين وكارل ماركس بمثابة الكتاب المقدس للشيوعيين. وقد دعت الأصولية الشيوعية إلى الإلحاد وأغلقت المساجد والكنائس وحولتها إلى أندية.

الأصولية الرأسمالية:

ويرى مفكروها أن الحل الأمثل للمشاكل الإنسانية هو الإيمان بالقوى الاقتصادية التي تحرك الأسواق العالمية. وقد استطاعت مؤسسات عالمية كبيرة في أميركا وبريطانيا وألمانيا وكندا أن ترسم استراتيجية عمل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وأن تسيّر اقتصاديات دول العالم الثالث.

أصولية مسيحية، صهيونية مسيحية:

يقول ميلتون في قصيدته (الفردوس المفقود):

"إن اللّه سيشق لليهود طريق البحر ليعودوا فرحين مسرورين إلى وطنهم، كما شق لهم طريق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم إلى أرض الميعاد".

وكتب تشارلز تشرشل عام 1841م، وهو أحد أنصار الصهيونية المسيحية، رسالة إلى رئيس المجلس اليهودي في لندن يقول:

"إن استعادة اليهود لوجودهم كشعب في فلسطين أمر ميسور إذا توافر عاملان اثنان: أولهما أن يتولى اليهود أنفسهم وبالإجماع طرح موضوع العودة على الصعيد العالمي، وثانيهما أن تبادر القوى الأوروبية إلى دعمهم تحقيقاً لهذا الهدف".

وهذه الرسالة من الدعوات الأولى لقيام الصهيونية اليهودية.

á á á

عبر القرون الماضية كان هناك دائماً بين الأميركيين الإنجيليين هاجس التشبه بإسرائيل العهد القديم.. فقد اعتبروا العالم الجديد بمثابة كنعان الجديدة ورأوا في ملك بريطانيا آنذاك جيمس الأول فرعوناً جديداً يضطهدهم وهكذا فبريطانيا التي هربوا منها تشبه مصراً.. واقترح الرئيس جيفرسون اتخاذ رمزاً لأميركا يمثل أبناء إسرائيل تظللهم غيمة في النهار وعمود من النور في الليل (كما ورد في سفر الخروج في التوراة).

في القرن التاسع عشر كتب القس "وليم بلاكستون" (1841 - 1935) وهو من أبرز دعاة قيام إسرائيل في فلسطين، كتب كتابه "المسيح آتٍ" الذي صدر عام 1878م. وفيه يقترن مجيء المسيح الثاني أو عودة المسيح إلى الأرض بعودة اليهود إلى أرض فلسطين. واعتبره اليهود أب الصهيونية الأميركية لتشديده على عودة اليهود إلى أرضهم.

á á á

يوجد في الولايات المتحدة أكثر من 200 طائفة داخل المذهب البروتستانتي وهم بحدود مئة مليون أميركي.. وأكثر هذه الطوائف تشدداً في مفهوم عودة اليهود (صهيونية مسيحية) هي الطائفة التدبيرية (Indispensationalism) وأشهر دعاتها بات روبرتسون المبشر التلفزيوني المعروف، وجيري فالويل، وجيم بيكر، وآخرون.. وجميعهم يبشرون بعودة المسيح بعد إعادة بناء هيكل سليمان..

وبعضهم يرسمون تلك العودة على شكل حرب عظيمة بين الخير المطلق والشر المطلق ويسمونها "هرمجدون" حيث تتعرض إسرائيل لهجوم عنيف من الشعوب المجاورة (المسلمين) ويتحول 144 ألف يهودي إلى المسيحية ينتشرون لتحويل بقية الشعوب إلى المذهب الإنجيلي، وحين تبدأ الحرب يرتفع المؤمنون فوق أرض المعركة بينما تذوب البشرية الخاطئة في أتون المعركة، بعدها ينزل المسيح ومعه المؤمنون ويسودون الأرض لمدة ألف عام حتى قيام الساعة.

طبعاً يستغرب البعض كيف يمكن لملايين الناس من الشعب الأميركي أن يصدقوا أو حتى يستمعوا لهذه الأحاديث.. للأسف إنهم يعدون بالملايين!!

وإن هؤلاء المبشرين الإنجيليين يتدخلون في السياسة الأميركية إلى حد كبير ويجمعون التبرعات لتغذية صندوق الصهيونية المسيحية.

á á á

تعد المنظمات المسيحية الصهيونية بالعشرات منها ما يهتم بتمويل بناء المستوطنات اليهودية كالمصرف الأميركي المسيحي من أجل إسرائيل The American Christian Trust for Israel أو نشر البيانات المؤيدة لإسرائيل مثل مؤتمر القيادة الوطنية المسيحية من أجل إسرائيل The National Christian Leadership Conference for Israel ومنظمة الرعويات الإنجيلية TAV Evangelical Ministiers .

لكن في الوقت نفسه هناك منظمات معارضة مثل المجلس الوطني لكنائس

المسيح "National Council of the chamber of Christ" ويضم 34 طائفة وهو متعاطف مع الفلسطينيين وضد قيام إسرائيل والصهيونية المسيحية.

á á á

كان موقف الكنيسة الكاثوليكية من الحركة الصهيونية واضحاً منذ البداية فبعد المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897 ظهر بيان كنسي يقول:

لقد مرت 1827 سنة على تحقيق نبوءة المسيح بدمار القدس أما فيما يتعلق بإعادة بناء القدس بحيث تصبح مركزاً لدولة إسرائيلية فيتحتم علينا أن نضيف أن ذلك يتناقض مع نبوءات المسيح الذي أخبر مسبقاً بأن القدس سوف تدوسها عامة الناس حتى نهاية الزمن.

وفي رسالة بعثها البابا بيوس العاشر إلى ثيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية قال:

لا نستطيع أبداً أن نتعاطف مع هذه الحركة. نحن لا نستطيع أن نمنع اليهود من التوجه إلى القدس لكننا لا يمكن أبداً أن نقرّه.

وبعد صدور وعد بلفور صرح البابا بنديكت الخامس عشر قائلاً: لا لسيادة اليهود على الأرض المقدسة.

كما صرح البابا بيوس الثاني عشر في أيار 1948 قائلاً: "في الوقت الحاضر هناك قضية أخرى تحزننا وتدمي قلوبنا: إننا نعني بذلك قضية الأماكن المقدسة في فلسطين التي تعرضت لأحداث محزنة تؤدي يومياً إلى عمليات قتل وتدمير. فإذا كان هناك جزء من العالم عزيز على ضمير كل إنسان واعٍ ومتحضر فإن هذا الجزء هو فلسطين.

وحتى الآنً لم يعترف الفاتيكان بإسرائيل اعترافاً قانونياً.

أما الكنيسة الأرثوذكسية فموقفها مشابه.. ففي بيان عن مجلس كنائس الشرق الأوسط (الذي يضم ممثلين من الطوائف الثلاث في الشرق الأوسط) صدر كرد على اجتماع الصهيونية المسيحية الدولية في بال 1985، أدان ممثلو المجلس "استثمار المشاعر الدينية في محاولة لإضفاء صبغة قدسية على إنشاء دولة" وأعلنوا الالتزام بالعدالة والسلام في الشرق الأوسط والعالم و"ليس للمسيحية أي علاقة بهذه التُّرهات أي معركة هرمجدون وعودة المسيح..".

"إن التاريخ أشد تعقيداً، والحياة البشرية والمجتمع الإنساني أكثر تنوعاً وهذا التنوع هو أثمن من أن يختصر في خطة شاملة واحدة.

ومهما كان معنى الإيمان بالمسيح، فإنه لا يعني تهميش تاريخ الإنسانية غير اليهودي وغير المسيحي وتحقيره".

á á á

التبشير والتنصير

إذا كان من حق أي دين أن ينشر دعوته الإيمانية في قلوب الجميع فإن هذا الحق يتوقف عند حدود الحرية الشخصية.. لذلك فإن استخدام العنف المادي أو الفكري أو العسكري أو استعمال الإغراء المجبر على التغيير كالدعم المالي أو تأمين متطلبات الحياة مقابل التحول الديني، كل ذلك يعتبر إهانة لكرامة الإنسان وتحديداً لحريته التي يجب أن لا تكون مقيدة.

عبر القرون الماضية كان هناك دائماً تجاوزات من قبل المسيحيين والمسلمين لفهم الدعوة الإيمانية وغالباً ما تحولت إلى عمليات تبشيرية عنيفة.

لن أتحدث عن الخبرات الكثيرة المخجلة عبر التاريخ، ولن أذكر المحاولات الإسلامية لتحويل المسيحيين في الشرق أو الغرب إلى الإسلام، وسأقتصر على نموذج واحد من التبشير العنيف أو التنصير الإكراهي المرتبط بالقوى السياسية والعسكرية بشكل واضح.

ففي الجزائر بدأ الاحتلال الفرنسي عام 1830 باحترام دين الجزائريين وعاداتهم وتقاليدهم.. لكنه سرعان ما بدأ باستقبال المرشدين الدينين الذين وجدوا في الاحتلال العسكري فرصة لنشر طقوسهم على أنقاض الإسلام. وإذا كان الأسقف لافيجري يذكر بالخير من الجانب المسيحي التقليدي إلا أنه بالتأكيد من الأشخاص الذين عملوا على تغيير الحياة الثقافية والدينية في الجزائر بشكل إكراهي عن طريق المغريات المادية والمشاريع التي أسسها.

ففي عام 1874 أسس جمعية من الأخوة الذين يرتدون اللباس العربي لتأكيد انثقافهم في المجتمع الجزائري والذين سموا بالآباء البيض. وكان لافيجري يبرر مشروعه التنصيري بكون المجتمع الجزائري متخلفاً من الناحية الأخلاقية والثقافية، وسرعان ما بدأ يسعى لتوسيع عمله التبشيري إلى تونس بعد احتلالها عام 1891..

وأنشأ لافيجري قرى مسيحية أسكن فيها عائلات عملت في الزراعة والصناعات المحلية إلا أنها فشلت بسبب معارضة الإدارة الفرنسية في الجزائر خشية نشوب حرب عنيفة بين المبشرين والمسلمين، وكذلك بسبب الجزائريين المسلمين الذين عارضوا هذه المشاريع قائلين "إننا نفضل موت جميع أولادنا على تنصيرهم"..

á á á

ملاحظات عامة:

بدأت النزعات الأصولية في الدين المسيحي بالظهور منذ منتصف القرن السادس عشر بين أتباع المذهب البروتستانتي في أوروبا، وهذه

اليقظة البروتستانتية الأصولية هي التي أيقظت الوعي القومي اليهودي الذي شكل الأيديولوجية الصهيونية. وانتشرت الأيديولوجية الصهيونية المسيحية اليهودية في أوروبا وأميركا مؤثرة بشكل هائل في الحياة السياسية هناك وفي منطقة الشرق الأوسط.

إن الاتكاء على العهد القديم من الكتاب المقدس من قبل أتباع وأصحاب هذه الأيديولوجية قد سوّغ الكثير من القتل والدم والتشريد بحجة "عودة شعب الله إلى بلده لتحقيق النبوءات وعودة المسيح ونهاية العالم".. فهناك الملايين، خصوصاً من الأميركيين تؤمن بأن هذه هي مشيئة الله وهذا هو وعده لشعبه المختار".

ازدادت الأمور تفاقماً في العقود الثلاثة الماضية بعد انهيار الأيديولوجيات الأخرى وظهور الأصوليات الدينية المسيحية واليهودية والإسلامية.

á á á

إن الأفكار المسيحية الأصولية بدأت مع "الإصلاح اللوثري" الذي أدخل إلى المسيحية الاهتمام الشديد بالعهد القديم أو التوراة وكان لوثر نفسه يظن أن القيامة على الأبواب، وراح يقرأ التاريخ انطلاقاً من نبوءات التوراة وعلاقة الشعب اليهودي بالله... وهذه الفكرة "أي أن التاريخ أداة لتنفيذ هدف سماوي" قد تغلغلت في التفكير الغربي وأثرت في كثير من القرارات السياسية مثل وعد بلفور، وزير خارجية بريطانيا (1916 - 1919)، الذي كان متديناً ويؤمن بأن المسيحية "مدينة لليهودية ديناً لا يُقدَّر"، وكان بلفور يحقق "وعد الله لإبراهيم بإعطائه أرض كنعان ميراثاً أبدياً له ولأبنائه" ناسياً أن أبناء إبراهيم هم اليهود والمسيحيون والمسلمون.

á á á

إذن بدأت الظاهرة الأصولية المسيحية في القرن السادس عشر، وفيما كانت البروتستانتية تطالب بالتحرر من تقاليد الكنيسة الكاثوليكية وسلطة روما والبابا، كانت أيضاً تدعو إلى العودة إلى حرفية الكتاب المقدس والتمسك به كسلطة عليا، ومع ترجمته إلى لغات متعددة، دخل حياة الناس العاديين أكثر وبشرح دقيق ومدروس من قبل الوعاظ البروتستانتيين فهم معظم الغرب المسيحي أن عودة الشعب العبراني إلى الأرض التي أعطيت له كميراث هي الخطوة الأولى نحو مجيء المسيح. لكن الوعد يشمل مساحة كبيرة بين نهر النيل ونهر الفرات!! وابتدأت فكرة إسرائيل.

ونمت الأفكار الأصولية مع الزمن رويداً رويداً ودخلت إلى عقول كبار المفكرين والكتاب، وبالتأكيد السياسيين والرؤساء، ونشأت مذاهب متفرقة أشدها تطرفاً مذهب البيوريتانية (التطهرية) الذي ساد في بريطانيا في القرن السابع عشر، وفي القرن التاسع عشر استولدت

الظروف السياسية في المملكة البريطانية فكرة إيجاد دولة في الشرق الأوسط لحماية مصالحها هناك فكانت فكرة إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، وكان التفكيران الديني والسياسي يلتقيان بخصوص الشعب اليهودي وقد لمعت بعض الأسماء من المسيحيين المتصهينين أمثال اللورد شافتسبري (1801 - 1885) واللورد بالمرستون (1784 - 1865)، وتشرشل (1814 - 1877).

á á á

وفي أميركا، كان الكثيرون من الرواد الأوائل يحملون الأفكار البروتستانتية الأصولية وقد انعكس ذلك على أسماء الكثير من المستوطنات التي أصبحت ولايات أميركية بعد ذلك، وفي نمو عدد من الطوائف الأصولية كالإنجيليين المتجددين، والمعمدانيين المحافظين، وحواريي المسيح، وجمعيات الله، وكنيسة المسيح، ... وهناك الآن حوالي 70 مليون أميركي من المحافظين الجدد New Conservative الذين "ولدوا من جديد" بالمسيح والإنجيل، وهم يؤمنون بلاهوت القيامة والمعركة الحاسمة بين الخير والشر في هرمجدون ويستشهدون بسفر دانيال، ونبوءة حزقيال، ورؤيا يوحنا.

ويشكل الإنجيليون الجدد الجناح المحافظ للكنيسة البروتستانتية.

ومن المبشرين المشهورين في الجماعات الأصولية نذكر المبشر وليم بلاكستون، والقس بيلي غراهام، والقس هال ليندسي، والقس جيري فالويل.. وإن سماع أو قراءة مواعظهم عن "المسيح الآتي" يجعل أي إنسان "إنساني" أو "مؤمن" من أي دين ولو لم يسمع بالمسيح، يشك بهذا المخلص الآتي. فبالنسبة لهم سيدمر المسيح الأرض ويحرق السكان وسيموت ملايين بل مليارات الناس و"سيبلغ الدم شكائم الخيل لمسافة 200 ميل من القدس" وستنمحي بلاد بكاملها.. وبعدها سيعتنق المسيحية ثلث اليهود المتبقين (لأن ثلثيهم سيقتل في معركة هرمجدون) وهم 144 ألف شخص. وهكذا تقرأ الأصولية آيات من كتب عمرها أكثر من ألفي عام.. فهؤلاء الوعاظ يرتكزون على نبوءة حزقيال خصوصاً الفصلين 38 و39 ويقرأونهما كوصف لحرب نووية تفني أهل الأرض وتبقي على "المختارين".

تصل أصوات هؤلاء الوعاظ إلى الملايين من الشعب الأميركي وهم يشكلون الثقافة الدينية الشعبية لدى ثلث أو نصف الأميركيين.

أذكر الآن حديثي مع إحدى المريضات وكانت مصابة بسرطان الثدي، دخلت إلى غرفتها فرأيتها تقرأ في الكتاب المقدس (بالإنكليزية) وتبكي بغزارة.. ظننت أنها خائفة من الموت والألم والمعاناة فحاولت أن أهدئ روعها.. قلت ببساطة:

- يا سيدتي، الكتاب المقدس يعطي السلام والاطمئنان لأن الله رحيم وغفور ومحب للغاية..

نظرت إلي.. وقالت بحسرة:

- أنا حزينة لأنني لن أشهد يوم الرب.. سأموت قبل أن يأتي..
قلت: ماذا تقصدين.. كيف تعرفين متى يأتي؟!
ردت بثقة:
- كل النبوءات تدل أنه قد اقترب.. اقترب جداً.. والمسيح آتٍ.. على الأبواب..
أردت أن أشجعها فقلت بهدوء:
- ربما أحفاد أحفادنا لن يروه.. لقد سمعنا ذلك لألفي عام، وإن الله الذي خلق الحياة يحب الناس والأرض ويريد النمو والازدهار..
اندهشت وقالت باستغراب:
ماذا تقصد.. النبوءات كلها تتكلم عن موت الملايين وبقاء الشعب المختار، بقاء النخبة أي 144 ألف شخص..
توقفت لحظة هنا.. لأنني فهمت أي نوع من التفكير قد سيطر على فكر مريضتي. قلت بهدوء محاولاً إنهاء الحوار الذي بدأ يصعب ويتعقد:
- من هؤلاء الـ 144 ألفاً لا أظن أنني من المحظوظين وكذلك كثير من الناس الذين أحببتهم.. بالنسبة لي أنا أرجو أن ألتقي الجميع.. جميع البشر ذوي الإرادة الصالحة..
وانتقلت إلى موضوع آخر بخصوص مرضها.

á á á

الأصولية المسيحية مخيفة تماماً كبقية الأصوليات، وهي تحرم الناس حب الحياة والفرح بها وتملأ حياتهم بالخوف والترقب والتزمت، وكذلك تفقدهم الرحمة تجاه أنفسهم والآخرين.. لأن اليوم قريب جداً!!، والحقيقة التي تؤمن بها المسيحية هي الانفتاح والفرح والحياة بحرّية والعمل بمشيئة الله في القلوب والسعي للازدهار والنمو...!!
إن ارتباط هذه الأصولية أيديولوجياً بالأصولية اليهودية واعتبارهما أن الشعب اليهودي "شعب الله المختار" الذي أعطيت له الأرض المقدسة بحسب التوراة المقدسة، وأن العمل المشترك لكلا المجموعتين سيؤدي إلى تعجيل مجيء المسيح ونهاية الكون. أقول إن هذا الارتباط قوي وله العديد من المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي تدعمه، وهي منتشرة في كل أنحاء العالم وغنية جداً وتقدم أموالاً طائلة لدعم "الشعب الذي عاد إلى بلده.. إننا لا نتعامل مع هجرة لكن مع عودة". كما أن هناك معابد للصلاة من أجل دولة إسرائيل ونجاحها، ومؤتمرات عالمية كان أولها "المؤتمر الصهيوني المسيحي الأول" الذي عقد عام 1985 في المدينة السويسرية "بال" في القاعة ذاتها التي عقد فيها هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول عام 1897، وقد حضره 589 شخصاً من 27 دولة مختلفة ويقول البيان الصادر عن المؤتمر:
"نحن الوفود المجتمعين هنا، من دول مختلفة، وممثلي كنائس

مختلفة، في نفس القاعة الصغيرة التي اجتمع فيها منذ 88 سنة ثيودور هرتزل مع وفود المؤتمر الصهيوني الأول والذي وضع اللبنة الأولى لإعادة ميلاد دولة إسرائيل. وقد جئنا معاً للصلاة وإرضاء الرب ولكي نعبر عن ديننا الكبير ومحبتنا العظيمة لإسرائيل ولكي نعبر عن التضامن معها. وإننا ندرك اليوم وبعد المعاناة المريرة التي تعرض لها اليهود، أنهم ما زالوا يواجهون قوى حاقدة ومدمرة مثل تلك التي تعرضوا لها في الماضي".

á á á

التبشير العنيف

من الظواهر الجديدة في العقدين الماضيين ظاهرة التبشير التلفزيوني على مدى واسع يصل إلى ملايين الناس وبعشرات اللغات. وعادة فإن المبشرين سواء بالمسيحية أو بالإسلام يتخذون الجانب المتطرف ولا يتورعون عن استخدام الكلمات الجارحة في وصفهم الوضع الروحي للمؤمنين بالله من أديان أخرى فكلمات مثل الكفار والإرهابيين والنازيين صارت مألوفة، وسأورد هنا مثالين عن التطرف المسيحي الذي يصل إلى مفهوم "التبشير العنيف" والذي يحطّ من قدر الدين الآخر ويربط الإسلام بالعنف والإرهاب.

قال الواعظ التلفزيوني الأميركي بات روبرتسون في تشرين الثاني 12/2002/ متحدثاً إلى أكثر من 180 بلداً في العالم بـ 71 لغة: "آمل أن يستيقظ اليهود في أميركا وأن يفتحوا أعينهم ويقرأوا ما يقال عنهم بشأن إبادتهم".

"إن هؤلاء المسلمين هم أسوأ من النازيين. كان هتلر سيئاً لكن ما يريد المسلمون أن يفعلوه باليهود أسوأ".

وفي الشهر السابق لذلك التاريخ تكلم القس الأميركي المتطرف جيري فالويل عن الإسلام ورسوله بطريقة سيئة جداً ناعتاً النبي بالإرهابي والداعية إلى الحرب: "أعتقد أن محمداً كان إرهابياً، لقد قرأت من الكتاب المسلمين وغير المسلمين ما يكفي لمعرفة أنه كان رجلاً عنيفاً.. رجلاً يدعو إلى العنف".

وأضاف مؤيداً إسرائيل:

"عددنا 70 مليوناً في أميركا ولا شيء يمكن أن يثير سخط المسيحيين في هذا البلد على الحكومة مثل تخليها عن إسرائيل أو معارضتها في مسائل أساسية". وقد أثارت هذه التصريحات الكثير من الغضب والحقد وحتى أعمال العنف (كالاشتباكات بين الهندوس والمسلمين في غرب الهند وأسفرت عن مقتل تسعة أشخاص..).

á á á

الأصولية الإسلامية

الأصولية الإسلامية أو الإسلاموية، والسلفية والرجعية كلمات ومفاهيم جديدة ظهرت في العقدين الماضيين خصوصاً مصطلح الأصولية الذي ازداد استعماله في السنين القليلة الماضية وارتبط بالعنف والإرهاب حتى أصبح كشتيمة سياسية.. وسأتطرق في هذا القسم إلى نشوء الأصولية وأسبابها ومواقف المستشرقين من أيديولوجيتها، وموقف العرب بشكل عام منها. يقول الأستاذ رضوان السيد:

"اعتقد كثير من المراقبين لحركية الفكر الإسلامي في العقود الأربعة الماضية أن اتجاهات التأصيل أي العودة إلى الأصول قد تشبه ما عرفته البروتستانتية من رجعة إلى الأصل، وتخلّ عن المؤسسات التقليدية، وعن التقليد والرتابة. لكن الفارق بين تأصيل المسلمين اليوم، والتأصيل البروتستانتي أن ذاك كانت مشكلته مع المؤسسة الكنسية وحسب، فأمكن له أن يفيد من سائر الحقل الثقافي والحضاري الماضي والمحيط به فيما عدا ذلك. أما حركة التأصيل الإسلامي فقد بدأت بتنحية وإزالة التجربة التاريخية الإسلامية كلها باعتبارها تقليداً وانحرافاً، ثم اعتبرت العصر كله جاهلية وضلالاً لتتجه بعد ذلك إلى القرآن والسنة لاستنطاقهما مباشرة وبدون أدوات ووسائل مناسبة. ومن هنا سوء الفهم على المستوى الثقافي بين الفكر الإسلامي والعالم. ومن هنا حالة الحصار التي وضع فيها ذلك الفكر نفسه حتى منتصف الثمانينات.

الآراء في الأصولية ونشأتها وأسبابها:

لغوياً تعني الأصولية الكلام والتصرف والتفكير حسب الأصول الدينية والعلمية والأخلاقية والاجتماعية والقانونية والالتزام بها دون تحريف، وبهذا المعنى فالمؤمنون الحقيقيون والمفكرون الصادقون ورجال العلم والقانون كلهم أصوليون.. لكن اصطلاح الأصولية غربي مشتق من كلمة Radicalism التي تعني (أصل، جذر Radical) العودة إلى الأصول والجذور والتمسك بها..

لكن المصطلح الغربي يحمل معنى العنف والتطرف والإرهاب لارتباطه بالحركات السياسية الشوفينية والعرقية التي قاومت وجود العناصر الغريبة في بلادها.. وهكذا فالمعنى اللغوي معاكس للمعنى الاصطلاحي..

إن هذه الظاهرة عالمية لا تقتصر على العالم الثالث أو البلاد الإسلامية بل تنتشر في أميركا بشكل واضح مع الأصولية الإنجيلية، والتطرف اليهودي.. لكنني أدرس هنا الإسلاموية (كما يسميها جاك بيرك) أو التطرف الأصولي الإسلامي وقد تكلمت عن الأصوليات المسيحية والصهيونية اليهودية في قسم آخر..

يجمع المفكرون والمستشرقون على أن السبب وراء الأصولية

الإسلامية هو الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية التي يعيشها العالم الإسلامي، كما أن فساد الطبقات الحاكمة وتدهور حقوق الإنسان بالإضافة إلى البطالة وأزمة السكن، والفقر والبؤس، والإحباط النفسي والاجتماعي، وأزمة الهوية الثقافية، وتبني الأهداف الأوروبية كالديموقراطية والاشتراكية دون وجود جذور وتربة لاستقبالها.. كل تلك العوامل، بالإضافة إلى فشل الأيديولوجيات الأخرى في حل مشاكل الناس، أدت إلى ظهور العنف الإسلاموي المسلح كوسيلة لحماية الشخصية والهوية من العولمة والأمركة الطاغيتين.

وإذا كان المفكرون والمستشرقون يتفقون في الأسباب فإنهم أيضاً يتفقون في النتائج وينظرون نظرة سلبية جداً للتطرف المسلح: فالرأي العام هو:

*** أن الأصولية الإسلامية تشكل تهديداً للغرب بالقدر الذي كانت تشكله الشيوعية، حيث إن هذا الرأي يتكرر على ألسنة كثيرة بما فيها كتاب صدام الحضارات لصموئيل هنتيغتون الذي أفردت له فصلاً خاصاً..**

إلا أن بعض المستشرقين يميّز بين الأصولية الإسلامية الفقهية والتعصب المسلح، ومنهم من يلصق الإرهاب باليقظة الإسلامية بشكل عام.

يقول روجيه غارودي في كتابه "الإسلام":

المشكلة المحورية التي تطرحها "الإسلاموية" في أيامنا هذه ناشئة من التباس أساسي في دلالة مفهوم "الشريعة".

إن تطبيق "الشريعة" هو شعار كل أشكال الحركة الإسلامية، مقابل التشريعات ذات المصدر الاستعماري الإنجليزي أو الفرنسي التي لم تكن تأخذ بالحسبان هوية الشعوب الخاضعة، ولم تكن على وجه الخصوص قائمة على أي معنى للحياة.

بالمقابل فإن "تطبيق الشريعة الإسلامية"، بالنسبة للغرب، هو قطع يدي السارق وفرض الحجاب الأسود على النساء من الرأس إلى القدمين..

لكن كلا الجانبين لا يطرح السؤال الأولي: ما الشريعة؟!

لا يبحث المسلمون عن التمييز بين ما يقتضيه القرآن الكريم وما يقتضيه التقليد. ولا يرى الغربيون في الشريعة سوى نقيض ما يسمونه "الديموقراطية".

الباب التاسع: المسيحية والصوفية الإسلامية

المسيحية والصوفية الإسلامية

الصوفية:

استخدم هذا المصطلح للمرة الأولى في التاريخ الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وقد لقب بالمتصوف كل من جابر بن حيان، وأبي هاشم البغدادي.

يقول ابن تيمية في الصوفيين: "الصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربّه".

أتت كلمة الصوفية من عدةّ احتمالات: الأول: صفاء النفس، وصفاء القلب، والثاني: من فكرة الصف الأول بين يدي الله حيث يرتفعون بقلوبهم إليه، والثالث: من "الصُّفَّة" وهي فناء ملحق بمسجد رسول الله في المدينة المنورة، حيث سمح الرسول لفقراء الصحابة أن يسكنوا فيه ويعيشوا مما يقدمه لهم المسلمون من صدقات. وكانوا يشغلون وقتهم بالصلاة والدعوة للجهاد وقال عنهم الرسول: "فرسان النهار رهبان الليل". والاحتمال الرابع هو إشتقاق الاسم من الصوف الذي رغّب الصوفيون أتباعهم بارتدائه صيفاً وشتاءً وهم يرون أن الغنم رمز تفاؤل في التراث الشعبي مستمد من قصة إبراهيم وفدائه بذبح عظيم هو كبش من الغنم، ومن أن الكثير من الأنبياء قد رعى الغنم.

والرأي الأخير هو ارتداء الصوف عند هؤلاء المتعبدين صيفاً وشتاءً من أجل الزهد والتقشف والموت عن الملذات الجسدية.

á á á

ازدهرت حركة التصوف في بلاد الفارس خاصة ربما لقربها من الهند وتأثرها بنزعة الزهد عند فقراء الهندوس، وكذلك في جنديسابور لقربها من المسيحية والأفلاطونية الجديدة التي وضعها فلاسفة اليونان بعد فرارهم من أثينا إلى فارس عام 529. لكن هذا التأثير بقي بسيطاً وسطحياً، وكما يبيّن ماسينيون فإن الإسلام نضج روحياً من تلقاء نفسه وأعطى هذه النزعة التقشفية في سبيل البحث عن الذات الإلهية.

á á á

الحلولية:

يقصد بها حلول الله في أشخاص معينين فيصبح الشخص ذا حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا تعرف بالرأي ولا بالقياس ويصبح الجسد

حجاباً لهذا اللاهوت الذي حلّ فيه.

وهناك الاتحاد الذي يعني أن الخالق والمخلوق يصبحان واحداً فلا اتحاد بين طبيعتين بل وحدة شاملة، أي وحدة الوجود ومن نماذج الحلولية القول المنسوب إلى الحلاج:

أنت من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا

أما محيي الدين بن عربي فالخالق عنده قد حل في كل مخلوق وظهر من خلاله ويرى أن الناس كلهم يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبوداتٍ، يقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبانِ
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراةٍ ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وإيماني

الأدب الصوفي:

وهو نوعان أدب القول أي الشعر والنثر، وأدب السلوك أي أدب التربية والأخلاق والخصال الخيرة والمعاملة والصحبة. يشتمل أدب القول على أدب الحب الإلهي والفناء في الذات الإلهية، وأدب الدعاء والمناجاة والاستغاثة، وأدب الوعظ والإرشاد والنصح.

á á á

في المفهوم الإسلامي هناك توتر وصعوبة بين ميل الصوفي للاعتقاد أنه أدرك معرفة فوق المعرفة العادية للّه، وبين إيمان بقية المسلمين بأن القرآن والحديث قد حددا وحدهما كيف تعاش الحياة ويُعبد اللّه. وبالنسبة للصوفي فالشريعة مرحلة على الطريق نحو المعرفة وإن مجرد الطاعة لم تعد كافية وإنما الإخلاص في النية.. وحين تتم الرؤيا الروحية في لحظة أبدية ويشعر الإنسان الزمني بحقيقة اللّه الخارجة عن الزمن، يحدث تحول جذري في قلب المتصوف يدفعه للعودة إلى المجتمع بقلب جديد وعينين جديدتين وانسجام كلي مع الشريعة والنبوة.

á á á

= بلغ التصوف الإسلامي ذروته على أيدي رجال سبقوا الحلاج مثل ذي النون، والمحاسبي، والجنيد، وفي الفترة الواقعة بين عامي 750 و900م ارتقى التدين التقشفي إلى الحب الإلهي المتوهج والتوق إلى الذات الإلهية وبلغ التدين

الإسلامي قمة لم يستطع أن يتجاوزها ويتفوق عليها كما لم يستطع أن يحافظ عليها لاحقاً.

ورغم تأثر الصوفية باللاهوت المسيحي بشكل جزئي إلا أن الزهد والتبتل (الانقطاع إلى الصلاة) والحياة الفقيرة (أي ما يميز الحياة الرهبانية المسيحية) بقيت بعيدة عن الإسلام وغريبة عنه.

وتاريخياً نحن نعلم أنه قد أطلق على مالك بن دينار اسم "راهب العرب" وعلى أبو بكر ابن عبد الرحمن اسم "راهب قريش".

لكن بشكل عام كان مصطلح الراهب يطلق على الزاهد المسيحي، سواء بمعنى محبب أو بمعنى مستهجن، كظاهرة غريبة عن الإسلام.

á á á

إن المسيح مثال أعلى للمتصوفين كما نرى في كتاباتهم الكثيرة وقد حقق أعلى درجات الزهد في الحياة الدنيا، ويلتقي بذلك المسيحيون والمسلمون في مفهوم التعبد الصوفي الذي هو بشكل أو بآخر اتباع طريق المسيح.

وهناك العشرات بل المئات من المقولات والقصص والأخبار رواها المسلمون عن المسيح بطريقتهم مظهرين فضائله وأخلاقه، وقد جمع الكثير منها كتاب "الإنجيل برواية المسلمين" تأليف طريف الخالدي (عن دار النهار 2003) ويرى المسلمون المسيح صارماً في زهده مثله في ذلك مثل يحيى بن زكريا، إلا أنه يختلف عنه من حيث أن يحيى كان جهماً نادر البشاشة، متشدداً في جديته، في حين كان المسيح فرحاً أليفاً رقيق الجانب.

وهناك تصورات كثيرة تختلف عن حقيقة المسيح كما ترويها الأناجيل كما أن هناك قصصاً غرائبية وخوارق عجيبة لا تتماشى مع الجو العام للأناجيل. ويبدو أن الروايات التي كان يسردها أشخاص مثل كعب الأحبار (وهو من أفضل العارفين بالتوراة والإنجيل في الجيل الأول بعد النبي محمد) كانت تستند إلى حد بعيد على خياله الشخصي وأسلوبه القصصي فغايته لم تكن ذكر حقائق تاريخية، بل أدب تعبدي أسطوري الطابع إسلامي المضمون مع صلات ضعيفة ببعض الروايات المسيحية غير المسلم بها.

á á á

يعرّف (أبو سعيد) الصوفي الكبير الذي ولد عام 967م التصوف الإسلامي بقوله:

"التصوف ترك النافل. ولا شيء بنافل أكثر من "أناك". إنك ما اشتغلت بذاتك إلا وبعدت عن الله. وحيثما توجد أناك فإن كل شيء جحيم. وحيثما لا توجد أناك، فكل شيء نعيم". وبشكل مشابه يرى "العطار"، الشاعر الفارسي في القرن الثاني عشر في قصيدة رائعة اسمها "منطق

الطير"، أن التخلي عن الأنا هو سر الحياة الأبدية وأن حب الأنا هو أعظم عائق في وجه الحب.

ففي هذه الرحلة المجازية التي تعبر عن سفر الروح إلى الله، تحترق الطيور جسداً وروحاً و تصبح في آخر طيرانها رماداً، وعندما تعطي كل شيء يعاد إليها كل شيء. وتتأمل الطيور وجه الله في انعكاس عيونها الناظرة إلى بحيرة في جوف الجبل، ولا يكون في ذلك سواها كلها لأنها تؤلف معاً كلاً واحداً بعد أن تخلت عن تعلقها بذاتها.

ومن المتصوفين الكبار الشيرازي وهو فارسي من القرن الحادي عشر.. يقول في كتابه (ياسمين الأحبة): في حب المحب والمحبوب القوة نفسها التي تجذب الإنسان إلى الحقيقة الإلهية، الحقيقة العليا. وإن حب الجمال يتيح تأمل الوجود السرمد بعين الله ذاته. وليس هناك سوى حب واحد. ونحن نتعلم في كتاب الحب البشري كيف نقرأ قاعدة حب الله".

á á á

= يرتكز الصوفي في محاولة وصوله إلى الله على تطهير نفسه بالصلاة، والتجرد الكامل من الشهوات، والطاعة، والتأمل حتى يصل إلى اتحاده الصوفي بالله. ويعتقد الصوفي أنه بعد وصوله إلى تلك المرتبة، أي بعد فناء نفسه تماماً في ذات الله، يصبح فوق القوانين والشريعة وحتى الدين وشعائره وفرائضه.

وفي الوقت نفسه يبقى المتصوفون يعيشون في الدنيا كسائر الناس الحياة اليومية العادية، يقول أبو سعيد:

"إن الولي الحقيقي يسير بين الناس، ويأكل وينام معهم، ويشتري ويبيع في الأسواق، ويتزوج، ويشترك مع الناس في مجالسهم، ولا ينسى الله لحظة واحدة".

á á á

بدأت مجالس الذكر منذ القرن العاشر، وظهرت أفكار الزهد واعتزال العالم وتعذيب النفس وكذلك ظهرت الشطحات الصوفية وغرائب الصوفيين.

وقد وجدت أقلية متصوفة تدعو إلى البساطة والحياة المتقشفة كبساطة أبي بكر وعمر بن الخطاب، وتندد بترف الخلفاء والوزراء.

ومن المتصوفين المعروفين أذكر:

* **رابعة العدوية (717 - 801):** كانت في شبابها جارية اشتريت بالمال ثم أعتقها سيدها وأبت أن تتزوج، وعاشت عيشة الزهد وفعل الخير ومن صلواتها الرائعة:

"إلهي! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطيه لأعدائك، وكل ما قدرته لي في الجنة أمنحه لأصدقائك، لأني لا أسعى إلا إليك وحدك".

* **أبو سعيد بن أبي الخير (967 - 1049م):** وكان يعلم أن رحمة الله، لا أعمال الإنسان الصالحة، هي التي تدخله الجنة. ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة، ثم يأتي باب اليقين ثم باب الحب ثم باب التوحيد، حيث تتساقط

الرغبات كلياً ويدرك الصوفي أن الله كل شيء وأن كل شيء منه وإليه.
* **أبو سعيد الخرّاز:** يقول: مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صاف، فإن حرّكته ظهر ما تحته من الحمأة، وكذلك النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخافة، ومن لم يعرف ما في نفسه، كيف يعرف ربّه؟!
* وهناك **الحلاج** (الذي درس سابقاً في قسم لويس ماسينيون)، وعشرات المتصوفين والمتصوفات [10] .

á á á

* **إخوان الصفاء:** هم جماعة سرية باطنية دينية فلسفية وهم أقرب إلى الفلسفة منهم إلى الدين، ونزعتهم الفلسفية خليط من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية، وقد أوّلوا القرآن تأويلاً رمزياً لكي يتمشى مع تصورهم الروحي للأديان عامة. وهم يرون أن الأديان جميعاً يجب أن تتفق مع الفلسفة والحكمة، وقد صنفوا حوالي خمسين رسالة في مفاهيم الحكمة آخذين من كل مذهب فلسفي بطرف.

ومحور الفلسفة لديهم هو فكرة الأصل السماوي للنفوس وعودتها إلى الله ويرون أن العالم صدر عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلم والضوء عن الشمس، وليست النفوس الفردية سوى أجزاء من النفس الكلية تعود إليها مطهرة بعد الموت كما ترجع النفس الكلية إلى الله ثانية ليوم المعاد.

ابن عربي: يُعتبر نبي الصوفية الوجودية.

نقل التصوف من الشطح إلى العلم وسمّاه العلم اللدنّي أو العلم الإلهي، وبهذا يشترك مع ابن رشد في المنطلق الأفلاطوني في مفهوم كلية الوجود، لكن ابن رشد اعتمد "العقل" في حين اعتمد ابن عربي "القلب".

يعتقد ابن عربي أن كل إنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وأن كل مؤمن يستطيع أن يكون "سميَّ الله"، مشجعاً بذلك كل مخلوق للارتقاء إلى مستوى الخالق ومعيداً روح الدين إلى بساطتها الأولى.

يقول ابن عربي: لا يغتّر الإنسان بكونه روح العالم فيقول "أنا أشرف منه"، أخوك العالم والإنسان توأمان.

á á á

درس المستشرق الإسباني بلاثيوس ابن عربي وكتب عنه كتاباً ضخماً بعنوان "ابن عربي، حياته ومذهبه" يقول فيه: إذا كان تصوّفه يعيبه أحياناً الغموض فإن زهده في المقابل، من حيث الشكل أو الأسلوب، شعبي وصريح ومفهوم لعامة الناس. وهذا التباين يفسر أيضاً تناقضاً ظاهرياً في موقف ابن عربي: فمن ناحية رأينا أن مذهبه يقوم على أساس الشك الجذري التام، عندما ينكر على العقل المنطقي كل قدرة على البحث عن الحقيقة الفلسفية والدينية، ملتزماً بالإشراق الصوفي كطريق وحيد إلى ذلك، ومن ناحية أخرى فإن مذهبه الروحي مصنوع من أكثر نظريات التصوف الإسكندري الأفلوطيني تجريداً، ويقول بلاثيوس:

"ومع أن ابن عربي جامع مذاهب مختلفة في ما بعد الطبيعة، لكنه ذو نزعة واحدة في مذهبه الروحي، سواء في الزهد أو في التصوف، يعود إلى الإسلام، وإن كان ثمة أصل مسيحي بعيد جداً.

وابن عربي، كما أي مسلم، يعتبر أن الأديان السماوية الثلاثة تؤلف في جوهرها ديناً واحداً يتكيف ويتطور عَرضاً مع الظروف الوقتية الطارئة للعصور، في الأوامر السرمدية للعناية الإلهية. والإسلام، وهو ختام مراحل هذا التطور الطويل، يلخص ويستوعب كل القواعد المنزلة تنزيلاً صحيحاً في المسيحية واليهودية... ومن هنا يستنتج أن النصارى يعتقدون في عقيدة التثليث في الأقانيم ويستبعدون التثليث في الآلهة. ولهذا ينبغي ألا يوصموا بالشرك، لأنهم ينتظرون الخلاص من الرحمة الإلهية الواحدة. والسبب الميتافيزيقي لهذا الرأي الذي قال به مستمد من فكرة المدرسة الفلسفية الفيثاغورية التي تعتبر أن العدد ثلاثة هو أصل الأعداد الفردية، لأن العدد "واحد" ليس وحده بذاته عدداً، ولا يُفسّر الكثرة في العالم، فمن الواحد لا يصدر إلا الواحد، وإن أبسط الأعداد في داخل الكثرة هو الثلاثة.

أما عن العقيدة الثانية في المسيحية وهي التجسيد، فإن ابن عربي لتأثر مذهبه بالاتحاد الأقنومي في العقيدة المسيحية، في إطار الصوفية، يردم الهوة الواسعة التي كانت مفتوحة في البداية بين الإسلام والمسيحية، الهوة التي راحت تتضاءل ببطء عند الصوفية، حتى بلغت أوج تضاؤلها في موقف ابن عربي.

وموقف العطف والتقارب مع العقيدة المسيحية هو في نظري نتيجة التأثير الشديد والواسع الذي أحدثته الرهبانية المسيحية في التصوف الإسلامي. وهذا ما جعل ابن عربي يعترف مصرًّحا بأن مرشديه في الطريق الروحي هم الهداة الثلاثة: موسى وعيسى ومحمد. وإذا كان محمد هو خاتم النبوة، فإن عيسى هو ختم الولاية على الإطلاق، ونموذج في الكمال، لأن روحه خلقها الله مباشرة مثل روح آدم، وكانت وليّة منذ مولده، وكاملة بالفطرة بفضل الروح القدس، وليس كما شأن سائر الأولياء.

الحياة الرهبانية

نشأت في مصر في النصف الثاني من القرن الثالث إثر الاضطهاد ضد المسيحية أيام دافيوس، فاندفع الكثير من المسيحيين إلى الصحراء ليعيشوا حياة التقشف والنسك، ويعتبر انطونيوس الكبير (251-356) الذي انسحب من الحياة الدنيوية حوالي عام 270م، وانصرف إلى التنسك في منطقة بني سويف شرقي النيل، يعتبر أب الرهبان. وقد تجمع حوله عدد من الأتباع وأمضوا حياتهم الروحية على نمطه. بعدها أنشأ باخوميوس الكبير (290-346م) عدداً من الأديرة في مصر العليا، وبدأ بوضع القوانين

الرهبانية، وقد تبع نمط حياته حوالي 22000 راهباَ كانوا يعيشون الصلاة والفقر والطاعة والعمل (كنسخ المخطوطات والأعمال الزراعية). ومن الرهبان السوريين المعروفين نذكر أفرام السرياني (القرن الرابع) ومار مارون المتوفى في عام 410م (تنسك قرب حلب في جبل سمعان)، وسمعان العامودي (الذي أمضى حياته على عمود حجري متنسكاً).

وانتقلت الحياة الرهبانية إلى خارج مصر وسوريا وفلسطين فوصلت اليونان وتأسس دير جبل آثوس في القرن التاسع ليصبح أهم مركز رهباني في أوربا الشرقية. وفي الغرب تأسس عدد من الأديرة على يد مرتينوس وأمبرسيوس في القرن الرابع. وأدخل القديس باتريك الحياة الرهبانية إلى إرلندا في القرن الخامس، وأسس بندكتس الرهبنة البندكتية في القرن السادس ثم تجددت الحياة الرهبانية في القرن الثالث عشر على أيدي الفرنسسكان والدومنيكان، وأثناء الإصلاح البروتستنتي في القرن السادس عشر نشأت الرهبنة اليسوعية.

يرى الكثيرون أن جوهر المسيحية وروحانيتها تتمثلان في مبادئ الرهبنة المسيحية وهي الفقر (التقشف)، والعفة (الاختيار الوحيد والنهائي)، والطاعة (لله وحده دون الميول البشرية)، وقد عاشت الصوفية الإسلامية أشياء مشابهة إلى حد بعيد كما ذكرت سابقاً.. فهل تكون الرهبنة المسيحية والصوفية الإسلامية هما الجوهر الروحي دون الطقوس الدينية ودون غبار الزمن!!.

الباب العاشر: الشفاعة وشركة القديسين

شفاعة النبي والأولياء وشركة القديسين

مفهوم الشفاعة عند المسلمين يقابله مفهوم شركة القديسين وهذا موضوع شائك لكنه مهم، وهو مُختلَفٌ عليه لكن هناك خطوط عامة واضحة..

فالنبي يخاطب ربه قائلاً:

"أمتي أمتي يا رب" واضعاً نفسه كشفيع لأمته بكاملها، لا بل إن الأولياء الصالحين لهم مواقف شفاعة عظيمة الأثر: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر. وإن الأعمال الصالحة أيضاً تشفع للإنسان الخاطئ حتى أن كأس ماء أعطي بمحبة لغريب قد ينقذ من النار:

- إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول: يا فلان هل تعرفني؟ فيقول: لا والله ما أعرفك من أنت؟ فيقول: أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك، قال: قد عرفت، قال: فاشفع لي بها عند ربك! فيسأل الله تعالى ذكره، ويقول: إني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال: هل تعرفني؟ فقلت: لا من أنت؟ فقال: أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه، فيشفعه الله فيه، فيؤمر به فيخرج من النار.

وهذه الفكرة موجودة بشكل قريب جداً من الإنجيل حيث إرواء العطشان وزيارة المريض وكسوة العريان، والأعمال الصالحة البسيطة هي التي تدل على محبة الله بالاهتمام بالأخ المحتاج.

= ومن الأقوال النبوية: "وأعطيتُ الشفاعة، وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة". في هذه المقولة تمتد الشفاعة إلى عامة البشر والأمة الإسلامية.

"لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أخبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة".

وإن النبي يعمل بدأب ليجنب أهل أمته عذاب النار، فيشفع بكل مؤمن حتى يضجر مالك خازن النار:

"ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها: ويبقى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً، مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي، فأقول: يا رب أمتي، فيقول الله عز وجل: يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك، فأقول: يا رب عجّل حسابهم، فما أزال أشفع حتى أعطي صكاكاً برجال قد بُعث بهم إلى النار وحتى إن مالكاً خازن النار يقول: يا محمد ما تركت للنار لغضب ربك في أمتك من بقية".

á á á

ومفهوم الشفاعة يتوسع من جديد، في مقولة أخرى، إلى الأصدقاء والأهل والمعارف بل أي آدمي لأن الله قد خبأ ولايته في عباده:

"اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين، بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدمياً أصلاً، فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده، فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله، ولا تستصغر معصية أصلاً فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه، ولا تستحقر أصلاً طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه".

á á á

وفي المسيحية مفهوم شركة القديسين الذي يعني ببساطة أن المؤمنين الذين طهروا قلوبهم بالصلاة والأعمال الصالحة واقتربوا من عرش الله القدوس يقومون بالشفاعة للناس أجمعين، وبطريقة أخرى فإن الرجاء المسيحي هو أن تكون جهنم فارغة.

هذا يكون ربما صعباً عندما نفكر بالمجرمين والقتلة والبشر الذين سببوا فظائع كبيرة في الأرض، لكن المؤمن الصادق يأبى أن يبقى أحد في الخارج.

قال جابر بن عبد الله:

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وإنما شفاعة النبي لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويقول الكتاب المقدس على فم الله مخاطباً الإنسان:

"لقد حفرت اسمك على كف يدي كي لا أنساك" وبشكل مشابه يقول النبي: الله أرحم بعبده من الوالدة الشغيفة بولدها.

á á á

هناك دعاءان واحد من الكتاب المقدس والآخر من القرآن يعطياننا رجاء في زمن الشر والوحشية البشرية، ويعزيان قلوبنا:

) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ([الشعراء: 78-82].

المزمور الثالث والعشرون

الرب راعيَّ فما من شيء يعوزني
في مراع نضيرة يريحني
مياه الراحة يوردني
وينعش نفسي
وإلى سبل البر يهديني إكراماً لاسمه
إني ولو سرت في وادي الظلمات لا أخاف سوءًا لأنك معي
عصاك وعكازك يسكّنان روعي
تعدّ مائدة أمامي تجاه مضايقيّ
وبالزيت تطيّب رأسي فتفيض كأسي
الخير والرحمة يلازماني جميع أيام حياتي
وسكناي في بيت الرب طوال أيامي

á á á

الباب الحادي عشر: هموم مشتركة

الفصل الأول: الإلحاد والبدع الجديدة

هل يمكن أن تتصور حجمك كإنسان على أرض بدأت الحياة فيها منذ ملايين السنين، وتطوّر جدك الأكبر إلى الشكل الإنساني منذ حوالي مليون سنة.. ويبدو أن هذا التطور قد حصل في عدة مناطق من الأرض كما تقول النظريات العلمية..

هل يمكن أن تتصور أن هذا الكوكب الكبير الذي تعيش عليه هو جزء صغير جداً من ملايين الكواكب.. وأن أبعد مجرة نعرفها تبعد عنا حوالي 15 مليار سنة ضوئية!! إذن أي إنسان هو نقطة تافهة في خضم الحياة الصاخب وواحد من مليارات الأشخاص الذين مروا، أو سوف يمرون على كوكب واحد أو ربما أكثر.. فلماذا لا يكون هناك كوكب آخر عليه حياة مشابهة أو مختلفة. كوكب أصغر أو أكبر من أرضنا، وناسه أذكى أو أغبى، والحياة مزدهرة أكثر أو أقل..

عندما قال غاليليو إن الأرض تدور حول الشمس أي إعتقد بعدم مركزية الأرض أو اعتبرها جزءاً من مجموعة كونية أكبر.. أُحرق!! لأن العقل البشري لم يتحمل عدم مركزيته ومحوريته الكونيتين..

والأمور ربما تكون أصعب من ذلك.. إذا كنت تحلق في الطائرة فوق الغيوم وارتفعت أكثر وأكثر.. هل ستجد ذلك الروح الخالق الذي ندعوه "اللّه"، وإذا ارتفعت أكثر إلى القمر مثلاً أو إلى المريخ.. هل هو هناك وإذا خرجت من المجموعة الشمسية هل تصل إلى "السماوات" حيث يسكن اللّه..!!

وإذا كان يحب البشر فلماذا يسكن بعيداً جداً عنهم!! وإذا افترضنا أن المعنى هو سماوات القلب فنحن نعرف أن ليس هناك غير الدماغ داخل جسم الإنسان يحتوي على نسيج يمكن أن يخزن صوراً وأفكاراً وشعوراً وكل ما عدا ذلك فهو عضلات وأوعية.. وإذا كان وعينا للّه داخل أدمغتنا فلماذا لا نكون نحن الذين اخترعناها بعد أن سيطرنا على النار والحجارة وفهمنا أسرار الزلازل والبراكين، وعرفنا أن الشمس كوكب ما ضمن ملايين الكواكب. ويأتي الأسوأ من كل ذلك وهو الاستنساخ فإذا كان الإنسان يستطيع أن يخلق إنساناً ويتحكم بلون شعره وعينيه وطول قامته وربما ذكائه!! فما دور اللّه..

هذه تساؤلات بل تهجمات تسمعها هنا وهناك من الملحدين وربما تكون أحياناً أقسى وأكثر سخرية!!

من الأمور المشككة أيضاً ما آلت إليه الأديان.. فالأصولية اليهودية - المسيحية - الإسلامية وارتباطها بالإرهاب والقتل وتدمير الحياة، والصدامات العنيفة بين الأديان جميعها في جميع أنحاء العالم، ورجال الدين والطقوس الدينية واختلاف الطوائف بين بعضها وخلافاتها الحادة

والدموية أحياناَ، ووجود الدين لفترة قصيرة في حياة الإنسان الممتدة لمليون سنة تقريباً على الأرض، والصور المختلفة لله وللخلود ولمعنى الحياة، ومحاولة كل دين محورة الأرض والبشرية حوله..

كذلك مسألة الضعف البشري أي تراجع الإنسان أمام المرض والفقر والجوع واستغلال القوي للضعيف في كل مكان من الأرض، والإمبريالية العالمية والسيطرة على الشعوب الفقيرة.. واستعمال القوي لجسد الضعيف وفكره وتحويله إلى منبع لذات وركام فضلات!!

هكذا يهاجم الإلحادُ المؤمنين من جميع الأديان ويصير الجواب هو حقيقة علاقة الإنسان نفسه بالله ومدى شعوره بوجوده رغم غياب الأدلة الحسية التي يمكن أن يفسرها العلم، والبحث في الإيمان عن "الطريق الحق والحياة".

á á á

هناك أيضاً مواقف بشرية خطرة كالإلحاد نفسه وهي ظاهرة البدع الغريبة المنتشرة في أميركا وإلى درجة أقل في أوروبا وقد بدأت تصل إلى شرقنا وهي تحدٍ كبير للإيمان والأديان.

هناك حوالي 2500 بدعة في الولايات المتحدة وحدها منها ما ينتهي بالانتحار كجماعة "أتباع داوود" التي تزعمها دايفيد كوريش من مواليد 1959 في هيوستين، تكساس، وقال لأتباعه إن رسالة إلهية جاءته وهو المسيح الآتي، وأنه سيموت في معركة ضد الكفرة وأنه حامل "الأختام السبعة" (عبارة مأخوذة من رؤيا يوحنا تدل على يوم القيامة)، وهو سيقرر متى تقوم القيامة.. وقد اقتنى دايفيد مع أتباعه الكثير من الأسلحة وتحصنوا في مستوطنة واكو التي أعدوها كقلعة محكمة وجهزوها بغرف محصنة.. وفي 19 نيسان 1993 وبعد 51 يوماً من الحصار قامت دبابتان من طرف الحكومة باقتحام سور المزرعة وأطلقت غازات مسيلة للدموع تفادياً لإضرام النيران، غير أن النار اندلعت وقضى في الأتون 86 شخصاً من بينهم 25 طفلاً..

ومن هذه الجماعات أيضاً جماعة "معبد الشعب" وزعيمهم جيم جونز الذي أطلق على نفسه اسم "نبي الله" وانتهى بالانتحار مع 931 شخصاً..

بالإضافة إلى المجموعات الانتحارية هناك الأفكار الدينية التي تدعو لديانة كونية أو "العصر الجديد"، وهي مجموعة هرطقات غامضة ناتجة عن مزيج من المعتقدات الوثنية والعلوم الحديثة والتكنولوجيا والديانات الشرقية والغربية إضافة إلى اختلاطها بالأبراج والتخاطر والصحون الطائرة.. ورغم وجود هذه التيارات بعيداً عن العالم الإسلامي في الشرق فإنها تصل إلى الشباب العربي بطرق مختلفة وخصوصاً في لبنان..

ويجب أن لا ننسى بدعتي "شهود يهوه" وعبدة الشيطان وأن لا نخلط بين كل تلك البدع، بل أن نفهمها لأن بعضها خطر جداً ويقود إلى الانتحار أو

الأذى الجسدي بالإضافة إلى الأذى الروحي.. أيضاَ يجب أن نميّزها عن المسيحية (لأن بعضها يتخذ أسماء مسيحية أو يدعي اتباع المسيح، أو اتباع آيات من الكتاب المقدس) لأن المسيحية الحقة لا تدعو إلى أي أذى جسدي للشخص نفسه أو للمحيطين به.

á á á

الفصل الثاني: الكتب التي تدعو للحوار والعكس

أُلّفت المئات من الكتب حول الإسلام والنبي محمد باللغات الأجنبية في القرون القليلة الماضية، وقد عرضت بعضها خلال حديثي عن المستشرقين وآراء المفكرين وتاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية. لكن هناك تيار قوي يتبنى النظرة السلبية في مؤلفات تعد بالعشرات بل بالمئات كتبت مؤخراً، وإنني لن أتطرق إليها لأنها دون المستوى الإنساني أي لا تحترم الآخر كمختلف وحقيقي. كذلك هناك ظاهرة الكتب التي تحكي عن لقاء بين إمام ما وكاهن وتغلب الواحد على الآخر، إما بحجج واهية أو بلاغة لفظية أو اطلاع على مصادر خاصة. وللأسف فإن معظم الناس يبحثون عن الكتب التي تدعو لإلغاء الآخر لأنه كافر وغبي ومخرب وعنيف، ويهملون الكتب الداعية لرؤية الآخر بعينين جديدتين.. وإن كتب الحوار قليلة، والكتب التي تدعو لرؤية الآخر المختلف بنظرة إيجابية أقل بكثير.

سأذكر مثالاً هنا لكتاب ظهر بالإنكليزية منذ حوالي 7 سنوات وفيه دعوة لاحترام المسلمين بنظرة إيجابية.

بيتر كريفت:

في كتابه "الجهاد المسكوني أو العالمي" Ecumenical Jihad الصادر عام 1996 عن مطبعة إغناثيوس، يناقش الكاتب فكرة الوحدة بين أتباع الأديان الإبراهيمية ضد المادية الملحدة ويقدم بصورة منفتحة جداً تفكيره حول الجهاد الروحي ضد الشر المتغلغل في الإنسانية في وقتنا الحاضر.. ومن الحوارات الشائقة التي لها طابع روحي بصيغة أدبية ذلك الحوار المتخيل بين الكاتب (كريفت) والرسول العربي (محمد).

á á á

يبدأ الحوار في الكتاب عندما يقول بوذا لبيتر كريفت في نهاية الكلام معه: "إن هذا الرجل سيعلمك الدين أكثر من كونفوشيوس.. إنه سيعلمك روح وقلب الدين الأكثر حقيقية".. ويعترف كريفت أنه "اندهش" أو "صعق" عندما عرف أن هذا الرجل هو النبي محمد.

ويتابع كريفت..

"وسألت محمد: ما هو قلب وروح أكثر الأديان حقيقية؟!" ويأتي الجواب.

"بكلمة واحدة من محمد: الإسلام، الخضوع، والسلام الذي يصدر عن الخضوع، السلام الذي لا يمكن للعالم أن يمنحه [11] . بل الذي يجيء فقط من الخضوع لإرادة الله. هذا هو قلب وروح الدين الحقيقي.. وإن الخطوة الأولى الحقيقية هي العبادة،

الانحناء بالروح والإغناء بالجسد، هي الإسلام".

ويستمر الحوار فيتابع محمد محذراً:

- أنتم الغربيون، لا تكسبون دنياكم، ولا تربحون جهادكم الروحي أو حربكم الروحية. إن عالمكم ينزلق بكم إلى جهنم.

لماذا؟ لماذا خسرتم أمام الشيطان على مدى هذا القرن من الزمان؟.. ذلك لأنكم تثرثرون حول أنفسكم وحول حرياتكم وحقوقكم وإشباع ذواتكم، بدلاً من أن تنسوا أنفسكم وتعبدوا الله وتطيعوه.

عليكم أن تعودوا إلى البراءة إن أردتم دخول مملكته أو ملكوته. القول قوله وليس قولي.. فأنا مجرد رسول.. إنه الواحد الذي ليس كمثله شيء.. لا إله إلا الله"..

ويسجد محمد بعدها على ركبتيه ويحني ظهره ويصلي..

ويتابع كريفت كلامه:

"إن الشوفينية الثقافية المتكبرة التي كنت أنظر من خلالها إلى هذه الكلمات العربية المقدسة، وإلى تلك الأعمال العربية المقدسة، بدت وكأنها ماتت فجأة في داخلي.. وقد تساءلت.. ما إذا كان لعالمي أن ينجو بأية طريقة أخرى.. وبدأت أتساءل ما إذا كان التنامي المتفجر للإسلام في زماننا يعود لسبب أبسط مما قد يكتشفه عالم اجتماع: إن الله يبارك الطاعة والإيمان، خصوصاً إذا كانا محاطين بثقافات غير مؤمنة وعاصية"..

وأضاف محمد قائلاً:

- إن الدين الذي علمته لشعبي هو أبسط الأديان في العالم.. هناك أوقات تتطلب التعقيد، وهناك أوقات تتطلب البساطة. وفي يومنا هذا البساطة لها سحر مفضل تجاه المؤسسة المنهارة، المتكبرة، الفاسدة، والمعادية لله بضراوة..

فما هو رأيك بيومنا؟؟

كريفت:

- ليس لدي ما أقوله..

ويجيب محمد على السؤال الذي سأله:

- إنه وقت للجهاد.. للحرب المقدسة.. للحرب الروحية بل إنه وقت لنفتح أعيننا على حقيقة أننا في خضم واحدة من هذه الحروب.. سواء أعجبتك الحقيقة أم لا؟!

كريفت:

- "لكننا أمرنا أن نحب أعداءنا.. لا أن نشن الحرب!".

يجيب محمد:

- نحن نحب أعداءنا الإنسانيين، ونشن الحرب ضد أعدائنا الروحيين.

كريفت:

- أليس المسلمون مشهورين بالخلط بين الأمرين وشن حروب مقدسة لا تميز بينهما.

محمد:

- البعض منهم فقط.. إذ يعتقد حوالي ثلاثة بالمئة من المسلمين في العالم أن الجهاد يعني حرباً مادية وقتل الكفار.. لكن القرآن يوضح أن هذه الحرب هي، أولاً وقبل كل شيء، موجهة إلى داخل المرء وضد خطاياه وخياناته..

كريفت:

لكن شعبك - العرب - مشهور في العالم بالعنف.

محمد:

- وهل هم بخلاف شعبك في إيرلندا الشمالية.

كريفت:

- لكن تاريخكم كله مليء بالـ...

محمد:

- بالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش والإكراه في الدين ومعاداة السامية، والحروب الدينية..

ويقول كريفت: أدركت بسرعة أن منطقي يراوح مكانه وأنه سينفر في وجهي، عند هذه النقطة تابع محمد كلامه بلطف..

محمد:

- دعني أشرح لك.. الإسلام والجهاد مرتبطان في جوهرهما، فالإسلام لا يعني الخضوع فقط، وإنما السلام أيضاً، السلام الذي لا يمكن للعالم أن يمنحه، السلام الذي يمنحه الله فقط عندما نخضع له.. وهذا الخضوع يتطلب جهاداً داخلياً، حرباً على حربنا ضد الله.

ومن هنا نصل إلى مفارقة أن السلام أو الإسلام يتم إحرازه فقط من خلال الحرب أو الجهاد.. وأن هذا السلام يقود إلى الحرب.. لأن الخضوع الذي يتطلبه هذا السلام، يتطلب منا أن نطيع إرادة الله، وإرادة الله تطلب منا أن نصبح محاربين روحيين ضد الشر..

á á á

ويقول كريفت في مقطع آخر من الكتاب:

- لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع والنفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيراً دنيوياً كل حسب تخصصه.. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه.. ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك.. إن الأمر في غاية البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين أعداد الإجهاض والزنى والشذوذ وبين كمية العبادة بين المسلمين والنصارى..!!

á á á

الفصل الثالث: النظرة الحالية في الغرب إلى الإسلام

قبل أحداث أيلول 2001 كان الغرب ينظر إلى المسلمين بصورةٍ مبهمة كما ننظر نحن إلى الهنود والصينيين.. فنحن نعرف القليل جداً عن تلك الحضارات وكيف يفكر الناس.. وغير ما يسمع الغرب عن بعض الحروب والصدامات في الشرق الأوسط فإن معظم الناس لا يعرفون حتى جغرافيا المنطقة وأسماء الدول (عدا بعض المعرفة السطحية من حرب الخليج)..

وفي الحياة الغربية خاصة الأميركية لا أحد يهتم بالانتماء الديني للشخص (عكس شرقنا حيث السؤال الأول هو أية طائفة أو دين أو مذهب ينتمي إليه محاورنا)..

وقد تمر سنوات طويلة دون أن يعرف الزملاء في العمل الواحد عن الانتماء الديني لبعضهم البعض وحتى إن عرفوا فالأفكار غامضة ومبهمة وسطحية..

بعد أحداث سبتمبر أفاق الأميركان وإلى حد أقل أوروبا على حدث غريب في حياتهم.. لم يألفوه.. ولم يستوعبوا أسبابه ومجرياته ونتائجه.. كان صدمة كاملة لمعظم الشعب الذي لا يعرف الكثير عن سياسة الحكومة الخارجية..

وما يهمني هنا كيف نظر الغرب إلى المسلمين والإسلام بعد هذه الأحداث؟!

في الأيام الأولى كانت الأحداث مرتبطة بالعرب، فالناس عرفوا أن الذين قاموا بالتفجيرات عرب؟! على الأقل أسماؤهم عربية، ثم بدأوا يفهمون أن أفغانستان ليست عربية، وإنما من قام بالعملية مجموعات متطرفة إسلامية فتحولت الأنظار إلى الإسلام.. فازداد الشك عند الناس بالمسلمين وحدثت الاعتداءات المختلفة على الأميركيين المسلمين، وكذلك على بعض الفئات المختلفة كالسيخ (يلبسون عمامة على رؤوسهم فظنوهم مسلمين) وعلى العرب غير المسلمين.. وبعد عدة أسابيع بدأ معظم الناس يفرقون بين الإسلام كدين وبين أعمال بعض المسلمين..

سأورد هنا بعض الأرقام والإحصائيات الأميركية حول نظرة الشعب الأميركي للإسلام والمسلمين:

في الخامس عشر من سبتمبر كان 42% من الشعب الأميركي ينظر بإيجابية للأميركيين المسلمين والعرب، لكن 49% من الأميركيين اقترحوا أن يكون لجميع العرب بما فيهم الأميركيين العرب بطاقة هوية خاصة وأن يخضعوا لإجراءات أمنية خاصة.. كما أن 32% قالوا إنه يجب مراقبة العرب مراقبة خاصة مثل تلك التي فرضت على الأميركيين اليابانيين بعد هجوم بيرل هاربر Pearl Harbor .. كما اقترح 29%

وضع المهاجرين القانونيين من بلاد "غير صديقة" في معسكرات اعتقال..

بعد شهرين من تلك الأحداث ازدادت نسبة الأميركيين الذين ينظرون للإسلام نظرةً إيجابية حوالي 15% وهذا رقم كبير.. ثم انخفضت تلك النسبة قليلاً في إستطلاع 6/1/2002 لكن نسبة الذين ينظرون نظرة سلبية انخفضت انخفاضاً كبيراً نتيجة لمزيد من المعرفة والتعمق في الدين الإسلامي..

وبشكل عام يعتقد ثلثا الشعب الأميركي أن الإسلام دين متسامح مع الأديان الأخرى ولا يشجع العنف والغلو. في أوروبا أظهر الاستطلاع أن معظم الناس يوافقون على هذه الجملة (الإرهابيون لا يعملون عمل المسلمين الحقيقيين).

وتبين أن 83% من البريطانيين لا يعرفون شيئاً أو يعرفون القليل عن الإسلام.. لكن البريطانيين كانوا أكثر شعب إيجابي حيث قال 90% منهم إن المسلمين البريطانيين لا علاقة لهم بالهجمات وفرق 80% منهم بين الإسلام والهجمات.

أما بالنسبة للفرنسيين فقد حدث تعاطف مع المسلمين وقال 75% منهم بأن سياسة الولايات المتحدة تتحمل بعض المسؤولية في الأحداث. أما بالنسبة لهولندا وهي بلد متسامح فقد أظهرت الاستطلاعات أن 60% من الهولنديين يفضلون ترحيل المسلمين الذين يؤيدون الهجمات، وأن 29% منهم يوافقون على التصريح الذي أدلى به زعيم حرب سياسيٍ يقول فيه: "أنا مع حرب باردة ضد الإسلام، وأعتبر الإسلام تهديداً عظيماً وهو مجتمع معادٍ لنا".

في إيطاليا وصف 43% من الإيطاليين الإسلام بأنه دين غير متسامح وما يزال موقف معظمهم سلبياً.. ومن الأخبار السيئة تلك المناقشات التي تجري على شبكة الإنترنت وفي الجرائد والمجلات.. أذكر منها مجلة National Review وهي إحدى مجلات الرأي الأميركية الرئيسة التي ناقشت موضوع إسقاط القنابل النووية على مدن إسلامية وعربية معينة (وهذه فكرة وردت في السابق على ألسنة عدة شخصيات سياسية مستعملين عبارة Nuke the Arabs).. والمدن المقترحة كانت طهران، وبغداد ودمشق كما ذكرت رام الله وغزة (في حال توصلت الأبحاث الأميركيةٍ إلى قنبلة ذرية نظيفة لا تدمر المناطق المجاورة).. وكذلك مدينة مكة المكرمة.. طبعاً هذا يظهر الهستريا الجماعية التي عاشها الأميركان لأشهر والتي هدأت كثيراً بعد تسمية "الأعداء" أو "محور الشر" وتحديد خطة الانتقام من "طالبان" و"صدام حسين" وآخرين!!

وفي هذه الأيام خرج كل الحقد والرغبة في الثأر إلى "الدول الشريرة" فعاد بعض السلام بين الأوروبيين والأميركيين وبين الإسلام داخل البلاد الغربية لكن ليس خارجها!!

á á á

لقد تم استجواب خمسة آلاف عربي ومسلم مقيمين بصورة قانونية

في الولايات المتحدة، واعتقل المئات على ذمة التحقيق كما تلقى مجلس العلاقات الإسلامية الأميركية حوالي 960 تقريراً عن حوادث اعتداء على حقوق وحريات المسلمين في الولايات المتحدة أثناء الأسابيع الستة التي أعقبت 11 أيلول 2001.

الفصل الرابع: صدام الحضارات حوار الحضارات

يقول هانس كنغ في كتابه: مشروع لأخلاق عالمية لا سلام عالمياً بلا سلام بين الأديان، ولا سلام بين الأديان بلا حوار بين الأديان، ولا حوار بين الأديان بلا دراسات جادة وأبحاث موضوعية.

á á á

* صدام أم حوار:

في صيف 1993 نشر صموئيل هنتغتون [12] مقالة طويلة في مجلة Foreign affairs بعنوان صدام الحضارات وقد أثارت الكثير من الجدل وأسالت الكثير من الحبر، وفي عام 1996 نشر كتاباً مفصًّلا نظريته بعنوان "صدام الحضارات وإعادة صنع نظام عالمي"..

وسنجد في الصفحات التالية إصرار المفكر الأميركي على رأيه بأن "حدود الإسلام دموية كما هي دواخله" لكن كلامه في الكتاب يميل لنعت السياسات الغربية الخارجية بالعنف والرياء. وقد دعا في النهاية إلى حوار الحضارات، وأوضح أن آخر شيء يتمنى رؤيته هو اندلاع حرب بين تلك الحضارات.

وفي السنة التالية لصدور كتابه كتب مقالة أخرى في المجلة نفسها تحت عنوان "تآكل المصالح الوطنية للولايات المتحدة" قال فيها: "إن الولايات المتحدة تفتقد أي تهديد يمكنها أن تقف ضده بشكل مقنع. فالأصولية الإسلامية (لاحظ هنا أنه لم يعد يقول الإسلام) منتشرة وبعيدة جغرافياً". وتبرأ بشكل ما من نظرية حتمية الصدام بين الإسلام والغرب التي اقترحها في مقالته الأولى عام 1993.

وتغير أسلوب ومفهوم وتفكير هنتغتون مع الزمن، ففي زيارته لدبي في تشرين الثاني عام 2001، ألقى خطاباً أظهر فيه فهماً جديداً ومتعاطفاً مع العالمين العربي والإسلامي ووجه نقداً شديداً وقاسياً لسياسة أميركا الخارجية. وركز في خطابه على أهمية تخلي الثقافة الأميركية عن فكرة العولمة، وتخلي السياسة الأميركية عن التدخل اللاشرعي لحل أزمات البلاد الأخرى، وتخلي الحكومة الأميركية عن دعم إسرائيل.

والمفارقة القاسية هي أن التطورات الدولية تسير باتجاه تنبوءات هنتغتون عام 1993 رغم تراجعه عنها كشخص ومفكر.

á á á

حدد هنتغتون الحضارات الكبرى المعاصرة بسبع حضارات: الصينية، اليابانية، الهندية، الإسلامية، الأرثوذكسية، الغربية، الأميركية اللاتينية، واعتقد أن الصدام محتمل جداً بين الحضارتين الصينية والغربية

والحضارتين الإسلامية والغربية.

"ففي الوقت الذي أصبح فيه الآسيويون متشددين بشكل متزايد كنتيجة للتطور الاقتصادي، فإن المسلمين يتجهون نحو الإسلام كمصدر للهوية والمعنى والاستقرار والشرعية والتطور والقوة والأمل، الأمل الذي يلخصه شعار "الإسلام هو الحل". هذا الانبعاث الإسلامي أو الصحوة الإسلامية Islamic Resurgence في مداه وعمقه هو آخر مظهر في تكيف الحضارة الإسلامية مع الغرب. إنه يجسد قبول الحداثة، ورفض الغربنة Westernization واستعادة الالتزام بالإسلام كمرشد في الحياة في العالم المعاصر. إن الانبعاث الإسلامي هو تيار رئيسي منتشر وليس متطرفاً ومعزولاً، وقد أثر في كل دولة وفي معظم مظاهر المجتمع والسياسة في معظم الدول الإسلامية. وهذه المظاهر هي الاهتمام المتزايد بالشعائر الدينية كالتردد على المساجد والصلاة والصيام، تعدد البرامج والمطبوعات الدينية، التركيز على الزي الإسلامي والقيم الإسلامية، وإعادة إحياء الصوفية. كذلك زيادة المنظمات والقوانين والمصارف والخدمات الاجتماعية الإسلامية.

وإن الحكومات الإسلامية والتيارات المعارضة لها تشددت في التركيز على الإسلام لتقوي من سلطتها وتضمن التأييد الشعبي.

ويرى هنتغتون أيضاً أن الانبعاث الإسلامي يحمل بعض التشابه مع حركة الإصلاح البروتستانتي: فكلاهما كان رد فعل لركود وفساد المؤسسات القائمة، وكلاهما كان دفاعاً ورغبة في العودة إلى شكل من الدين أنقى، كذلك العمل التبشيري، والتوجه نحو الناس من الطبقة المتوسطة الصاعدة النشطة. كلاهما أيضاً حركة معقدة، مع وجود تيارات متباينة، لكنّ اثنين منها رئيسيان: اللوثرية والكالڤينية، الأصولية الشيعية والسنية. بل هناك توازٍ بين جون كالڤن وآية الله الخميني والبرامج الدينية التي حاولا فرضها على المجتمع.

ويختلف الانبعاث الإسلامي عن الإصلاح البروتستانتي في الحدود الجغرافية والامتداد العالمي: فقد كان الثاني محدوداً بشمال أوروبا مع بعض التقدم في إسبانيا وإيطاليا وشرق أوروبا، بينما نجد أن الانبعاث قد أثر في كل مجتمع إسلامي وهذه المجتمعات ممتدة من المغرب إلى إندونيسيا، ومن نيجيريا إلى كازاخستان، وقد بدأ هذا الانبعاث في الظهور أولاً في المجال الثقافي، ثم تحرك إلى المجالات الاجتماعية والسياسية (في المجال السياسي مثلاً شجعت الجزائر ومصر وتركيا والأردن الحركات الإسلاموية لمواجهة الحركات الشيوعية والوطنية المعادية). كذلك عزرت الحكومات الممارسات والمؤسسات الإسلامية لإعادة تأكيد الطابع الإسلامي للدولة والمجتمع فصار الكلام عن "ديمقراطية إسلامية" أو "أمير المؤمنين" و"ملكية مالية إسلامية".

á á á

يدرس هنتغتون أيضاً البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامي فيرى فيه

مجتمعاَ قبلياَ حيث الجماعة الصغيرة والإيمان الإسلامي والأمة الإسلامية هي محاور التركيز الأساسية للولاء والالتزام، وإن فكرة الدولة القومية أقل أهمية.. لأنه ربما تكون فكرة السيادة القومية غير منسجمة مع الاعتقاد بسيادة اللّٰه وصدارة الأمة. وكحركة ثورية فإن الأصولية الإسلاموية ترفض الدولة القومية لصالح وحدة الإسلام تماماً كما رفضتها الماركسية لصالح البروليتاريا العالمية.

á á á

وبشكل متشائم يرى هنتغتون العلاقات المسيحية الإسلامية عبر التاريخ متضاربة وعاصفة، ففي القرنين السابع والثامن حقق العرب المسلمون توسعاً خارجياً وبنوا حكماً إسلامياً واستقرت خطوط التقسيم لقرنين آخرين، وبعدها في القرن الحادي عشر بدأت الحروب الصليبية ونجح الملوك المسيحيون بإقامة حكم مسيحي محدود في الأراضي المقدسة والمناطق المحيطة، ثم فقدت إسبانيا إلى طرف الغرب.. وحين ظهر العثمانيون أضعفوا بيزنطة والبلقان واستولوا على القسطنطينية وحاصروا ڤيينا، وهكذا (كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام) [13].

ومع القرن الخامس عشر انقلب الأمر واستعاد المسيحيون بعض المناطق واحتلوا غرناطة عام 1492، لكن العثمانيين عادوا فتقدموا وحاصروا ڤيينا للمرة الثانية عام 1683.. وحين فشلوا.. بدأ تراجع طويل الزمن وتحول "السوط الذي يجلد المسيحية" إلى "إنسان أوروبا المريض" وفي نهاية الحرب العالمية الأولى أقامت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا حكماً مباشراً أو غير مباشر في الأراضي المتبقية من الإمبراطورية العثمانية.

إذن كانت القرون الأربعة عشر مليئة بالكر والفر بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي وكانت الحروب سجالاً مع بعض الفترات القصيرة من السلام الكاذب والسطحي!!

فلماذا! كل هذه الحروب.. ولماذا هذا التوتر الدائم بين المسيحية والإسلام (وبالطبع اليهودية أيضاً). يطرح هنتغتون عدة أفكار في هذا الخصوص:

برأيه أن أتباع الإسلام والمسيحية واليهودية لديهم وجهات نظر غائية للتاريخ أي أن التاريخ البشري يتجه بشكل مستقيم من بداية إلى نهاية.. من آدم إلى يوم القيامة أو من بدء الزمان إلى آخر الأزمنة ومجيء أو عودة المسيح.. وهذه النظرة الغائية تولد تنافساً عالمياً وصراعاً بين الأتباع والأيديولوجيات. أما الحضارات الأخرى القائمة على الأديان الكونفوشيوسية والبوذية والأفريقية فإن وجهة النظر الجامدة والدائرية للتاريخ لا تحتّم التنافس والصراع.. أي أنها لا تذهب إلى غاية منتظرة ولا تتوقع نهاية مسيحانية (فالحياة دائرية وتكرر نفسها إلى ما لا نهاية نحو

كائنات أفضل!!).
من العوامل الحالية للصراع بين الإسلام والغرب يمكن أن نشير إلى النمو السكاني السريع للمسلمين مع نسبة كبيرة من البطالة وتحول تلك الطاقات الشبابية إلى قنابل إرهابية بأيدي الأصوليين، أيضاً الانبعاث الإسلامي (يجب دائماً تمييزه عن الأصولية الإرهابية)، وعولمة الغرب، وانهيار الشيوعية، وتطور الاتصالات مما فتح العالم على بعضه كلياً وأدى إلى الخوف من فقدان الهوية والخصوصية لكل ثقافة أو حضارة أو مجتمع. وهكذا صار هناك "خط صدع" بين الغرب والإسلام، وأمثلته الصراع العنيف بين الكروات والبوسنيين، وحرب الخليج الأولى والثانية، وحرب أفغانستان...

á á á

في العقود الثلاثة الماضية:
إن فشل السوفييت في حرب أفغانستان قد ترك وراءه تحالفاً من المنظمات الإسلامية تهدف إلى تعميق روابط الإسلام ضد كل القوى غير الإسلامية.
كما أن فكرة الجهاد الديني والسياسي للمتطوعين الأفغانيين الذين هزموا واحدة من القوى الكبرى في العالم (السوفييت قد أعطت المسلمين مزيداً من الثقة لضرب القوى الكبرى والانتصار عليها)، وهكذا أصبح أسامة بن لادن "البطل المسلم" وكذلك صدام حسين، (رغم أن معظم المسلمين متفقون أنه دكتاتور دموي لكن في الوقت نفسه يهتم "بشؤون عائلية" وليس لأحد التدخل فيها كما أنه يصارع الغرب والقوى العظمى).
وإن النظرة العامة تتغير مع الزمن: فحرب الخليج بدأت كحرب بين العراق والكويت ثم أصبحت حرباً بين العراق والغرب ثم بين الإسلام والغرب أو حرب الشرق ضد الغرب (حرب الرجل الأبيض).

á á á

تاريخياً عاش الصرب والكروات والمسلمون في سلام معاً كجيران لعقود طويلة، والزواج بينهم كان متداخلاً وتحديد الهوية بالديانة كان ضعيفاً وثانوياً. وحتى الالتزام الديني كان غير مهم عند الأغلبية فالبوسنيون المسلمون لم يذهبوا إلى المساجد، والكروات البوسنيون لم يذهبوا إلى الكنائس، كما أن الصرب البوسنيون لم يذهبوا إلى الكنائس الأرثوذكسية.. لكن عندما انهارت الهوية اليوغسلافية، فإن الهويات الدينية اتخذت علاقة جديدة، وحالما بدأ القتال أصبحت الهويات الدينية أكثر شدة وهكذا مع الوقت أصبح البوسنيون الصرب قوميين متطرفين، وحددوا أنفسهم مع صربيا والكنيسة الأرثوذكسية الصربية، والجماعات الأرثوذكسية. وأصبح الكروات البوسنيون كروات قوميين وركزوا على

كاثوليكيتهم، وحددوا أنفسهم مع كروات كرواتيا والكاثوليكية الغربية.

كان المسلمون البوسنيون علمانيين في رؤيتهم حتى قيام الحرب، وكانوا يرون أنفسهم كأوروبيين وأيدوا الدولة البوسنية متعددة الثقافات لكن الأمور تغيرت مع انهيار يوغسلافيا.

إن الدول الإسلامية الغنية ساهمت في جمع مبالغ من الأموال لتطوير القوة البوسنية، وأرسلت مئات الملايين من الدولارات للأغراض العسكرية والمعدات الحربية. وهكذا كانت الحرب في بوسنيا حرباً بين الحضارات والمشاركون الثلاثة الرئيسيون جاؤوا من حضارات مختلفة. فالدول المسلمة والمنظمات الإسلامية احتشدت خلف مسلمي البوسنة، وعارضت الكروات والصرب. وأيدت البلدان الأرثوذكسية الصرب وعارضت الكروات والمسلمين.. في حين أيدت الحكومات الغربية الكروات وانتقدوا الصرب. والاستثناء الوحيد كان موقف الولايات المتحدة التي خالفت النموذج الحضاراتي ووقفت بقرب المسلمين البوسنيين لأسباب كثيرة.

á á á

عندما تنبثق دولة الحضارة، يصبح شعبها محمياً بالذي يسميه توينبي "وهم الخلود"، ويعتقدون أن حضارتهم هي الشكل النهائي للمجتمع الإنساني.. وقد كان هذا هو الحال مع الإمبراطورية الرومانية، والخلافة العباسية، والإمبراطورية المغولية والإمبراطورية العثمانية.

وفي الوقت الحالي ينظر إلى الغرب كمجتمع ناضج وعصر ذهبي بسبب غياب أي وحدات متنافسة في فضاء الحضارة ذاتها.

á á á

يقول هنتغتون: إن حرباً عالمية تتضمن الدول الأساسية للحضارات العالمية الكبرى بعيدة الاحتمال لكنها ليست مستحيلة. مثل هذه الحرب، يمكن أن تكون نتيجة لتفاقم حرب خط الصراع بين جماعات من حضارات مختلفة والأكثر احتمالاً تتضمن المسلمين من جانب وغير المسلمين من جانب آخر.

وبكلمات أخرى قاسية تحدث هنتغتون عن العنف في الإسلام وحدد بعض الأسباب التاريخية والمعاصرة.

á á á

في الصراع بين الحضارات تخسر الحضارة، وفي الصراع بين الأديان تخسر الحقيقة.

á á á

يقول جان بودريار:

لا يتعلق الأمر لا بصدام حضارات ولا بصدام أديان، كما يتعدى بكثير الإسلام

وأميركا اللذين تجري المحاولة لحصر النزاع فيهما لتوليد وهم مجابهة مرئية ووهم حل بالقوة. صحيح أن في الأمر تضاداً أساسياً، لكنه تضاد يُبين، عبر طيف أميركا (التي ربما كانت المركز السطحي، لكنها ليست، بمفردها، تجسيد العولمة) وعبر طيف الإسلام (الذي، هو أيضاً ليس تجسيد الإرهاب)، أن العولمة المنتصرة تخوض صراعاً مع ذاتها. وفي هذا المعنى يمكننا الحديث عن حرب عالمية ليست الثالثة، بل الرابعة وهي الوحيدة العالمية حقاً، لأن رهانها هو العولمة بالذات. الأولى أنهت تفوق أوروبا والعهد الكولونيالي. الثانية أنهت النازية. الثالثة أنهت الشيوعية. ومن حرب إلى أخرى كنا نتقدم، كل مرة، خطوات أبعد في الطريق إلى نظام عالمي وحيد. وها إن الأخير وقد بلغ اليوم منتهاه، يخوض صراعات مع القوى المضادة المنتشرة [14] .

يقول موريس بورمانس:

"يعيش المسلمون والمسيحيون معاً، أينما كانوا، في عالم يسير نحو توحّد عسير. وهم، شاءوا أم أبوا يتعاونون فيه على تقدم الشعوب، ويعملون على خلاص البشر متعاضدين كإخوة مع الكثيرين من المؤمنين أو الملحدين. فإذا كان التاريخ قد شهد في الماضي انقسام العالم نسبياً إلى بلدان إسلامية ومسيحية وغيرها، فالأمر لم يعد كذلك اليوم. فهناك جماعات مسيحية موجودة الآن في كل مكان. وهناك جماعات إسلامية قد تأصلت في أوروبا وأميركا، خارجاً عن البلدان التي طبعها الإسلام بطابعه الديني والثقافي. وهكذا فالمسلمون والمسيحيون مدعوون إلى تنمية علاقاتهم وحوارهم في إطار تاريخي وجغرافي متجدد، على امتداد المسكونة كلها "مع مراعاة التنوع الشديد في القرائن الثقافية المحلية" [15] .

á á á

الفصل الخامس: الحضور والوجود

هل يهمّ إذا كانت نسبة المسيحيين أو المسلمين في العالم عشرين بالمئة أو ثلاثين أو أربعين، وما هو المهم: العدد والوجود أم التأثير والحضور.

من الواضح أن عدد المسلمين يزداد بسرعة كبيرة، لكن هل هناك اهتمام بعمق الإيمان وحضور الأشخاص الفاعل في المجتمع. بالنسبة لكثيرين خصوصاً في أميركا يشكل الإسلام مجموعة قواعد للحياة والعبادة وهو سهل بسيط، وفيه متعة الجدة والغرابة لذلك ينضمون إليه دون أن يعوا أعماق الدين، أما بالنسبة للمسيحية فقد عرفت حدودها الجغرافية والإنسانية ولا أعتقد أنها ستغامر من جديد في الشرق العربي أو الصين أو الهند، وربما ستعيد نشاطها في روسيا بعد انهيار الشيوعية.

لكن السؤال المهم: الحضور أم الوجود!!

á á á

المسيحية في الشرق:

تضاءل مسيحيو العراق من 6% إلى 2.5% منذ اندلاع حرب الخليج 1991. كما تراجعت نسبة الأقباط في مصر من 12% إلى 8% خلال السنين الخمس السابقة، وتراجع عدد مسيحيي الأردن إلى النصف خلال الخمسة عشر عاماً المنصرمة، كما أن 60 ألف فلسطيني مسيحي من بين 750 ألفاً أجبرهم الإسرائيليون على هجر منازلهم عام 1948 اتجهوا إلى أميركا وأستراليا وأوروبا. وإن الحرب اللبنانية أدت إلى هجرة ما يعادل 250 ألف مسيحي إلى الغرب لم يعد معظمهم بعد هدوء العاصفة.

وبشكل عام فإن عدد مسيحيي الشرق إلى التناقص، وبشكل متشائم أقول: إن كنيسة الشرق إلى الزوال وهذا سيئ لأنه سيحرم الشرق العربي من التعددية الدينية البناءة (رغم الخلافات الدينية الدموية أحياناً).

á á á

المسلمون في الوطن العربي والعالم:

تزايدت أعداد الدول الإسلامية بعد استقلال جمهوريات آسيا الوسطى عن الاتحاد السوفياتي (طاجكستان، كازاخستان، أوزبكستان، تركمانستان). هناك دول إسلامية، ودول يمكن اعتبارها إسلامية لكنها لم تنضم بعد إلى منظمة المؤتمر الإسلامي مثل البوسنة والهرسك، ودول ذات أغلبية إسلامية مثل أرتيريا وأثيوبيا، ودول تحوي أقلية إسلامية مثل الهند (حيث يعيش حوالي 150 مليون مسلم) والصين (حيث يوجد حوالي

100 مليون مسلم).

بشكل عام تواجه الدول الإسلامية مشاكل كبيرة كالفقر والنزاعات والتبعية والصعوبات السياسية والاقتصادية وأزمات مزمنة كقضية فلسطين، والصراع في كشمير، والبلقان والشيشان. ورغم تحرر معظم الدول الإسلامية من الاحتلال الخارجي، وتحقيق بعض النمو الثقافي والفكري إلا أن هناك الكثير بالانتظار كي تستطيع اللحاق بموكب الحضارة العالمي.

هناك ست وخمسون دولة في منظمة المؤتمر الإسلامي أكبرها مساحة هي "كازاخستان" وأصغرها "المالديف" وتتوزع هذه الدول الإسلامية على أربع قارات إلا أنها تتركز أساساً في قارتي أفريقيا وآسيا (حيث يوجد فيهما 53 دولة من أصل 56 دولة إسلامية). وهناك دولة واحدة في أوروبا هي ألبانيا ودولتان في أميركا الجنوبية هما سورنيام وغويانا.

إن أكثر الدول الإسلامية تعداداً هي إندونيسيا (حوالي 225 مليون نسمة) تليها باكستان (142 مليون نسمة) ثم بنغلاديش (حوالي 129 مليون نسمة). وسكان هذه البلدان الثلاثة تشكل حوالي ثلث عدد المسلمين في العالم (وهم بالطبع من غير العرب).

ويعيش حوالي ثلث الناس في العالم الإسلامي تحت خط الفقر خاصة في الدول الأفريقية الوسطى والجنوبية وهم يشكلون نسبة 40% من فقراء العالم جميعهم.

á á á

ما تزال النزاعات السياسية في الدول الإسلامية من أهم أسباب الفقر والتخلف الاجتماعي.

فمن بين 27 دولة إسلامية في آسيا هناك نزاعات بين 21 منها ومن بين 26 دولة إسلامية في أفريقيا هناك 16 دولة متنازعة.

ومن بين الدول العربية الاثنين والعشرين في منظومة دول العالم الإسلامي هناك 18 دولة متنازعة.

وفي منظمة العالم الإسلامي هناك 56 دولة تتنازع 37 منها بينياً، وقد حدث 127 نزاعاً في العقود الستة الماضية بين 37 دولة إسلامية.

ونتيجة ذلك يقدر عدد الضحايا بحوالي 600 ألف قتيل، أكثرهم في عقدي الثمانينات والتسعينات.

أغلب أسباب تلك النزاعات متعلقة بالحدود والخلاف حول مناطق معينة، كحرب الخليج الأولى (الصراع العراقي - الإيراني) وحرب الخليج الثانية (النزاع العراقي الكويتي) والنزاع الليبي التشادي، والكاميروني النيجيري، والإندونيسي الماليزي، والأفغاني الباكستاني.

á á á

بالنسبة للمسلمين الذين يشكلون أقليات في بلدان كبيرة كالهند

والصين فإن لديهم هموماً مشابهة. ففي الهند يشكل المسلمون حوالي 14% من مجموع السكان معظمهم يشتغلون في الزراعة، وإن مسلمي الشمال يتبعون المذهب الحنفي ويتكلمون اللغة الأردية والبنغالية أما مسلمو الجنوب فيتبعون المذهب الشافعي ويتحدثون اللغة التامولية.

من أهم مشاكلهم الصراع مع الهندوس حيث سقط الآلاف من القتلى منذ بداية النزاعات والحروب (حرب الـ 47 وحرب الـ 1959، وحرب الـ 1971) وحتى أحداث 1984، و1992.

وفي الصين يشكل المسلمون حوالي 11% من مجمل السكان. وتعتبر الفيليبين من أقدم الدول الآسيوية التي دخلها الإسلام على أيدي المسلمين العرب من التجار والدعاة ويعيش الآن حوالي ستة ملايين مسلم هناك.

á á á

أما الأقليات المسلمة في أوروبا وأميركا فتعاني في بعض الأماكن، بالإضافة إلى صعوبات الاندماج بالمجتمع والثقافة المحليين، من بعض الاضطهاد.. مثل ضغوطات اليمين المتطرف في النمسا والنازيين الجدد في ألمانيا، والتعصب القومي في البلقان.

بينما تعاني الأقلية المسلمة في أستراليا (حوالي 2% من مجموع السكان) من مشكلة الهوية والثقافة الإسلاميتين المعرضتين للذوبان.

المراجع

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: محمد أركون وآخرون، ترجمة هاشم صالح. دار الساقي.
الاستشراق: إدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب. مؤسسة الأبحاث العربية.
الإسلام الأصولي: برنارد لويس وادوارد سعيد، دار الجيل
حوار الحضارات: روجيه غارودي، دار عويدات.
صدام الحضارات: صموئيل هنتغتون، الدار الجماهيرية
الكنيسة الكاثوليكية والإسلام: ميشال لولون، المعهد الملكي للدراسات الدينية.
الأسس اللاهوتية في بناء حوار المسيحية والإسلام: مشير باسيل عون. دار المشرق.
رسائل ابن عربي: دار المدى.
التصوف الإسلامي: تور أندريه، ترجمة د. عدنان عباس علي. منشورات الجمل.
مع الشيخ الأكبر ابن عربي: عصام محفوظ. دار الفارابي.
الإسلام: روجيه غارودي، ترجمة وجيه أسعد. دار عطية.
الإنجيل برواية المسلمين: طريف الخالدي. دار النهار.
تاريخ يهوه: جورجي كنعان، الدار العربية للعلوم.
المسيحية والإسلام مرايا متقابلة: جامعة البلمند.
الإسلام في الفكر الأوروبي: ألبرت حوراني، مؤسسة نوفل.
تبحرين، اختطاف الرهبان: محمد بلحي. دار الفارابي.
مشروع أخلاقي عالمي: هانس كينغ. دار صادر.
شارل دو فوكو: الأب جرجس القس موسى. دار المشرق.
المسيحية والعرب: نقولا زيادة. دار قدمس.
صراع الآلهة: سمير فرحات، منشورات النور.
الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي: جورجي كنعان. دار بيسان.
شارل دو فوكو في نظر الإسلام: علي مراد. ترجمة علي مقلد
الخيرات الآتية: الأب جورج مسوح، جامعة البلمند.
القدس: المطران جورج خضر. تعاونية النور.
الصهيونية المسيحية: محمد السماك. دار النفائس.
العدل في المسيحية والإسلام: عادل تيودور خوري، مشير باسيل عون. المكتبة البولسية.
دراسات بيبلية، ثلاثة وعشرون جزءاً: بولس الفغالي. الرابطة الكتابية.

الأسرار حياة الإيمان: يوسف ضرغام. مطبوعات الكسليك.

المؤلف في سطور

من مواليد حلب - سوريا عام 1970، تخرّج طبيباً عام 1993 ثم عمل كخدمة اجتماعية مع الأطفال والشباب المعوقين والمشرّدين والمهمّشين حتى ربيع عام 1998، حالياً يمارس الطب (معالجة الأورام الخبيثة) في الولايات المتحدة. مقيم في ولاية إنديانا مع زوجته وطفلتيه.

عضو في منظمة العفو الدولية، جمعية حقوق الإنسان، جمعية الأدباء العرب الأميركيين، الجمعية العالمية ضد التعذيب، رابطة القلم الأميركية، ومنظمات مهنية وثقافية أخرى.

صدر له:

- **الحبّ يطرق بابي** (شعر)
- **هذا الوطن لم يعد لنا** (رواية)
- **هنا الأنبياء يُقتلون** (رواية قصيرة)
- **الغرباء** (رواية قصيرة)
- **نبوّة في صحراء** (رواية)
- **حضارة الحب** (شعر)
- **الأجراس تُقرع في بيت لحم** (رواية)
- **حارة الطيبين** (رواية)
- **أنثولوجيا الأدب العربي المهجري المعاصر** (تحت الطبع)
- **الإسلام بعيون مسيحية** (تحت الطبع)
- **مانديلا العرب** (تحت الطبع)

للتواصل:

www.lotfihadad.com

lhadadrc@yahoo.com

lotfihadad@hotmail.com

انتهى

---

[1] بعض الأفكار هنا مستمدة من هذه المقالة مع التعليق المناسب من المؤلف.

[2] البطريرك طيموثاوس الأول، "الكنيسة والإسلام في العصر العباسي الأول" دار المشرق بيروت 1977.

[3] اتكأت في هذا القسم على كتاب "الخيرات الآتية للأب جورج مسوح".

[4] من كتاب "الاستشراق بين دعاته ومعارضيه" هاشم صالح.

[5] راجع دراسة الراهب بولص فيما يخص ماسينيون ودو فوكو والحلاج.

[6] تنقيح حمد بن الحلاج بحسب رواية ابن باكويه في بداية حال الحلاج ونهايته.

[7] تنقيح ابن الحداد المصري بحسب مخطوط برلين الرقم 3492.

[8] من كتاب "الاستشراق بين دعاته ومعارضيه" هاشم صالح 2000.

[9] من كتاب "الاستشراق بين دعاته ومعارضيه" هاشم صالح 2000.

[10] كتاب "طبقات الصوفية"، وكتاب "موسوعة الصوفية".

[11] جملة من الإنجيل تظهر تأثر الكاتب بدينه المسيحي وإن تضمين هذه الجملة هنا له بعد أدبي

وروحي وجمالي رائع.

[12] الآراء الواردة في هذا الفصل هي آراء صموئيل هنتغتون وليست آراء الكاتب.

[13] برنارد لويس.

[14] ملحق نوافذ من جريدة المستقبل 11/11/2001.

[15] من كتاب توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين، منشورات المكتبة البولسية 1986.